الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة ابن خلدون- تيارت-
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
قسم التاريخ

دة. نعيمة طيب بوجمعة

مطبوعة بيداغوجية في مقياس:

علاقات الغرب الإسلامي مع السودان الغربي

موجهة لطلبة السنة أولى ماستر/ السداسي الثاني

تخصص تاريخ الغرب الإسلامي في العصر الوسيط

السنة الجامعية: 2023-2024م

جامعة ابن خلدون- تيارت-

كلية العلوم الانسانية والاجتماعية

قسم التاريخ

السداسي الثاني

مطبوعة بيداغوجية دة. نعيمة طيب بوجمعة
اسم المادة: علاقات الغرب الإسلامي مع السودان الغربي
مستوى المادة: أولى ماستر
مدة التدريس: 14 أسبوع

الأساتذة المسؤولين
الاسم واللقب: نعيمة طيب بوجمعة
الرتبة: محاضر أ
كلية العلوم الانسانية والاجتماعية

الطلبة المعنيون
الكلية أو المعهد: كلية العلوم الانسانية والاجتماعية
القسم: التاريخ
السنة: أولى
تخصص: ماستر تاريخ الغرب الإسلامي في العصر الوسيط

معلومات عن المادة:

تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء
المستوى: الثالثة
تخصص: ليسانس تاريخ عام
السداسي: الثاني
الوحدة البيداغوجية: وحدة تعليم أساسية
المعامل: 2
الأرصدة: 4
نافذة التواصل: naima.tayebboudjema@univ-tiaret.dz

طرق التدريس

حجم الساعات الأسبوعية
دروس: 1سا 30د
أعمال موجهة: 1سا 30د
أعمال تطبيقية: /
عمل شخصي: /
الإجمالي: 3سا

عناوين المحاور والمحاضرات:

الأسبوع	برنامج التدريس
المحور الأول: جذور العلاقات بين الشمال الإفريقي بإفريقيا جنوب الصحراء في الفترة القديمة	
1-	المحاضرة الأولى: العلاقات بين الشمال الإفريقي والسودان في الفترة القديمة
المحور الثاني: المسالك التجارية والعلاقات الاقتصادية	
2-	المحاضرة الثانية: المسالك التجارية
3-	المحاضرة الثالثة: تجارة القوافل ونظم المبادلات التجارية
المحور الثالث: الحواضر والقبائل الصحراوية الفاعلة في العلاقات	
4-	المحاضرة الرابعة: الحواضر الصحراوية والسودانية الفاعلة في العلاقات
5-	المحاضرة الخامسة: القبائل الصحراوية الفاعلة في العلاقات
المحور الرابع: العلاقات السياسية	
6-	المحاضرة السادسة: دولة المرابطين ببلاد السودان الغربي
7-	المحاضرة السابعة: العلاقات السياسية بين الغرب الإسلامي والسودان الغربي
المحور الخامس: العلاقات الاقتصادية	
8-	المحاضرة الثامنة: العلاقات الاقتصادية بين الغرب الإسلامي والسودان الغربي
المحور السادس: الصلات الثقافية	
9-	المحاضرة التاسعة: الصلات الثقافية بين الغرب الإسلامي والسودان الغربي
المحور الخامس: التأثير المغربي على السودان الغربي	
10-	المحاضرة العاشرة: التأثير المغربي على المجتمع السوداني
11-	المحاضرة الحادية عشر: التأثير المغربي على العمران السوداني
12-	المحاضرة الثانية عشر: المذهب المالكي بالسودان الغربي
13-	المحاضرة الثالثة عشر: التصوف والعقيدة الأشعرية في السودان الغربي
المحور الخامس: الأثر السوداني في بلاد المغرب الإسلامي	
14-	المحاضرة الرابعة عشر: التأثير السوداني على المجتمع المغربي.

مفردات مقياس علاقات الغرب الإسلامي مع السودان الغربي ضمن مشروع عرض تكوين الماستر المعتمد:

التعريف بالمادة:

عنوان الماستر: تاريخ الغرب الإسلامي في العصر الوسيط.

اسم المادة: علاقات الغرب الإسلامي مع السودان الغربي.

اسم الوحدة: وحدة التعليم الأساسية.

السداسي: الثاني

الرصيد: 4

المعامل: 2

الحجم الساعي الأسبوعي: ثلاثة ساعات

أهداف التعليم:

التعرف على العلاقات السياسية والثقافية والاقتصادية التي ربطت بين بلاد الغرب الإسلامي والممالك السودانية، وآثار ذلك على المنطقتين.

المعارف المسبقة المطلوبة: (وصف تفصيلي للمعارف المطلوبة والتي تمكن الطالب من مواصلة هذا التعليم، سطرين على الأكثر).

- المعارف المتعلقة ببلاد السودان، المجال، السكان، الممالك، التطورات السياسية.

المحاور الأساسية للمادة:

- **جذور العلاقات بين الشمال الإفريقي و أفريقيا جنوب الصحراء في الفترة القديمة.**
- **المسالك التجارية.**
- **الحواضر والقبائل الصحراوية الفاعلة في العلاقات.**
- **دولة المرابطين وامتداداتها في بلاد السودان.**
- **العلاقات السياسية.**
- **العلاقات الاقتصادية.**
- **العلاقات الثقافية**
- **الأثر المغربي في بلاد السودان: (انتشار الإسلام، المذهب المالكي، العقيدة الأشعرية، الطرق الصوفية، العمران المغربي...).**
- **الأثر السوداني في بلاد المغرب: (الفن الغنائي، أدوار العبيد السود، الأعلام السودانيون ببلاد المغرب...).**

طريقة التقييم: مراقبة مستمرة، امتحان (يترك الترجيح للسلطة التقديرية لفريق التكوين).

كتابي في نهاية السداسي والتقويم المستمر للأعمال الموجهة.

موضوع المقياس

إن مقياس "**علاقات الغرب الإسلامي مع السودان الغربي**" يغطي الفترة الممتدة ما بين التاريخ الوسيط و التاريخ الحديث المحصورة ما بين القرن الثاني إلى القرن العاشر عشر الهجريين/ القرن الثامن إلى القرن السادس عشر الميلاديين، عرفت هذه الفترة انتشار الإسلام ببلاد السودان الغربي بفضل بلاد الغرب الإسلامي، ابتداء من الفتوحات الإسلامية لغاية حملة السلطان السعدي على مملكة صنغاي سنة 1592م والتي تعتبر نهاية فترة الوسيط في تاريخ السودان الغربي، عرفت بلاد السودان تأسيس العديد من الممالك الإسلامية والتي ارتبطت بعلاقات سياسية ودبلوماسية وعلاقات اقتصادية بفضل التجارة العابرة للصحراء، مما نتج عنه صلات ثقافية ربطت بين ضفتي الصحراء.

هذا المقياس هو وحدة تعليم أساسية، موجه لطلبة السنة أولى ماستر، تخصص تاريخ الغرب الإسلامي في العصر الوسيط، وهو مادة سداسية، يتم من خلاله التعرف على طبيعة العلاقات التي ربطت بين الغرب الإسلامي وبلاد السودان الغربي، ولقد حاولنا من هذه الدروس إعطاء صورة واضحة عن أهم الأحداث التي شهدتها المنطقة خلال الفترة المحددة أعلاه، وهي فترة مهمة من تاريخ الغرب الإسلامي والسودان الغربي، والتي يمكن من خلالها نستطيع فهم المتغيرات والتطورات التي شهدتها المنطقة في العصر الوسيط.

وركزنا من خلال هذه المحاضرات على أهم التطورات التاريخية التي عرفتها علاقات الغرب الإسلامي مع السودان الغربي، مع الأخذ بعين الاعتبار المحاور المحددة للمقياس. فتم تسليط الضوء من خلال صفحات السند على عدة مواضيع، ففي المحور الأول المعنون بـ: **(جذور العلاقات بين الشمال الإفريقي بإفريقيا جنوب الصحراء)** حاولنا استعراض العلاقات الاقتصادية والتجارية التي ربطت المنطقتين مع بعض منذ القديم

بينما جرى التركيز في المحور الثاني (**المسالك التجارية**) على أهم محاور المسالك التجارية المحو الغربي والمحور الأوسط والمحور الشرقي والتي انطلقت منها عدة مسالك تجارية رئيسة تفرعت عنها مسالك ثانوية، ربطت بلاد الغرب الإسلامي بالسودان الغربي، كما تحدثنا في هذا المحور أيضا عن تجارة القوافل ونظم المبادلات التجارية.

أما المحور الثالث (**الحواضر والقبائل الصحراوية الفاعلة في العلاقات**) تحدثنا فيه في محاضرتين عن الحواضر الصحراوية والسودانية التي كان لها دور مهم في ربط المنطقتين سياسيا واقتصاديا، ثم تحدثنا بعدها في محاضرة مستقلة عن أهم القبائل الصحراوية الصنهاجية (لمتونة وجدالة ومسوفة) الفاعلة في العلاقات التجارية إضافة للقبائل غير صحراوية التي سكنت الصحراء خلال هذه الفترة كقبائل زناتة والسوننكة والبافور وعرب الفتح.

في حين تناول المحور الرابع (**دولة المرابطين وامتداداتها في بلاد السودان**) أهم التطورات والإحداث السياسية التي شهدها بلاد مملكة غانة بعد الفتح المرابطي لها، وانعكاسات هذا الفتح على بلاد السودان الغربي سياسيا واجتماعيا وثقافيا ومذهبيا.

والمحور الخامس يتعلق بـ: (**العلاقات السياسية**) العلاقات السياسية والدبلوماسية التي ربطت الكيانات السياسية المغربية بنظيراتها السودانية أخذنا نماذج.

والمحور السادس يتعلق بـ: (**العلاقات الاقتصادية**) العلاقات الاقتصادية تحديدا التجارية التي ربطت الكيانات السياسية المغربية بنظيراتها السودانية أخذنا نماذج.

والمحور السابع يتعلق بـ: (**العلاقات الثقافية**) ركزنا في هذا المحور على الصلات الثقافية التي ربطت الكيانات السياسية المغربية بنظيراتها السودانية أخذنا نماذج.

والمحور الثامن يتعلق بـ: (**الأثر المغربي في بلاد السودان: انتشار الإسلام، المجتمع، المذهب المالكي، العقيدة الأشعرية، الطرق الصوفية، العمران المغربي...**) الهدف من هذا المحور هو دراسة التأثيرات المغربية على مجتمع بلاد السودان الغربي، لذا تناول في ثلاث محاضرات التأثير المغربي على المجتمع السوداني، انتقال المذهب المالكي للسودان الغربي والعقيدة الأشعرية والتصوف ببلاد السودان الغربي وكيف انعكس ذلك على تطور الحياة العلمية والدينة السودانية.

والمحور التاسع (**الأثر السوداني في بلاد المغرب: الفن الغنائي، أدوار العبيد السود، الأعلام السودانيون ببلاد المغرب...**) الهدف من هذا المحور هو دراسة التأثيرات السودانية على بلاد الغرب الإسلامي، تناول في هذا المحور دور الأعلام السودانيين في بلاد المغرب في تنشيط الحركة العلمية.

يتطلب هذا المقياس إلمام الطلبة بمجموعة من المفاهيم والمعلومات القبلية السابقة حتى يتمكنوا من فهم و متابعة هذا المقياس خاصة وأنعم لم يدرسوه في مراحل التعليم الأولى (الابتدائي، المتوسط، الثانوي)، ومن بين أهم هذه المكتسبات:

1. الالمام بلغة أجنبية على الأقل إلى جانب اللغة العربية، لأن معظم الدراسات كتبت باللغات الأجنبية (الفرنسية الإنجليزية والبرتغالية).
2. معرفة مصطلحات معينة مثل إفريقيا ودولها، السودان، البيضان، السينيغامبيا وغيرها.
3. معرفة أهم المصادر المشهورة مثل ابن حوقل، البكري، ابن بطوطة، الحسن الوزان، عبد الرحمن السعدي، محمود كعت، البرتلي، أحمد بابا التنبكتي.
5. معرفة بخريطة القارة الافريقية.

وفي الختام أتمنى أن أكون قد وفقنا في تقديم عمل يساهم في توسيع الدراية التاريخية لطلبتنا الأعزاء بخصوص طبيعة العلاقات التي ربطت ما بين الغرب الإسلامي وبلاد السودان الغربي، نحن نعلم بأن هذه المحاضرات لن تغطي كل العلاقات التي ربطت المنطقتين سياسيا وحضاريا، لكن على الأقل توجههم للطريق الصحيح لمن أراد التعمق في دراسة وضوع العلاقات بينهما.

والله الموفق

أستاذة المقياس

دة. نعيمة طيب بوجمعة

2024/10/8

المحور الأول

جذور العلاقات بين الشمال الإفريقي بإفريقيا جنوب الصحراء في الفترة القديمة

المحاضرة الأولى: جذور العلاقات بين الشمال الإفريقي و إفريقيا جنوب الصحراء في الفترة القديمة

منطقة الشمال الإفريقي هي المنطقة الواقعة بين البحر الأبيض المتوسط شمالا، والصحراء الكبرى جنوبا، وبين خليج سرت شرقا، والمحيط الأطلسي غربا. أطلقت عليها عدة تسميات خلال تاريخها الطويل: ليبيا أطلقه الإغريق، إفريقية أطلقه الرومان ثم أخذه العرب عن البيزنطيين، وأطلقوه على كل ما يلي مصر غربا وحتى المحيط الأطلسي، فيما عدا ولايتي برقة وطرابلس، ثم بدأ اسم إفريقية يتقلص وبدأ مكانه اسم "المغرب" في الظهور، وأصبح يعني المنطقة التي تلي مصر غربا حتى بجاية، ثم أصبح يعني في العصور المتأخرة المنطقة من بجاية حتى المحيط الأطلسي، وتتوسطه إفريقية وأدخل البعض الأندلس، وبلاد المغرب قسمت إلى ثلاث مناطق: إفريقية، المغرب الأوسط، المغرب الأقصى، وكان سكان المغرب القديم يتكونون من:

الروم: استوطنت جماعة منهم الشمال الإفريقي قبل البربر، وعند الفتح كانوا يسكنون المدن الساحلية المحصنة بدء ببرقة وانتهاء بطنجة، أما **اليهود** فقد قدموا للمنطقة إثر هجرات متعددة. أما **الأفارقة**: الأفارق، عجم إفريقية، الأفارقة الأعاجم هم خليط من القرطاجيين اللاتين والوطنيين، نسبوا أحيانا إلى أصول رومية. و**السودان**: لم تذكر المصادر صراحة وجودهم كتكتل سكاني في الشمال الإفريقي، لكن اتصالهم ببلاد المغرب قديم، وذكروا باسم "الأثيوب"، كما كان هناك **البربر**.

1- <u>سكان بلاد السودان</u>:

إن أكثر الأماكن كثافة هي المناطق الممتدة على الساحل الغربي ما بين نهر السنغال والكمرون، ودلتا نهر النيجر[1] وشمال نيجيريا، أما بالنسبة للسكان فقد ذكر الجغرافيون والمؤرخون العرب أمما كثيرة من السودان كالزغاوة، بقارة، كانم، فلان، صنغاي، ماندينجو، سكنوا الإقليم الواقع بين النيجر الأعلى ونهر السنغال، ومن أهم فروعهم: السوننكة في الشمال، المالنك في الجنوب، وعلى امتداد نهر السنغال نجد التوكولور (Toucouleur) يجاورهم الوُلُوف والسيرر (Sérèr).

2- <u>المناخ</u>:

يمتد السودان بين خطي عرض شمالا، فهو يشمل إذن عدة مناطق مناخية الاستوائية والمدارية والصحراوية[2]، والذي يتميز بارتفاع الحرارة وزيادة كبيرة في الرطوبة، تكثر الأمطار في إفريقيا الغربية على العموم، غير أنها تقل كلما اتجهنا نحو الشمال في الداخل، وتبقى المناطق الساحلية غزيرة الأمطار وتصل إلى درجة تصعب معها رؤية الأشياء[3]، وبذلك يمكن تمييز مناخ السودان الغربي فيما يلي:

المناخ الصحراوي: يسود المناطق الشمالية المتاخمة للصحراء الكبرى ممتدا إلى صحاري كل من النيجر ومالي والسنغال، ويمتاز هذا الإقليم بشدة الحرارة وندرة الأمطار.

---

[1]- **نهر النيجر**: عرف نهر النيجر عند العرب بنيل السودان، وهو ثالث أطول أنهار القارة الإفريقية، بعد كل من نهري النيل والكونغو، ينبع من هضبة فوتا جالون بعد التقاء عدة روافد قادمة من كل من غينيا وبوركينا فاسو وساحل العاج، ويبدأ في جنوب دولة غينيا بالقرب من الحدود مع سيراليون، ومن ثم يتخذ اتجاه الشمال الشرقي حتى دولة مالي، ومنها يتحول المجرى إلى الجنوب الشرقي ليعبر كلا من دول النيجر وبنين ونيجيريا على التوالي، ليصب في النهاية في خليج غينيا في المحيط الأطلسي، ويتخذ اتجاه الشمال الشرقي متجها إلى مالي ليمر بالمنطقة المعروفة بالدلتا الداخلية للنهر؛ بعد تجاوز النهر منطقة الدلتا الداخلية يبدأ في الانعطاف ناحية الجنوب الشرقي فيما يعرف بحلقة النيجر ليعبر مساحة من الأراضي الصحراوية عبر الحدود النيجيرية بعد استقباله كميات كبيرة من المياه من روافد تنبع في كل من النيجر وبنين، رغم ذلك يتعرض النهر لخسارة مائية لارتفاع معدلات التبخر في تلك المنطقة. وفي نيجيريا يلتقي النهر بأهم روافده الذي يسمى نهر بينيو إلى جانب روافد أخرى قادمة من الكاميرون، ويكونان ما يعرف بدلتا النيجر، وهي الدلتا الأكبر في القارة تعادل مساحتها ما يزيد عن 7% من مساحة نيجيريا، وتمتاز الدلتا بوجود قنوات صالحة للملاحة إلى جانب وجود مستنقعات وبحيرات ساحلية.

[2]- محمود شاكر، **السودان ومواطن الشعوب الإسلامية في إفريقيا**، المكتب الإسلامي، بيروت، ط2، 1401هـ/1981م، ص 44.

[3]- محمد فاضل علي باري وسعيد إبراهيم كريدية، **المسلمون في غرب إفريقيا تاريخ وحضارة**، دار الكتب العلمية، لبنان، 2007، ص 23.

الإقليم الساحلي: يقع على الأطراف الشمالية من حزام السافانا، منطقة شبه صحراوية وكأنها مرحلة انتقالية ما بين السافانا والصحراء وليس من السهل وضع حد له، لأن المنطقة تتغير بشكل غير محسوس، به سهل منخفض ومدن شبه صحراوية، الرعي، معظم سكانه بربر وفلان، ويمتاز بفصلين مناخيين أحدهما جاف والآخر ممطر وخاصة في السواحل الموريتانية والسنغالية نظرا لتأثر المحيط الأطلسي.

المناخ المداري: يمتاز بارتفاع متوسط حرارته تصل إلى 28^0 له فصلان ممطران، وبينهما فصل جاف ويمتاز هذا المناخ بغزارة الأمطار، ويمتد من غينيا إلى نيجيريا.

مناخ المرتفعات: يسود في المناطق الجبلية المرتفعة ويميل نسبيا إلى البرودة وغزارة الأمطار[1].

حزام السافانا: يقع بين خطي 15^0-16^0 شمالا، يغطي الجزء الجنوبي والأخير من بلاد السودان الأوسط والغربي فيما بعد الصحراء، وهو أعرض حزام، ومن أغنى المناطق، عبارة عن هضبة منخفضة منحدرة نحو الشمال باستثناء جبال الكمرون في الجنوب الشرقي. من هضابه هضبة باوتشي في شمال نيجيريا وهضبة فوتا جالون، ومن أنهاره: السنغال، النيجر وروافدهما، الحياة البرية به غنية ومتنوعة، ويحتل الرعي مكانة مهمة وتليه الزراعة.

خريطة الأقاليم المناخية لبلاد السودان (أفريقيا جنوب الصحراء) نقلا عن حسين بوبيدي

شعرت المجتمعات الزنجية بحاجة ماسة لحماية نفسها من عدوها الرئيسي وهم بدو الصحراء، فعملوا على إنشاء تجمعات كونفدرالية تدل عليها حصون "دار تشيت" لمقاومة ضغط الرحل، فظهر خلال الألف الأولى للميلاد مجتمعات منظمة تعاقبت في السودان الأوسط والغربي وصارت دولا حقيقية كغانة ومالي. ولكن هناك غموض يكتنف نشأتها الأولى، أين كان للأساطير دور كبير فيه، فالأساطير السودانية تدعي أن الأصول الأولى لممالك السودان ترجع إلى وصول غرباء من الشمال أو الشمال الشرقي، وهناك من يقول بأن قيام الممالك السودانية هو تطور ذاتي لسكان السودان في فترة العصر الحجري الحديث. والمعلومات المتوفرة عن العلاقات بين المنطقتين هي تلك التي تركها الكتاب القدماء والمعلومات الأثرية كالرسوم الصخرية الصحراوية، كما أن المادة المتاحة

[1]- حاج أحمد نور الدين، **المنهج الدعوي للإمام المغيلي**، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية، قسم أصول الدين، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2011/2010م، ص 16.

ذات أصل روماني، وكانت العلاقات في بدايتها عبارة عن تداخل إقليمي قبلي قوامه اقتصادي بدائي، كما كانت هناك هجرات للرعاة تتبعا للأمطار الموسمية، ومواقع الملح في نقاط المياه الجوفية، كما وجدت حرفة الصيد.

خريطة بلاد السودان (أفريقيا جنوب الصحراء) نقلا عن حسين بوبيدي

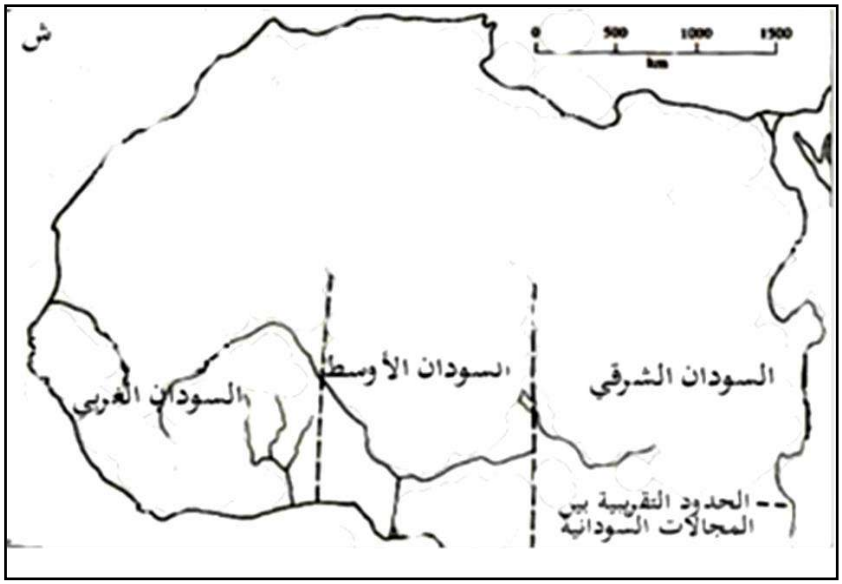

3- <u>علاقات شمال إفريقيا مع إفريقيا جنوب الصحراء في القديم</u>:

العلاقات في العصر الفينيقي:

وصلوا إلى الشمال الإفريقي وطردهم الإغريق والرومان من المنطقة، وهذا دليل على وجود تجارة على جانب من الأهمية مع الداخل خاصة تجارة الكاربنكل (تجارة الأحجار الكريمة)، كما ورد بأن قرطاج كانت تستورد الذهب عن طريق قبائل الجرامانت غير أن الحفريات في منطقة فزان لم تسفر عن شيء، ومن الجهة الغربية حاول الفينيقيون الوصول للمناطق الجنوبية عبر المحيط، بهدف إنشاء مستعمرات على الساحل، أما ما يرجحه المؤرخون هو البحث عن الذهب، ولكن بغياب الأدلة الأثرية فإن الوجود القرطاجي في غرب إفريقيا يصبح مجرد تخمين.

العلاقات في العصر الروماني:

بعد قضاء الرومان على قرطاجنة واحتلالهم للأمبوريا (المستعمرات البونية على ساحل شمال إفريقيا وتعني الأسواق أو المحطات) جعلهم على اتصال بالجرامانت، فحرص الرومان على فرض الأمن والنظام فشنوا حملات لتأديبهم، فقال البعض بأنهم توغلوا حتى نهر النيجر. وتجارتهم مع الجرامانت لم تكن كبيرة الحجم، ويوجد أدلة على وجودها بفزان (تجارة الحجارة الكريمة، تجارة العاج، استيراد الحيوانات). أما فيما يخص الفترة الوندالية (429-533م) والبيزنطي (533-647م) فالمعلومات نادرة فيما يخص العلاقات إلا المبادلات التجارية.

علاقة العرب والمسلمين ببلاد المغرب وبلاد السودان قبل الفتح:

وردت إشارات كثيرة إلى صلة العرب بالشمال الإفريقي قبل بداية الفتح منذ عهد التبابعة وربما قبل ذلك، وإليهم يعزى مع زناتة استخدام الجمل في الشمال الإفريقي. وبظهور الإسلام لم تنقطع هجرة العرب، فضلا على أن المسلمين قد بدأوا الحديث والكتابة عن إفريقيا والإفريقيين وعن فضل السودان عامة، وكتاب العصر الأموي أسبق من عدد أصناف أمم السودان، واستنادا على ذلك دون اليعقوبي التواريخ القومية للأمم الإفريقية. العلاقات غير الرسمية كالهجرات القبلية والفردية التي خرجت من الشمال الإفريقي مخترقة الصحراء جنوبا، والمعلومات في تلك المرحلة تكاد تنعدم، ولكن نستنتج من الأحداث السياسية والبيئية

والاقتصادية العوامل التي دفعت بالمزيد من القبائل البربرية إلى الصحراء، وربما وصلت بعضها إلى حدود بلاد السودان الشمالية في القرون الأولى للألف الأول قبل الميلاد بسبب ما تعرضوا له على الحدود الرومانية. وساعدهم استعمال الجمل خلال القرنين الثالث والرابع على تسريع هجراتهم. كذلك العمليات العسكرية التي صاحبت الفتح الإسلامي للمنطقة زاد من حدة وكثافة هجرة القبائل البربرية نحو الصحراء وإلى الجنوب منها بنظر ابن خلدون (لمطة، هوارة، صنهاجة، زغاوة...)، كما أن ازدياد جفاف الصحراء ساهم في زيادة هجرة قبائل لمطة وهوارة نحو الأراضي الأكثر رطوبة في حوض بحيرة تشاد، واستدل المؤرخون على أدلة لغوية لإثبات الروايات الشفوية التي تتحدث عن الهجرات القبلية من الشمال إلى الجنوب في منطقة السودان الأوسط. وكان لفتح عقبة لمنطقة فزان أن دفع بالكثير من العناصر البربرية ناحية الجنوب، مما أحدث تغييرا في التركيبة البشرية في الصحراء، فالقبائل التي كانت تسكن المنطقة، والتي أسماها الإغريق والرومان "الجرامانت" ذكرهم البكري "أنباط"، كما أن الفترة التي أعقبت سقوط الأمويين شهدت العديد من الهجرات.

قام سكان الواحات الصحراوية من البربر بالجانب الأكبر في الاتصالات بين الجانبين المغربي والسوداني، فواحات الجزء الشرقي من صحراء فزان/كوار، وواحات الوسطى وارجلان غدامس/تادمكة، أدت إلى وصول أعداد كبيرة من المهاجرين إلى منطقة بحيرة تشاد، ونظرا لارتباط حوض النيجر الأوسط بهذه المنطقة استقبلت نفس العناصر المهاجرة. وفي الفترة ما بين 287-391هـ/900-1000م كانت فترة عصيبة قيام ثورات الخوارج، مما أدى إلى هروب أعداد كبيرة من البدو إلى الصحراء، وصل بعضهم إلى السودان (هوارة،زناتة)، ونفس الأمر حدث بعد الهجرة الهلالية 441هـ/1049م. وتنقل السكان في الجزء الغربي من بلاد المغرب وبلاد السودان كان بسبب العامل الجغرافي المتمثل في جفاف المنطقة وتصحرها، دور كبير في الهجرات كهجرة قبائل الفلاني نحو الجنوب.

أما عن العناصر اليهودية المهاجرة من الشمال دور في العلاقات ما بين بلاد المغرب والسودان، وبدأت هجرتهم في فترة الحكم الروماني بعد الثورة التي قاموا بها ضد الحكم، فاتجهت مجموعة منهم نحو أدرار أين أسسوا عاصمة لهم في تامنطيط، وأشار بعض المؤرخين إلى امتصاص العناصر اليهودية للعديد من المجموعات الزناتية الصحراوية التي كانت على المذهب الخارجي وتخلت عنه لتصبح يهودية، وواصل اليهود زحفهم حتى وصلوا منطقة انحناءة النيجر الكبرى أين استقروا لبعض الوقت ثم تحركوا غربا نحو منطقة الحوض وأوكار، واختلطوا بالسكان المحليين. وكان لليهود نشاط اقتصادي ملحوظ بالمنطقة، وكان لانتشارهم ببلاد المغرب في واحات الصحراء، وتواجدهم في ملاحات البربر التي تعتبر مراكز تجميع للمعلومات عن المناطق الداخلية دور كبير في مد الأوربيين بالمعلومات عن بلاد السودان. كما استفاد ملوك السودان من تلك العناصر والقبائل النازحة من بلاد المغرب، فاستغلوا قدراتهم وكفاءاتهم وتمتعوا بمكانة عالية واحترام متبادل.

بلاد الصحراء[1]:

1- التسمية والحدود:

[1]- يعتبر مصطلح الصحراء من المفاهيم والتعابير الشائعة بشكل كبير، تعددت دلالاته ومعانيه في اللغة العربية، ويعني أشياء مختلفة ومتعددة حتى في اللغات الأخرى، وحسب ابن منظور الصحراء هي "الفضاء الواسع الذي لا نبات فيه، وقال ابن شميل الصحراء من الأرض مثل ظهر دابة ليس بها شجر ولا إكمام ولا جبال ملساء". وتختلف تسميات الصحاري باختلاف خصائص الأرض واختلاف المنظر الطبيعي بها، إلا أن الفهم السائد هو أنها تعني ما تعنيه كلمة **Désert** في اللغة الفرنسية، مع أنها تعني في اللغة العربية المكان الخالي من العمارة الذي لا أنيس به، ولها أكثر من مترادفة كالبيداء والقفر والقاف والمفازة. ولدى الطوارق كلمة الصحراء لها مفرادت عدة وفق نوعها الذي يحدده عنصري الماء والمرعى، فتسمى "**تانزروفت**" التي تعني الصحراء القاحلة والواسعة التي لا ماء فيها ولا نبات وهي صحراء وسط الصحاري، وبذلك سميت المنطقة الممتدة بين الهقار وموريتانيا **تينيري**: وتعني البسيط الفسيح الممتد الذي لا جبال فيه و لا كثبان رملية، و**أمناس**: هو منخفض صحراوي كبير.

عرفت المنطقة الصحراوية الفاصلة بين شمال وغرب إفريقيا عبر تاريخها الطويل تسميات عدة حسب الفترات الزمنية المتعاقبة عليها، ولعل من أبرز التسميات خلال العصر الوسيط تسمية "صحراء الملثمين" التي أطلقها عليها مؤلفو كتب المسالك والممالك والمؤرخون العرب، نتيجة سيطرة الملثمين عليها اقتصاديا وسياسيا وبالتالي نسبت إليهم[1]، ويقول ابن خلدون "كان هؤلاء الملثمون في صحاريهم". وتطلق الصحراء الكبرى عادة على مجموع البلاد الممتدة من المحيط الأطلسي غربا إلى البحر الأحمر شرقا، ومن واحات بلاد المغرب شمالا إلى منطقة السودان الغربي جنوبا، وتضم حوالي ربع مساحة القارة الإفريقية.

أما عن حدودها فمن الصعب ضبطها بشكل دقيق، نتيجة الخلط والغموض الناتجين عن تعدد المصادر التي تطرقت لذلك، ولعدم دقة الحدود في العصر الوسيط، مثلا تعريف البكري يبقى غامضا إلا في بعض جوانبه، فهو لا يقدم سوى الحدود الشمالية والجنوبية للمنطقة، وحتى الحدود الشمالية تبقى مبهمة، فهي تارة ما بين السوس الأقصى وتارة ما بين وادي درعة[2]، وبالتالي هي حدود طبيعية وسياسية، وتقسم الصحراء أيضا إلى الصحراء الشرقية والوسطى والغربية.

الحدود الجنوبية هي أكثر وضوحا لأن الفواصل فيها بشرية وطبيعية في آن واحد، فمن الناحية الجنوبية الغربية نجد نهر السنغال الذي يعتبر الحد الفاصل بين بلاد بني دكالة وبلاد السودان، كما أن منعطف نهر النيجر في الناحية الجنوبية الشرقية له الدور نفسه خاصة عند موقع تنبكت، هذا لا يعني أن كل المناطق الواقعة بين النهرين كانت كلها للصنهاجيين وحدهم خلال العصر الوسيط، أما الحدود الغربية فلا اختلاف حولها تحدها غربا المحيط الأطلسي، أما الحدود الشرقية تحتاج إلى قدر من البحث والتدقيق، إذ لم تبينها المصادر بشكل واضح فقط بعض الإشارات وهي مملكة تادمكة، بينما تلامس حدودها الشمالية الشرقية الإمارات الزناتية التي كانت تقع إلى الشرق من بلاد مسوفة.

في النهاية خلص الباحثون إلى إعطاء حدود تقريبية للصحراء، فجعلوها تبتدئ في الشمال من الغرب إلى الشرق قريبا من خط 29 و15 بكلميم والواحات المحاذية للجهة الجنوبية لسلسلة باني، إلى 34 و30 بقفصة مرورا بواحات النخيل التي تخترق وسط الجزائر في مناطق التماس بين جبل أمور والسهوب الوسطى بالجزائر، وتنتهي الصحراء في الجنوب عند خط 19 برأس تيميريس انطلاقا من نواكشط إلى خط 16 بكورو-تورو، مرورا بتنبكت وأدرار إيفوغاس، وهي المنطقة التي تربط الصحراء بمنطقة الساحل في الجنوب، حيث يبدأ ظهور غطاء نباتي مختلف ومتنوع[3].

2- التضاريس والمناخ:

تعتبر هذه الصحاري من أجف وأحر صحاري العالم حيث توجد في أجزائها الداخلية عدد قليل من الواحات والآبار فكان من الصعب على الرحالة اختراقها بسبب شدة الحرارة وكثة الكثبان الرملية وقلة المياه فلا يمكن اختراقها دون أن يلتحق بإحدى القوافل التجارية التي كانت تملك الطرق التجارية المعروفة[4]. وتشغل الصحراء الكبرى مساحة واسعة تمتاز بانبساط سطحها بصفة عامة، وتضم خليطا من المناطق التي ينخفض مستواها عن سطح البحر، والعروق الرملية والهضاب المتوسطة الارتفاع وتغطي

---

[1]- ولد الحسين الناني، **صحراء الملثمين دراسة لتاريخ موريتانيا وتفاعلها مع محيطها الإقليمي خلال العصر الوسيط من منتصف القرن 2هـ/8م إلى نهاية القرن 5هـ/11م**، تقديم محمد حجي، دار المدار الإسلامي، لبنان، ط1، 2007، ص17.

[2]- أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري، **المسالك و الممالك (المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب)**، ج2، تحقيق أدريان فال ليوفت وأندري فيري، الدار العربية للكتاب، تونس، 1992،ص 77.

[3]- ولد الحسين الناني، المرجع السابق، ص ص 20-21.

[4]- فيج جي دي، **تاريخ غرب أفريقيا**، ترجمة يوسف نصر، دار المعارف، ط1، 1982م، ص 17.

الصخور والأحجار والرمال والسباخ[1]، وتمتد ثلاث سلاسل كبيرة من الجبال الصخرية هي نحو الشرق لمرتفعات موريتانيا وسلسلة جبال الهجار التي تشكل سلسلة الجبال الوسطى الصحراوية وتتفرع عنها جبال الآيير في الجنوب في الجنوب الشرقي وسلسلة جبال تبستي التي تمتد في الشرق على الحدود بين ليبيا وتشاد[2]، وعدت تلك المناطق شبه الصحراوية وبخاصة عند مجابات المياه حيث أصبحت مناطق مأهولة يتواجد فيها التجار كي تساعدهم على التنقل نحو مناطق أخرى تتوفر فيها واحات المياه الأمر الذي مكنهم من قطع الصحراء والتنقل فيها صوب المناطق التي يقصدونها[3].

والسمة الغالبة على مناخها فهو المناخ الصحراوي الحار أي المداري الجاف الذي يبتسم بقلة الأمطار بل وانعدامها أحيانا وهو ما يعكسه على قلة الغطاء النباتي فيها الأمر الذي ابن خلدون إلى تبيان الاختلاف القائم بين المناخيين اللذين سادا موطنه علاوة على التدرج الواقع بينهما فهو يحدد نمطين يصف الأول منهما بمزاج التلول والثاني بمزاج الصحراء ويعني بالأول مناخ البحر المتوسط ويقصد بالثاني المناخ المداري الجاف ممثلا بالمنطقة التي تضم السفوح الجنوبية لجبال الأطلس وبلاد الجريد[4]، وبطبيعة الحال فإن ذلك الوصف يأخذ بعين الاعتبار هواء الرقعتين وماءها ونباتها[5].

2- السكان:

عرفت الصحراء عدة هجرات بشرية عبر تاريخها الطويل، وكانت الموجات اللاحقة من المهاجرين إليها غالبا ما تدخل في صراعات مع السكان الذين استقروا بالمنطقة قبلها، تنتهي بإخضاعهم وذوبانهم في المجتمع الجديد الذين تهيمن عليه موجة المهاجرين الجديدة، وارتبطت الصحراء منذ القدم بمنطقة شمال إفريقيا، ففي العصر العاتري عرفت المنطقة هجرات لمجموعات بشرية من آسيا إلى مصر، ومنها تتبعت الشاطئ المتوسطي حتى وصلت الشواطئ الأطلسية، ومنه انسابت للصحراء وانتشرت ببطء حتى وصلت إلى ضفاف نهر السنغال.

وخلال العصر الحجري الحديث تحسنت الأدوات الحجرية، مما أدى إلى انتشار حرف جديدة كالزراعة والرعي، الأمر الذي نتج عنه التقري في المنطقة فتولد عنه تنظيم المجتمع وتطور الأفكار. ومع النيولتيين تم انتشار الاقتصاد والحضارة بسرعة مذهلة خلال الألف الرابعة قبل الميلاد عبر الصحراء بواسطة الهجرات التي توالت عليها، وتعايش الإنسان الأبيض مع المجموعات السودانية في الأطراف الجنوبية للصحراء منذ العصر الحجري القديم، وكانت الهجرات تتم بشكل يتناسب طرديا مع التغيرات المناخية التي عرفتها المنطقة (الرطوبة/الجفاف). ومع بداية عصر النحاس شهدت المنطقة توغل مجموعات بربرية باتجاه الجنوب، وصلت ذروتها خلال الألف سنة الأخيرة قبل الميلاد، وظهرت عدة تسميات لشعوب الصحراء، سماهم الكتاب القدامى "الأثيوبيون" بغض النظر عن الجنس البشري الذي ينتمون إليه، ومع بداية العصر الميلادي ظهرت تسميات أخرى لشعوب الصحراء، منها:

شعب الفاروسي: كانوا جيران الجيتول

شعب النَازامُنيين: يعيشون وراء جبال الأطلس المغربي وذكرهم هيرودت منذ ق 5 ق.م

---

[1]- إبراهيم بن سليمان الأحيدب، **إقليم الصحراء الكبرى**، مج 11، الموسوعة الجغرافية للعالم الإسلامي، المكتبة العربية السعودية، الرياض، ط1، 1999م، ص 20.

[2]- إسماعيل العربي، **الصحراء الكبرى وشواطئها**، المؤسسة الوطنية للكتاب، النشر والتوزيع، الجزائر، 1983، ص 14.

[3]- مزاحم علاوي محمد الشاهري، "حضارة الصحراء الكبرى من خلال مصادر العصر الوسيط"، مجلة عصور الجديدة، العدد 5، 2012م، ص 115.

[4]- **بلد الجريد:** تعرف بقسطيلية تقع جنوب تونس فإن هذه الدولة قد تربعت على رقعة شاسعة من المغرب العربي تحيط بالدولة الأغلبية من الغرب والشرق والجنوب المزيد حول هذه المنطقة، ينظر: إبراهيم بكير حاز، **الدولة الرستمية (160-296هـ/777-909م) دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية**، جامعة التراث القرارة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1993م، ص 99.

[5]- مزاحم علاوي الشاهري، المرجع السابق، ص 116.

الجيتول (Geatuli): ظهر الاسم منذ نهاية القرن 2 ق.م للدلالة على مجموعة قبيلة كبيرة، ولكنها لا تمثل عرقا مميزا، فالجيتول نوميد في منطقة الصحراء الشرقية والمور في الجنوب الوهراني، يعيشون حياة التنقل والترحال.

شعب **الجرامانت:** عاش الجرمنتيون في واحات فزان، عاصمتهم جرمة، امتد نفوذهم حتى ساحل سرت، اشتهروا بكثرة عددهم، تعاونوا مع الرومان بعد احتلالهم لشمال إفريقيا، وقبلوا دور الوسطاء التجاريين مع جنوب الصحراء لصالح الرومان.

شعب **الأتلاست**[1].

وهكذا كانت الصحراء خلال فترتي ما قبل التاريخ والتاريخ القديم امتدادا بشريا لمنطقة شمال إفريقيا، ولم تمر المنطقة بالتطورات السياسية التي عرفتها منطقة الشمال (الاحتلال الروماني والوندالي والبيزنطي)، ومع ذلك كانت هناك علاقات تجارية بينهما وحضارية، وكانت الصحراء ملاذا للهاربين من الرومان فاستقروا بالمنطقة واستوطنوها بشكل نهائي، وهكذا تغيرت الخريطة البشرية للصحراء منذ أواخر القرن 4م ولم يطرأ عليها تغيير إلا مع الفتح العربي الإسلامي للمنطقة.

[1]- ولد الحسين الناني، المرجع السابق، ص25.

المحور الثاني

المسالك التجارية

المحاضرة الثانية: المسالك التجارية

تمهيد:

كان للمجموعات البشرية بالصحراء رغم قساوة مناخها دور بالغ الأهمية في المبادلات التجارية بين ضفتي الصحراء لكن يجهل الشيء الكثير عن ملامح وخصائص هذه المرحلة، باستثناء بعض التلميحات التي وردت عند ابن حوقل، ومفادها أن هناك تقاليد قديمة تحكم نظام القوافل التجارية الصحراوية تعود لفترة ما قبل القرن 8م، وتفصح الكثير من الشواهد أنه خلال القرن 4هـ/10م أخذت التجارة الصحراوية تعرف نموا متواترا مما ساهم في تقعيد المسالك والطرق الصحراوية[1]، وبالتالي تمكنت الوحدات السياسية القائمة في الشمال أو الجنوب من سند ودعم اقتصادي غاية في الأهمية، كما الحال بالنسبة للأغالبة والمرابطين في الشمال، أو مملكة غانة ومملكة كانم-برنو في الجنوب. ويظهر أن أهم المسالك الصحراوية وقتئذ هو الطريق اللمتوني، وبعد تأسيس الدولة الزيانية تطورت التجارة الصحراوية بشكل لافت بفضل الدور الحيوي للوكالة التجارية لأسرة المقري، فأضحى المحور التجاري الرابط ما بين تلمسان- ولاتة - نياني (عاصمة مالي)، يحتل مكانة معتبرة في التجارة الصحراوية.

ولعل من أهم العوامل المساعدة في ثبات واستمرار نشاط هذه المسالك الصحراوية، أن بعض محطات الطريق كانت تزخر بمناجم لاستخراج بعض المعادن، كالملح الحجري في ملاحات إيجل وتغازة وولاتة، وكذا النحاس بمناجم تكدة الواقعة في الطريق المصري نحو جاو عاصمة مملكة سنغاي، وبذلك أضحت هذه المحطات الصحراوية أسواقا تجارية، تساهم بدور هام في تغذية الرواج التجاري بين ضفتي الصحراء لأسباب غذائية وأخرى عقائدية، ومادة الملح الحجري من أهم السلع التي أقبل عليها أهل السودان بشغف كبير، مما جعلها تتصدر لائحة مواد التبادل التجاري إلى غاية دخول الاستعمار نهاية القرن 19م، وفي المقابل فإن التبر إضافة للرقيق شكلا خلال العصر الوسيط أهم السلع المصدرة لأسواق بلاد المغرب ومصر، ولقد وارتبطت ضفتي الصحراء في القرون الخمس الأولى عبر ثلاث محاور رئيسة تفرعت عنها عدة طرق رئيسة وثانوية.

أولا: مسالك المحور[2] الشرقي:

يمكن الرجوع في فترة القديم إلى رسوم العربات التي تجرها الخيول، ونصوص هيرودوت أيضا لإدراك وجود مسالك تربط سرت وأوجلة بفزان ثم تصل غلى غات، ومنها قد تصل إلى السودان الأوسط أو تنحرف غربا لتلتقي بالمسلك الأوسط عند جبال الهقار.

نقصد بالمحور الشرقي مجموعة الطرق المتجهة من الشرق إلى الغرب أو العكس، وكان هذا المحور الشرقي ينطلق من مناطق متعددة من أهمها واحات مصر وإفريقية وبعض أجزاء من المغرب الأوسط باتجاه ممالك السودان الغربي عبر واحات فزان[3]، وكان هذا المحور قائما قبل فترة بعيدة نسبيا من زمن ابن حوقل في القرن 4هـ/10م، ويشير ابن الفقيه إلى أن الطريق يخرج من غانة ثم غاو إلى أمة يقال لها مرندة وصول إلى مراوة إلى علمانة في واحات مصر[4]، وتنطلق عدة طرق من هذا المحور نذكر منها:

---

[1]- **الطريق:** هو المسافة الفاصلة بين مركزين تجاريين أو أكثر، وكانت تتخلل تلك الطرق مواضع تساعد على تحديد معالمها، كنقاط المياه أو قرى تستريح فيها القوافل ويجدد أصحابها مؤونتهم أو أدواتهم كالقرب والحبال وغيرها، وكل طريق يتشكل من مجموعة من المسالك المتوازية، تفصل بينها أحيانا عدة كلومترات، لكنها تلتقي عند نهاية كل مرحلة من مراحل الطريق. ينظر: ولد الحسين الناني، المرجع السابق، ص 270.

[2]- **المحور:** هو مجموعة الطرق ذات الاتجاه المشترك والتي تربط بين مركز تجاري وآخر. ينظر: المرجع نفسه، ص 156.

[3]- ولد الحسين الناني، المرجع السابق، ص 280.

[4]- أبو عبد الله أحمد بن محمد بن إسحاق ابن الفقيه الهمذاني، **كتاب البلدان**، تحقيق يوسف الهادي، عالم الكتب للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1996م، ص 123.

أ- الطريق الرابط بين أودغشت والقيروان:

عرف انتعاشا كبيرا خلال منتصف القرن 5هـ/11م لأن معظم ساكنة مدينة أودغشت كانوا من أهل إفريقية.

ب- الطريق الرابط بين الواحات المصرية وغانة:

يعتبر أقصر وأقرب الطرق بين بلاد مصر وغانة، سلكه التجار المصريون ليبادلوا الملح والزجاج والرصاص بلذهب، كما كان تجار الكوفة والبصرة يفضلونه حتى تسببت الرياح في تغيير اتجاههم إلى الطرق المارة بوسط المغرب، وحسب المصادر تقدر مدة اجتيازه بثمانين يوما على الجمال، ولا يوجد به سوى موضع واحد للتزود بالطعام، لذا كان طريقا خطرا معرضا لهجمات قطاع الطرق، وتهدده العواصف الرملية، فهجره التجار[1]، كما ذكره ابن حوقل "براري عظيمة، ورمال كانت سالفة الزمان مسلوكة، وفيها الطريق من مصر لغانة، فتواترت الرياح على قوافلهم ومفردتهم، فأهلكت غير قافلة وأتت على غير مفردة، وقصدهم أيضا العدو فأهلكهم غير دفعة، فانتقلوا عن ذلك الطريق وتركوه لسجلماسة"[2]، وأصبحت القوافل تنطلق من مصر عبر الطريق الساحلي المحاذي لشواطئ البحر الأبيض المتوسط إلى أن تصل سواحل المغرب الأقصى، ثم تتجه إلى سجلماسة، ومنها تسلك إحدى طرق المحور الغربي لتصل إلى المراكز التجارية الصحراوية أو السودانية.

خريطة طريق مصر غانة (الطريق الجنوبي) عمل الباحثة أماني محمد قطب[3]

يق الجنوبي بين مصر وبلاد السودان الغربي (عمل الباحثة)

ج- الطريق الرابط بين طرابلس وغدامس:

ينطلق هذا الطريق من طرابلس وطبرقة وإفريقية باتجاه بلاد السودان الغربي عبر الصحراء، يحتاج المسافر لثلاثة أيام من السير في الصحراء للوصول إلى جبل نفوسة، ومنه سبعة أيام للوصول إلى غدامس التي يربطها طريقان بتادمكة[4]، ذكر البكري أن المسافر يقطع في الأول منه أربعين مرحلة في الصحراء والماء فيها على مسيرة يومين وثلاثة، والطريق الثاني فقليل المياه حيث تتواجد على مسافات تقدر بمسيرة أربعة أيام، وفي بعض الجهات بعد أحدى عشر يوما وتحدد المجابات في هذا الطريق.

---

[1]- أماني محمد محمد قطب، "عقبات طرق القوافل الصحراوية بين مصر وبلاد السودان الغربي منذ القرن (2-8)هـ/ (8-14)م"، المجلة العلمية لكلية الآداب، جامعة أسيوط، مصر، المجلد 23، العدد 75، جويلية 2020، ص 147.

[2]- أبو القاسم محمد ابن حوقل النصيبي، **صورة الأرض**، دار مكتبة الحياة، لبنان، 1992م، ص 65.

[3]- أماني محمد محمد أماني، المرجع السابق، ص 148.

[4]- **تادمكة**: تسمى اليوم "السوق" وتقع إلى الشمال من مدينة غاو شمال جمهورية مالي. ينظر: حسين بوبيدي، "التجارة والتجار في إفريقيا الغربية من خلال المصادر الأوربية ق 14-16م"، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة قسنطينة 2، مج 6، ع 1، جوان 2020، هـ9، ص 332.

د- طريق القيروان سجلماسة عبر البوادي:

يبلغ طول هذا الطريق 46 مرحلة وقيل 53 مرحلة، يبدأ من القيروان قاطعا البادية مارا على مدن سماطة ونفطة وقسطيلية وصولا إلى سجلماسة، ومنها يستكمل الطريق مساره نحو السودان الغربي، وأشار الأصطخري إلى وجود طريق آخر تقدر مسافته بـ120 مرحلة[1].

ثانيا: مسالك المحور الأوسط (طرق المغرب الأوسط):

انطلاقا من الرسوم الصخرية التي مثلت العربات التي تجرها الخيول، ومن خلال بعض ما أورده هيرودوت هناك احتمال وجود طريق قديم يربط بعض الحواضر الشرقية للمغرب الأوسط بإفريقيا جنوب الصحراء، بمعنى وجود خط تجاري بين غاو وسيرتا يمر عبر جبال الهقار وإيفوغاس والذي كان تحت إشراف الفاروزيين والجرامنت.

أما في الفترة الوسيطة الطرق التي ربطت المغرب الأوسط ببلاد السودان الأوسط والغربي سواء عبر الصحراء الوسطى مباشرة مثل طريق تيهرت-كوكو (يفقد دوره لصالح طرق سجلماسة ونول لمطة بالتدريج نظرا لصعوبته)، أو يميل نحو الشرق حيث وارجلان، ثم أصبحت توات فيما بعد محطة اجتماع للقوافل المتجهة جنوبا نحو تادمكة وكوكو، وبهذا شكل هذا المسلك نقطة الاتصال التجارية الأولى بين منطقة جنوب الصحراء مع شمال إفريقيا وهو سابق للقرن 2هـ/8م، وظل يحكم المبادلات التجارية بين واحات إفريقية (قصطيلة ووارجلان) مع تادمكة وجاو وغانة حتى القرن 5هـ/11م مع بسط المرابطين نفوذهم على المغرب الأقصى[2]، فاختل توازن التجارة على هذا المسلك، فقد أهميته التجارية على امتداد القرون الثلاثة اللاحقة، ثم استرجعها ابتداء من القرن 8هـ/14م مع النهضة الحفصية في عهد السلطان أبي العباس (772-796هـ/1370-1394م) التي منحت كل الحظوظ لاستعادة هذا المسلك لنشاطه عبر تمبكت، وفي نفس الوقت بدأ المسلك الغربي في التراجع[3].

ويوجد في هذا المحور الأوسط عدة مدن تعتبر محطة لتجمع القوافل، كسدراتة ومدن ميزاب لكن تبقى حاضرتي وارجلان وتوات أهم حاضرتين فيه، وذلك لتفرع الكثير من الطرق منها، إذ ارتبطت وارجلان بالعديد من المدن بالمغربين الأدنى والأوسط، ثم مثلت توات في مرحلة لاحقة الدور الأهم منذ القرن 8هـ/14م. ومن بين أهم المسالك في هذا المحور :

أ- مسلك تيهرت-وارجلان-غاو أو المرور عبر أودغشت: كان مستعملا منذ النصف الثاني من القرن 3هـ/9م من قبل الرستميين.

ب- مسلك المسيلة-وارجلان-كوكو أو تادمكة: وهو الطريق الذي صار يسلك في العهد الفاطمي بعد تأسيس مدينة المسيلة في محاولة لاحتكار تجارة الصحراء.

جـ- مسلك قسنطينة-وارجلان-بلاد السودان: لقد تمكنت قسنطينة من أن تمثل ملتقى للقوافل خاصة بعد الهجرة الهلالية، حيث استفادت من حصانتها لتمثل بديلا للمسيلة وغيرها.

---

[1]- أبو القاسم إبراهيم بن محمد الاصطخري الفاسي، **المسالك والممالك**، تحقيق محمد جابر عبد العالي، دار القلم، مصر، 1961م،ص 69.

[2]- حسين بوبيدي، **محاضرة التبادل التجاري بين المغرب الإسلامي وبلاد السودان: شبكة الطرق التجارية**، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة عبد الحميد مهري، قسنطينة 2، 2021/2020، منصة التعليم عن بعد، ص 3، الرابط الالكتروني:
https://elearning.univ-constantine2.dz/elearning/course/view.php?id=727

[3]- أحمد مولود ولد أيده الهلال، **مدن موريتانيا العتيقة قصور ولاته وودان وتيشيت وشنقيط**، تقديم عبد الودود ولد الشيخ، مركز الدراسات الصحراوية، درا أبي الرقراق للطباعة والنشر، الرباط، 2014، ص 227.

د- طريق تاهرت سجلماسة: ارتبطت مدينة سجلماسة بمدينة تيهرت عبر طريق ويبدأ هذا الطريق من أوزكا وهي على ثلاث مراحل[1] من تيهرت، ويتجه نحو سجلماسة سبع مراحل في قرى غير مأهولة بالسكان، وفي بعض هذا الطريق مفازة حتى يصل إلى مدينة سجلماسة ومنها يتجه السائر جنوبا باتجاه بلاد السودان حيث يسير في صحراء مفازة خمسين مرحلة حتى يصل إلى أودغست قبل أن يستكمل المسير نحو بلاد السودان الغربي[2].

ثالثا- مسالك المحور الغربي:

تدل الرسوم الصخرية للخيول التي تجر العربات، والتي عثر عليها في عدة مناطق من موريتانيا والصحراء الغربية والجنوب المغربي غلى استعمال عدة مسالك مع إفريقيا الغربية منذ بداية منتصف الألف الثانية قبل الميلاد، ولعل هذا دليل على الاستعمال القديم للمحور الغربي، إضافة لما ذكره هيرودوت عن الجرامنت، وما ذكره سترابون عن الفاروزيين كشعوب تتاجر مع إفريقيا الغربية.

وأشارت بعض الدراسات المعاصرة إلى أن رحلة القائد القرطاجي حانون البحرية التي قادته إلى غرب إفريقيا، كان الهدف منها التخلص من وساطة الجرامنت والفاروزيين، مما يعني مدى أهمية هذه المنطقة بالنسبة لقرطاج، فقد كانت تمثل المصدر الرئيسي للذهب الذي سكَت به عملتها، لكن هذه الأهمية تراجعت في عهد الرومان. أما الطريق البري بدأ بالتراجع بسبب الجفاف الذي مس المنطقة، إلى أن أحياه من جديد استعمال الجمل، ليبقى الدور الأهم في تنشيط هذا المحور عائدا للمسلمين منذ بدايات القرن الثاني الهجري. وتمدنا المصادر الوسيطية ببعض المعلومات اليسيرة حول المسالك والطرق عبر الصحراء والتي كان يسلكها التجار الوافدون من أطراف الصحراء منذ القدم مع المغرب الأقصى، لتعاطي التجارة مع بلاد السودان بواسطة الطريق اللمتوني الذي كان يربط مضارب هذه القبيلة في الشمال بالسوس الأقصى، ولكن هذا الطريق لم يكتسب صبغة تجارية قبل قيام دولة المرابطين، بعد أن كان المسلك الشرقي -الذي يتحكم فيه تجار تيهرت الإباضيين- البوابة التجارية الوحيدة التي تربط غانة عبر تادمكة بواحات إفريقية قبل ظهور المسلك الغربي خلال القرن 5هـ/11م الذي نافس المسلك الشرقي بفضل وجود مناجم الملح به[3].

تأسس المسلك الغربي على أنقاض الطريق اللمتوني، ولم يكن سالكا أثناء القرن 4هـ/10م لأن ابن حوقل لم يشر إليه، وبدأ يستمد أهميته مع المرابطين خلال القرن 5هـ/11م، مما أدى إلى تغيير كبير في توازن التجارة الإفريقية خلال هذه الفترة، وقد ذكره البكري بأنه يبدأ من درعة العليا ويعرج على إيجلي وأغمات وأناجيم وتوجنين ووارن وعقلة النمادي فأودغشت. وبعد تراجع دور هذه الأخيرة حلت محلها مدينة ولاته فأصبح منذ القرن 7هـ/13م يربط سجلماسة بولاته مرورا بتغازة، وهو المسلك الذي حفر عليه أبناء المقري عددا من الآبار باعتبار أن ولاته كانت أقصى المحطات على هذا المسلك، ومع ضعف الدولة المرينية انسابت فلول من الهجرات العربية من بني حسان إلى الصحراء الغربية مما كان سببا في توجيه ضربة قوية لهذا المسلك فلم يعد آمنا، فحلت تمبكت محل ولاته خلال القرن 9هـ/15م كأهم حاضرة تجارية بالمنطقة، ثم استعاد المسلك الغربي نشاطه مع الدولة العلوية[4].

---

[1]- **المرحلة:** المرحلة هي المسافة التي يقطعها المسافر في نحو يوم، وتساوي ثمانية فراسخ أي 47,35 كم.

[2]- أبو العباس أحمد بن إسحاق بن جعفر اليعقوبي، **البلدان**، المطبعة الحيدرية، 1957م، ص ص 198-199.

[3]- حسين بوبيدي، **التبادل التجاري**، ص 2.

[4]- ولد الحسين الناني، المرجع السابق، ص ص269-270.

وتعتبر مسالك المحور الغربي من أهم المسالك التجارية لفترة طويلة من الزمن امتدت من القرن 2هـ/8م لغاية النصف الأول من القرن 6هـ/12م بفضل شبكة الطرق التي ربطت سجلماسة بمدن كل من المغرب الأقصى والأوسط والأدنى، بالإضافة للجاليات التي سكنتها من بلاد المغرب والمشرق والأندلس، وهذا النشاط الذي عرفه المحور الغربي خلال هذه الفترة أدى إلى ثراء مدنه وبعض مدن السودان، مما أدى إلى قيام صراعات كبيرة بين الكيانات السياسية التي حكمت خلال تلك الفترة، كما حدث مع الدولة الفاطمية والخلافة الأموية ومحاولة سيطرة كل واحدة منها على سجلماسة خلال القرن 4هـ/10م، وكذلك الصراع الذي حدث بين الحلف الصنهاجي وغانة حول مدينة أودغشت.

تعززت أهمية هذا المحور مع قدوم المرابطين القرن 5هـ/11م الذين تمكنوا من توحيد منابع ومصادر وطرق وأسواق تجارة العبيد، كما عملوا على تأمين الطرق من قطاع الطرق، ورفع الضرائب على السلع في بداية دولتهم، في الوقت الذي كان فيه المسلكان الأوسط والشرقي يعنيان من غياب الأمن بسبب الهجرة الهلالية، ومع منتصف القرن 6هـ/12م بدأ المسلك الغربي يفقد ريادته على المسلكين الأوسط والشرقي ولكن دون أن تتخلى القوافل عن ارتياده، وأخذ المسلك الأوسط مكانه بفضل التحول الذي حدث في مناطق استخراج الذهب ببلاد السودان، فأهم مناطق استخراجه كانت منطقة بامْبُوك حوالي نهر السنغال لين تقع مناجمها عللا بعد 300كم إلى الجنوب الغربي من باماكو، ولكن مع نهاية القرن 5هـ/11م بدأ التحول التدريجي إلى منطقة النيجر الأعلى بمنطقة بوري، مما أدى إلى تغير في اتجاه الطرق. وحدث التغيير كذلك بسبب التغيرات التي طرأت على مناطق جلب العبيد التي تقع في دواخل المناطق الغربية لبلاد السودان الغربي أو في نطاق الغابات الاستوائية، فتحولوا من المسلك الغربي إلى المسلك الأوسط وأصبحت وارجلان محطة التقاء وانطلاق القوافل التجارية بدلا من سجلماسة، بالإضافة لتعمير ولاتة وتأسيس تنبكت بعد أن فقدت غانة مكانتها، وكذلك اضطراب الأوضاع في صحراء صنهاجة وتوسعات مملكة مالي.

وانقسمت المسالك التي تصل المغرب الأقصى بالسودان الغربي عامة وبأقاليم نهر النيجر خاصة إلى مسالك أساسية وأخرى فرعية، ومن بين المسالك القديمة طريق "الملح والذهب"، الذي وجد قبل ظهور مملكة غانة القديمة أي قبل القرن 3م، وكان الطريق مستعملا من طرف قبائل سوننكة وونغارة، أما الطرق التجارية في العهد الإسلامي والتي ربطت المغرب الأقصى ببلاد السودان الغربي حصرها البكري في طريقين هامين، هما:

الطريق الأول: أنشأ في عهد بن أمية وينطلق من وادي درعة إلى وادي تارجا، وهو في أول الصحراء أين تكثر الآبار ثم يواصل مساره لغاية قرية مدوكن للوصول إلى مدينة غانة، ونظرة لوفرة المياه به ارتاده تجار المغرب والسودان الغربي بكثرة.

الطريق الثاني: يبدأ من تامدلت[1] إلى أودغست مرورا ببئر الجمالين التي ذكرها ابن حوقل باسم "بئر الصفا". والطريق من تامدلت إلى بئر الجمالين يسمى أيضا طريق "ساحل المحيط" أو"طريق الصحراء"، أصلحه عبد الرحمن الفهري وحفر فيه سلسلة من الآبار لغاية الوصول إلى مدينة أودغست، فقد ذكر ابن عبد الحكم أنه في ولاية عبيد الله بن الحبحاب (116هـ/734م)، توغل عبد الرحمن الفهري في السوس الأقصى نحو الجنوب حتى بلغ أرض السودان، إذا عناية الدولة الأموية وولاتها ببلاد المغرب، واهتمامها بالطرق التجارية وحفر الآبار دليل على رغبتهم في ربط أجزاء العالم الإسلامي بعضه ببعض.

[1]- **تامدلت**: أو تامدنت تقع ببلاد المغرب الأقصى شرق لمطة.

على العموم لقد استقطب المحور الغربي الكثير من تجار المغربين الأدنى والأوسط والتجار المشارقة بسبب خصوصياته، فظلوا يفضلونه على غيره من الطرق منذ القرن الثاني لغاية منتصف القرن السادس الهجري[1]. وهو يمثل أربعة طرق رئيسة، وهي:

1- المسلك الشاطئ أو الساحلي:

يعتبر هذا المسلك من بين أقدم الطرق التجارية استعمالا، ينطلق من درعة نحو نول لمطة في جنوب السوس الأقصى على الساحل الأطلسي للمغرب الأقصى، ليتجه جنوبا نحو مملحة أوليل قرب مصب نهر السنغال في منطقة الترارزة بموريتانيا الحالية، والتي قال عنها بن حوقل "أوليل معدن الملح ببلاد المغرب بينها وبين أودغست شهر، ومن أوليل إلى سجلماسة راجعا إلى الإسلام شهر وكسر، ومن سجلماسة إلى لمطة معدن الدرق اللمطية عشرين يوما، ومن أوليل إلى لمطة خمسة وعشرون يوما ودون لمطة من بلاد المغرب تامدلت وعلى جنوبها أودغست"، ويبلغ طول مسافة هذا الطريق 1.600 كلم كانت القوافل تقطعه بعد مسيرة شهرين[2]، أما بالنسبة لجزيرة أوليل ذكر البكري بأنها فهي في البحر وعلى مقربة من الساحل وبها الملاحة المشهورة ولا يعلم في بلاد السودان ملاحة غيرها ومنها يحمل الملح إلى جميع بلاد السودان. وتقع مدينة نول لمطة ببلاد السوس، وهي مدينة كبيرة في أول الصحراء على نهر كبير يصب في البحر المحيط، ومن مدينة نول وادى درعة نحو ثلاث مراحل، وسميت بنول لمطة نسبة لقبيلة لمطة التي سكنتها، ومن أراد الدخول إلى بلاد السودان غانا وغيرها عن طرق وادى درعة، عليه أن يمشي من وادي درعة نحو خمسة مراحل إلى وادي ترجا في أول الصحراء[3].

ومشكلة الطريق الساحلي هي قلة الآبار، وإن كانت محاذاته لساحل المحيط الأطلسي قد ساعدت في تلطيف درجات الحرارة في المناطق التي يعبرها[4]، كما أن القوافل التجارية تسير في أرض صلبة عبارة عن صخر يصعب حفره بالمعاول، إلى درجة أنه في حال وفاة شخص ما من التجار أو أفراد القافلة، فإنه لا يدفن بسبب صعوبة حفر القبر، فكانوا يكتفون في هذه الحالة بستره بالحطام والحشائش أو يقذفونه في البحر، وعلى الرغم من قلة المياه وعدم وجود آبار على طول هذا الطريق، وتأثير ملوحة المحيط على المناطق التي يخترقها، فإن البكري يذكر بأن مستخدميه كانوا يحصلون على الماء العذب متتبعين طرقا لم يحددها، يعتقد بأنها كانت بإيحاء من الأدلاء العارفين لأسرار المنطقة[5]، حيث يذكر البكري في هذا الصدد "وإنما يشربون في طريقهم من قلال يحتقرونها...فتنبض ماءا عذبا".

لذا يرى بعض الباحثين كرايموند موني (R.Mauny) بأن هذا الطريق الساحلي لم يكن له دور تجاري مهم خلال العصور القديمة والوسيطية ولا حتى الحديثة، ولم يكتسب أهمية إلا بعد وصول الأوربيين إلى شواطئ إفريقيا الغربية، لكن الباحث عبد العزيز العلوي يرى عكس ذلك تماما فقد كان هذا الطريق مهما خلال مراحل التجارة الصحراوية المختلفة، بداية من قيام دولة

---

[1]- حسين بوبيدي، المرجع السابق، ص ص 2-3.

[2]- ولد الحسين الناني، المرجع السابق، ص 271.

[3]- مجهول، **الاستبصار في عجائب الأمصار في وصف مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب**، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية، بغداد، د.ت.ن، ص 213.

[4]- ولد الحسين الناني، المرجع السابق، ص 271.

[5]- فريد المهندس، **العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان الغربي في عصر دولتي بني مرين ومالي، في القرن 7-9هـ/13-15م**، نور حوران للدراسات والنشر والتراث، دمشق، ط1، 2021م، ص ص 160-161.

المرابطين والازدهار الذي عرفته دولتهم، كما استفاد من الازدهار التجاري لمملكة تكرور، لأن الملح الذي كانت توفره مملحة أوليل للقوافل أعطى لوحده أهمية لهذا الطريق الساحلي[1].

خريطة الطريق الساحلي للباحثة أماني محمد محمد قطب[2]

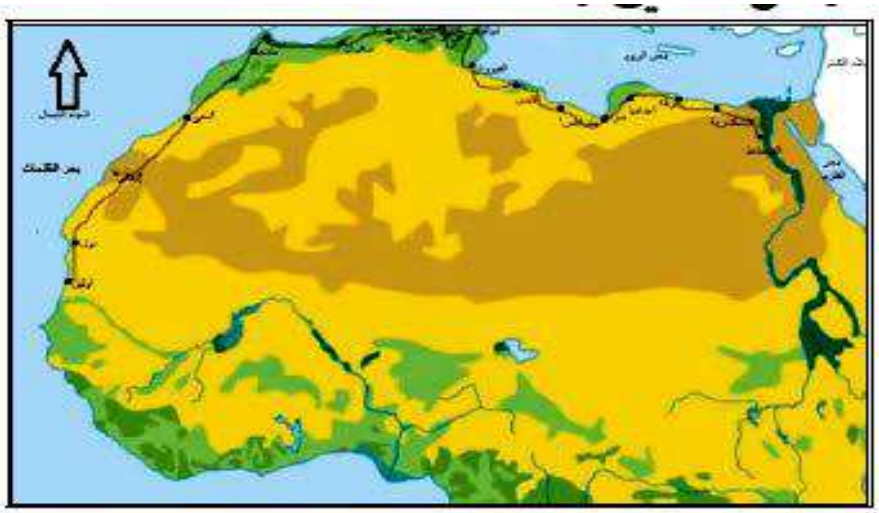

الطريق الشمالي الساحلي (طريق الجادة) – عمل الباحثة

2- مسلك سجلماسة-تامدلت-أودغشت:

كثرة الطرق بين المدينتين باعتبارهما عاصمتين سجلماسة بالنسبة للضفة الشمالية للصحراء الكبرى، وأودغشت بالنسبة للضفة الجنوبية، ويؤكد حسن الوازن على أن سجلماسة كانت لها علاقة تجارية مع السودان الغربي[3]، وأشار إليه المسعودي فذكر أن طريق تافيلات سجلماسة بلاد السودان كان يمر بتغازا، وهذا المكان ذو أهمية نظرا لتوفر مناجم الملح به، فكان لابد على التجار من المرور به في طريقهم إلى غانة[4]. ويتفرع هذا المسلك إلى ثلاثة فروع، الفرع الأول يتصل بأوليل بعد مسيرة شهر واحد، أما الفرع الثاني فيتصل بمدينة غانة، والثالث يصل إلى مدينة يرسني التي تقع شرق مدينة غانة على مسيرة 12 يوما.

3- طريق سجلماسة- واد درعة-الصحراء- بلاد السودان:

ينطلق هذا الطريق من المنطقة المحيطة بوادي درعة، ومنه يتجه إلى وادي تارجا (الساقية الحمراء)، ويصل طول مسافة هذا الطريق ما بين أربعين إلى خمسين يوما، لوكان هذا الطريق مستغلا عند بداية الفتح العربي الإسلامي لشمال إفريقيا، واستفاد هذا الطريق من مروره بمملحة تغازة، وبالرغم من أهمية هذا الطريق إلا أن مشكلته هي ندرة المياه، فكانت القوافل تسير في المجابة الكبرى مدة ثمانية أيام دون أن تجد قطرة ماء، فلم يوجد على طول الطريق من درعة لغاية الصحراء سوى أربع آبار، هي تزامت، بئر الجمالين، نالي وبئر ينتسر، والمسافة من درعة إلى الصحراء عند قرية مدوكن الصنهاجية قدرت بـ 550 كم، ومن هذه القرية يواصل الطريق سيره لغانة[5]. ومن الصحراء إلى بلاد السودان لم يذكر البكري تفاصيل كثيرة عن هذا الطريق،

[1]- ولد الحسين الناني، المرجع السابق، ص 272.

[2]- أماني محمد محمد قطب، المرجع السابق، ص 143.

[3]- الطاهر أحمد، **إفريقيا فصول من الماضي والحاضر**، دار المعارف، القاهرة، ص 46.

[4]- عبد الكريم جودت يوسف، **العلاقات الخارجية للدولة الرستمية**، ج1، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، 1984، ص 249.

[5]- ولد الحسين الناني، المرجع السابق، ص 279.

فقال عنها "ثم تمشي في الصحراء فتجد الماء على اليومين والثلاثة ولكنه ذكر بعض الآبار التي توضح أن الطريق لا يعاني من الجفاف الشديد، وأكبر مسافة دون ماء على هذا الطريق هي المجابة الكبرى، حيث لا يوجد ماء بها لمدة ثمانية أيام"[1].

أما **طريق سجلماسة غانة** ذكره البكري وسماه بطريق الآبار نظرا لكثرة الآبار فيه، خاصة تلك التي حفرها عبد الرحمن بن حبيب، واشتهر هذا الطريق لاحتوائه على الذهب والمعادن، لكنه طريق بعيد يقدر بمسافة ثلاثة أشهر، وذكر الناصري في هذا الصدد أن تجار المغرب كانوا يجتمعون في سجلماسة ثم يسيرون بقوافلهم نحو غانة مسيرة ثلاثة أشهر ذهابا ومن غانة إلى سجلماسة مسيرة شهر ونصف إيابا.

وكان هناك **طريق من سجلماسة إلى تغازة**[2] **ومنها إلى السودان** يبدأ من سجلماسة ليتجه جنوبا نحو مناجم الملح بتغازة، لم يقدم البكري وصفا تفصيليا لهذا الطريق، اكتفى بتحديد موقع تغازة ويذكر دفيس (Devisse) بأن نهاية هذا الطريق كانت مباشرة في غانا. ويعتبر هذا الطريق أهم محور في التجارة الصحراوية، نظرا لقصره ووجود ملاحات تغازة المهمة، ولأنه يؤدي إلى مناجم الذهب في السنغال والنيجر الأعلى، فقد كانت تغازة مركزا تجاريا مهما لتجارة الذهب الذي تتم مبادلته بالملح[3].

4- مسلك نول لمطة-أزكي-بلاد السودان: يتفرع عند أزكى إلى ثلاثة طرق فرعية، واحد باتجاه بلاد التكرور، والثاني باتجاه مدينة غانة، والثالث باتجاه ملاحة تغازة.

خريطة توضح تحول المسالك القوافل التجارية خلال العصر الوسيط ودوره في ظهور جيلينجديدين من مدن القوافل[4]

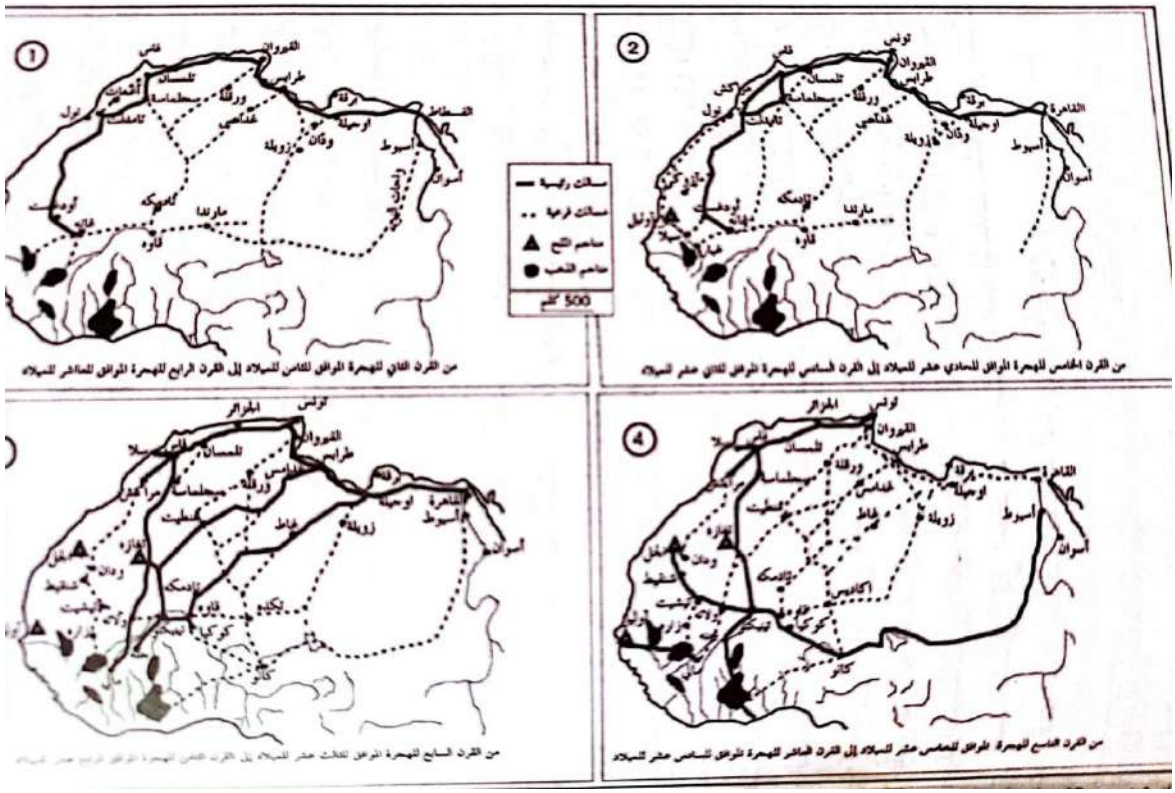

[1]- فريد المهندس، المرجع السابق، ص 16.

[2]- **تغازة:** مكان مأهول فيه عدد من مناجم الملح التي تشبه مقالع الرخام يستخرج الملح من حفر تحيط بها أكواخ عديدة، يسكنها المستخدمون لاستخراج الملح. ينظر: بن محمد الحسن الوزان الزياتي الفاسي، **وصف أفريقيا**، ج 1، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1983، ص 108.

[3]- ولد الحسين الناني، المرجع السابق، ص 162.

[4]- أحمد مولود ولد أيده الهلال، المرجع السابق، ص 228.

بالإضافة إلى هذه المسالك التجارية الأفقية، وجدت مسالك أخرى اعتراضية وقد تكون برية أو نهرية عبر نهري النيجر والسنغال، وتشق هذه الطرق مجموع الطرق التجارية الكبرى السابقة الذكر، وتربط مناطق الإنتاج بالاستهلاك أو مناطق البيع والشراء، وهي لا تقل أهمية عن الطرق التجارية الكبرى. ومجموع هذه الطرق التجارية التي تخترق الصحراء لا تسير دائما في خط مستقيم بل قد ينحرف مسارها للتعريج على نقاط المياه والمرور بالواحات، كما تلتوي بسبب العوامل الطبوغرافية. ولا تقتصر أهميتها على الناحية الاقتصادية فحسب، بل تعدتها إلى النواحي الحضارية إذ ربطت بلاد السودان الغربي بالعالم الخارجي. وعبر هذه المسالك انتشر الإسلام انتشارا هادئا وتدريجيا على طول خط سير القوافل التجارية، حيث نلاحظ أن أكثر التجمعات السكانية المسلمة تتمركز حول الأسواق والمراكز التجارية.

المحاضرة الثالثة: تجارة القوافل ونظم المبادلات التجارية

لم ينقطع الاتصال بين المغرب الإسلامي والسودان الغربي في يوم من الأيام رغم أنه عرف فتورا في بعض الفترات، وهذا الاتصال يظهر من خلال عدد القوافل التجارية التي كانت تقطع الصحراء بأعداد كبيرة كما ذكره ابن سعيد المغربي، الأمر الذي ساهم بشكل كبير في تكثيف المبادلات التجارية بين ضفتي الصحراء، لذا مثلت تجارة القوافل أبرز جوانب النشاط الاقتصادي بمنطقة الصحراء منذ العهد الوسيط، الأمر الذي دفع بحكام الدول والكيانات السياسية القائمة آنذاك على تشجيع تجارة القوافل وتنظيمها، فاتخذوا من أجل ذلك جملة من الإجراءات والتدابير كي يستفدوا من عائدات التجارة.

أولا: عناية الحكام والقبائل بتجارة القوافل:

1- توفير الأمن:

كان للحكام وللقبائل دور كبير ومهم في تشجيع تجارة القوافل وتشجيعهم على تجارة الصحراء، خاصة في فترة المرابطين (448-541هـ/1056-1146م) والموحدين (541-668هـ/1146-1269م)، فعندما يختل الأمن في منطقة ما يبحث التجار عن محور آخر أكثر أمنا منه، مثلما حدث بعد الهجرات الهلالية التي كانت سببا رئيسا في تغيير مسار القوافل نحو المغرب الأقصى[1]، وعملوا على توفير الأمن وحماية القوافل وتوفير كل ما تحتاجه، كمعاقبة قطاع الطرق ورد غارات القبائل، لأن انعدام الأمن يعرقل النشاط التجاري ، لذا كان حزم الولاة شديدا خاصة مع من كان يتعرض للقوافل من قطاع الطرق، لأن غياب الأمن معناه تزايد خطر اللصوصية (بسبب الأزمات السياسية والاقتصادية) وبالتالي انقطاع محاور الطرق التجارية، مثلما حدث سنة 543هـ/1148م عندما كمنت عصابة من اللصوص في محاور الطرق للسلب والنهب، الأمر الذي دفع بالخليفة الموحدي عبد المؤمن بن علي الكومي لاتخاذ كافة الاجراءات التأديبية ضدهم بسبب تهاون وتقصير بعض العمال في ضبط الأمن واستتبابه، فأمر كاتبه جعفر بن عطية بتوجيه رسالة جديدة لوالي ولاتة 551هـ/1156م يأمره فيها بالكشف عن التلصص والحرابة وعن الذين يأكلون أموال الناس بالباطل، وفي عهد الخليفة المنصور الموحدي لما تضرر التجار المغاربة بسبب قطاع الطرق في المحاور الصحراوية أمر والي سجلماسة السيد أبو الربيع بإعدام قطاع الطرق بين سجلماسة وغانة، وأرسل مخاطبا ملك غانة يحمله مسؤولية تأمين طرق المواصلات[2]، وينقل لنا المقري هذه القصة فيقول: "قال -أي السرخسي في رحلته للفقيه أبو عبد الله محمد القسطلاني- دخلت إلى السيد أبي الربيع بقصر سجلماسة، وبين يديه أنصاع عليها رؤوس الخوارج الذين قطعوا الطريق على السفارة بين سجلماسة و غانة وهو ينكت الأرض بقضيب من الأبنوست و يقول:

"ولا غرو أن كانت رؤوس عدائه جوابا إذا كان السيف رسائله"

كما عرفت تجارة القوافل تصورا جديدا وذلك عن طريق العلاقات الدبلوماسية بين سلاطين المغرب وبلاد السودان، فقد تبنت الدولة تجارة القوافل في القرنيين 7-8هـ/13-14م بعد أن كانت خاضعة للتجمعات القبلية والأسر و الجماعات، ففي عهد السلطان المالي منسا موسى كانت أحمال القوافل التي تجهز سنويا إلى مالي من وارجلان بلغت اثني عشر ألفا، ومن الممكن أن هذا العدد يمثل كل القوافل والجمال الوافدة من طرابلس نفوسة غدامس وارجلان ومنها تفترق القوافل إلى تادمكة عبر صحراء

---

[1]- مامادو كان، **التراث الحضاري المشترك بين بلاد المغرب الأقصى والسودان الغربي من القرن (5-10هـ/11-16م)**، دار الإسراء، نواكشوط، ط1، 1445هـ/2024م، ص 107.

[2]- هشام المتوكل، "اللصوص في المغرب الإسلامي خلال العصر الموحدي أثر الأزمات على الانحراف السلوكي"، دورية كان التاريخية، السنة 13، العدد 49، سبتمبر 22020، ص ص 64-65.

المغرب الأوسط، وإما إلى جاو وتنبكت وأودغست. ومثلما كانت العلاقة بين ملوك مالي وبني مرين قائمة كانت علاقة مملكة كانم-برنو بليبيا عن طريق صحراء فزان متواصلة.

2- بناء الفنادق:

تعتبر من الوسائل المساعدة على تجارة القوافل، وقد تعهد الولاة والحكام والأمراء على بناء الفنادق لارتباطها بالحركة التجارية، وقد تحدثت المصادر الجغرافية عن الفنادق، فقال ابن حوقل: "كان هناك خانات وفنادق في المهدية"، وذكر الإدريسي بأن فنادق زويلة كثيرة، كما قام البكري بذكر فنادق قابس وتونس. ومن بين الحكام الذين ساهموا في بناء الفنادق وتجهيزها، يوسف بن تاشفين الذي قام ببناء العديد من الفنادق للتجار، وفي عهد الناصر الموحدي بلغ عدد الفنادق التي أنشئت 467 فندقا. وكان الفندق يقسم في العادة إلى عدة أمكنة، فهناك مكان للنوم والراحة، وآخر لعقد الصفقات التجارية من عقود البيع وغيرها، وكانت الفنادق تحمل اسم السلعة التي تباع فيها مثلا "فندق الزيت".

كما اهتم الحكام بحفر الآبار، وذلك لما يمثله من دور مساعد في تجارة الصحراء، فقد ساهمت هذه الآبار في تسهيل عملية تنقل القوافل، وهذا باعتبارها معلما من معالم الطريق،كما كان للحكام دور في حفر هذه الآبار منها الآبار حفرها عبد الرحمن بن حبيب والى افريقية على طول الطريق بين سجلماسة وغانة، من أهم هذه الآبار: بئر آمان تيسن أي "الماء المالح"، وتنو دادن أي "بئر الأيالل"، و يليه "تونين آوجليد" أي آبار الأمير، وآمان يسيدان "أي ماء النعام" وهذا البئر على طول الطريق بين درعة و سجلماسة، وبئر الجمالين من الآبار التي حفرها عبد الرحمن بن حبيب. كما قام الحكام بتسهيلات تخص قوافل الحجاج، وذلك بتوفير الأمن على طول الطريق، وما يلقاه الحجاج من مساعدات من طرف القرى التي تمر بها بالقوافل، وذلك لما يكتسيه الحج من أهمية عند سكان بلاد المغرب الإسلامي.

3- الضرائب (المكوس):

فرضت على القوافل التجارية مكوس (ضرائب) متنوعة منها ما كانت تؤمن سيرها في أريحية وأمن، ومنها ما كانت تعيق مسيرها، وفرضت في المناطق التي لا تصل إليها السلطة ولذا فرضت القبائل الضرائب على القوافل التجارية، فمنها قبائل صنهاجة فقد أخذت من القوافل التجارية المارة في مراكز استقرارها في الصحراء الواقعة على طرق بلاد السودان الغربي. فهذه القبائل كانت تعتمد على الضرائب التي تفرضها على القوافل في معيشتها. ومن بين تلك الضرائب ضريبة المرور وضريبة العشر فرضت على القوافل من طرف العربان، وبالمقابل كان على القبائل تقديم رجال يخدمون القافلة أثناء سيرها. كما فرضت الممالك السودانية هي الأخرى نظاما جمركيا لجني عوائد تجارة االذهب، فمملكة غانة مثلا فرضت مكوسا قدرها دينار على حمل الملح الداخل، ودينارين على الخارج، وخمسة مثاقيل على حمل النحاس، وعشرة على حمل المتاع[1].

4- تنظيم القوفل:

إن الحديث عن القوافل مرتبط بعدة عوامل منها القبائل الضاعنة في الصحراء و التي كان لها دورا كبيرا في هداية هذه القوافل، كقبيلة مسوفة التي لها دور بارز في تنشيط حركة القوافل في الصحراء، وذلك بتأجير الجمال أو بيعها أو السهر على تغذيتها وإزالة الأحمال عنها، فقال عنهم ابن حوقل: "..وفيهم البسالة والجرأة والفروسية على الإبل والخفة في الجري والشدة، والمعرفة بأوضاع البر وأشكاله، والهداية فيه والدلالة على مياهه بالصفة والمذاكرة، ولهم الحسن الذي لا يدانيه في الدلالة إلا من قاربهم وسعي سعيهم ...". كما قامت قبائل لواتة هي الأخرى بتزويد القوافل بالمياه في هذه الصحراء.

[1]- عمرو منصور، **ذهب غرب إفريقيا وعروش الدول الإسلامية من سحر القيام إلى ألام السقوط (140-628هـ/757-1230م)**، نور حوران للدراسات والنشر والتراث، دمشق، ط1، 2021م، ص 95، ص 128.

وكان يقف وراء تنظيم تجارة القوافل رجال أثرياء، ويبدو أن التجارة عبر الصحراء ظلت تجارة أفراد لم تصبح تجارة دولة إلا مع بسط المغرب الأقصى لنفوذه مع مطلع القرن 10هـ/16م خاصة مع السعديين من أجل ضبط تدفق الذهب. وكانت القافلة تتشكل من وسائل النقل والتجار ومنظميها المشرفين عليها، فكانت هذه القوافل تتشكل من قائد ودليل ومساعدون وسط القافلة وفقيه. وكانت استعدادات القوافل العابرة للصحراء تمر بالعديد من المراحل منها تجمع التجار لتشكيل القافلة، وهذا التجمع كان في أحد الأقاليم الواقعة على ضفة الصحراء، فمثلا كانت مدن الجنوب كسجلماسة. أغمات. نول، وارجلان، وزويلة مكانا تتجمع فيه قوافل المغرب المتجهة إلى السودان.

ولم يكن تجار القافلة الواحدة يقصدون مكانا واحدا، فقد يرافقها بعضهم لمرحلة أو أكثرهم ينفصل عنها و في نفس الوقت ينظم إليها مسافرون آخرون و كان هذا الحرص على مرافقة القافلة ناتج عن الشعور بالأنس و الأمان معا. هذا بالنسبة للتجار أما بالنسبة لوسائل النقل داخل القافلة كان الجمل وسيلة الوحيدة العابرة للصحراء، واتفقت جميع الدراسات على أن ازدهار تجارة القوافل في العديد من البقاع، يعود إلى استخدام الجمل كوسيلة نقل، والإبل أنواع، منها النوع الهجين هي إبل ضخمة طويلة وحاملت ممتازة، لكنها لا تستطيع أن تحمل ثقلا قبل أن تبلغ السنة الرابعة حينها أضعفها يحمل ألف رطل إيطالي، والنوع الثاني من الإبل "بخت" له سنامين ويستعمل أيضا في حمل البضائع والأمتعة، أما النوع الثالث هو "المهاري" أو "تكاهل" وعند الحسن الوزان "رواحل" إبل وحيدة السنام، نحيلة الجسم، حجمها أدق وأصغر وهي جمال مخصصة لركوب الأشخاص لأنها سريعة، لذا استعملت أحيانا كخيل البريد، لنقل الرسائل إلى المراكز التجارية التي تتجه إليها القوافل، كما كان حرس القافلة يمتطون هذا النوع من الجمال، وهناك إبل خصصت فقط لحمل الزاد والماء الشروب، وإلى دانب الإبل كانت هناك الخيول والثيران والبغال والحمير استخدمت في نقل السلع والأشخاص داخل المدن والبوادي[1].

واختلفت المصادر حول أعداد الجمال، ذكر ابن خلدون أن قافلة ضمت اثني عشر ألف جمل، وكان التجار يسوقون في تجارتهم ما بين سبعين ومائة جمل، كما ضمت بعض القوافل أربعمائة من الجمال و ثلاث مائة من التجار.

ثانيا: الجهاز الإداري للقافلة:

1- القائد:

القائد هو المسؤوول الأول عن عن الرحلة، ويأتي في مقدمة الجهاز الإداري للقافلة، وغالبا ما يكون من التجار الكبار وأعيان الحواضر المتمرسين في قيادة القوافل، والذين اعتادو عبور الصحراء، وكثيرا ما يكون من قبيلة مسوفة، وتتلخص مهامه في تنظيم سير القافلة، والتفاوض مع القبائل والعشائر التي تمر القافلة في أراضيهم، وذلك لتحديد مقدار مناسب للضريبة التي سيدفعها التجار عن بضائعهم، ويحرص القائد على تقسيمها بين أعضاء القافلة بشكل يتناسب وبضائعهم. وله أيضا كامل التصرف في رؤوس الإبل المكون لركبه، فقد يقوم ببيع دواب الإبل التي يصيبها الإعياء أثناء الرحلة، كما يتصرف في تلك التي تعيق حركة الموكب، ويحدد وقت سير أو توقف القافلة[2].

وكان مع القائد "**سجل محاسبة**" أو "**الزمام**" يحتوي على جرد مفصل لحمولة القافلة من البضائع والرسائل والودائع من ابتداء نقطة الانطلاق، وهذه الوثيقة قابلة للزيادة، يدون فيها القائد مختلف المعاملات من مبيعات ومصروفات ومقتنيات ومعاملات مالية طول مدة الرحلة[3].

---

[1]- مامادو كان، المرجع السابق، ص 85، 92، 93.

[2]- فريد المهندس، المرجع السابق، ص ص 169-170.

[3]- أحمد مولود ولد أيده الهلال، المرجع السابق، ص 225.

2- الدليل:

أهم عنصر باعتباره الذاكرة المسجلة لما يرى ويسمع ويلاحظ، وهو المسؤول عن وصول القافلة وما فيه من تجار وأموالهم لبر الأمان، لذا وجب أن يكون عارفا بالمسالك الصحراوية وأماكن المياه، كما يعرف الاهتداء بالنجوم في حال اضطرار القافلة المسير ليلا، ويتعرف على المواقع من خلال نوعية التربة أو النبات، لذا كانت أجرة الأدلاء مرتفعة (مائة مثقال من الذهب)[1]. وقد أشارت المصادر لمهارة مسوفة في الدلالة، فقال بن حوقل: "المعرفة بأوضاع البر وأشكاله والهداية فيه والدلالة على مياهه بصفة المذاكرة ولهم الحسن الذي لا يدانيه في الدلالة"[2]، وقال ابن بطوطة: "رأيت من العجائب أن الدليل الذي كان لنا هو أعور العين الواحدة ومريض الثانية، وهو أعرف الناس بالطريق"[3].

3- الكشاف:

هو مساعد الدليل الذي يرسله من أجل الاستطلاع، سماه ابن بطوطة "التكشيف" وهو اسم لكل رجل من مسوفة يكتريه أهل القافلة من التجار، وتتمثل مهمته في إيصال توجيهات القائد لمختلف أطراف القافلة، فيحث المسافرين على السير مثلا، ويرشد كل واحد منهم على الجزء المكلف به من القافلة على المحطة التي سيتم التوقف عندها في حال حدوث انقطاع عنها لسبب أو آخر. كما يُبعث بالكشاف من قبل تجار القافلة في حال اقترابها من مركز تجاري إلى وكلاءهم ليطالبوهم باستقبالهم بالماء، أو ليحجزوا لهم غرفا للإقامة وأخرى لتخزين سلعهم وبضائعهم[4].

4- فقيه القافلة:

وهنالك أيضا فقيه القافلة من مهامه إمامة الناس وإقامة الصلاة، وتدوين المعاملات التجارية وفق الصيغ الشرعية، وفك النزاعات حول ملكية سلعة أو دابة أو تسديد الديون، كذلن من مهامه الإشراف على موتى القافلة والصلاة عليهم، ومراقبة بضائعهم والاحتفاظ بأثمانها، لغاية تسليمها لورثتهم[5].

5- الوكلاء والجلاب:

كان لتاجر الشمال مصالح في تجارة القوافل **وكلاء** في المناطق البعيدة، يمثلونه ويرعون مصالحه، وبالمقابل ينال الوكلاء هبات وعطايا من موكليهم في الشمال، كما أنهم يتصرفون في جزء من الأرباح، وهناك وكلاء داخليون وخارجيون بين الشمال والجنوب. وقد يتداخل دور الوكيل مع دور **الجلاب**، وهو في الغالب تاجر شمالي يسافر إلى الجنوب، لاستيراد سلعة معينة، والفرق بينهما يكمن في أن الوكيل يكون في الغالب مقيما بصورة دائمة بعنوانه التجاري جنوبا، أما الجلاب يظل مرتحلا مع القوافل، بحثا عن السلعة المطلوبة للجلب كجلب العبيد والذهب والعاج...الخ.

6- الحرس:

كان للقوافل **حرسها** الخاص الذي يوفر لها السلام مقابل أجور يتم الاتفاق عليها، وكانت بعض القبائل الصنهاجية تقوم بخفر القافلة، كقبيلة مسوفة تستغل الطرق الرابطة بين سجلماسة وغانة وتتقاضى عنه أجرة، كما أن قوة صنهاجة

[1]- عمرو منصور، المرجع السابق، ص 98.

[2]- ابن حوقل، المصدر السابق، ص 98.

[3]- ابن بطوطة،المصدر السابق، ج 4، ص 243.

[4]- ولد الحسين الناني، المرجع السابق، ص 264.

[5]- فريد المهندس، المرجع السابق، ص ص 173-174.

تكمن في الضرائب والأموال التي جنتها من القوافل المارة إلى بلاد السودان، لأنهم كانوا يملكون تلك الطرق، وهذه الضرائب لم تقتصر على قوافل التجارة وحدها بل تعدتها إلى ركب الحج.

وكانت القوافل تلجأ إلى تحديد وقت لانطلاقها، فذكر الإدريسي: "أن القوافل تقطع الصحراء في فصل الخريف وأن رجال القافلة يضعون الأحمال على الجمال في الصباح الباكر، ويغدون في سيرهم إلى أن تصبح حرارة الشمس لا تحتمل وحينذاك تتوقف القافلة من أجل الاستراحة و نصب الخيام إلى أن تمر ساعة الزوال وتنخفض درجة الحرارة وتعبأ الجمال من جديد وتستأنف القافلة سيرها إلى أن يغشاها الظلام فتحط رحالها من جديد...". أي أن لكل قافلة نظام سير خاص بها، وكان انطلاقها محدد الزمان والمكان، فإذا حان الموعد واتخذت كافة الاستعدادات من الاستعانة بالدليل والتكشيف وشراء الجمال والقرب، انطلقت القافلة ويوجد مقدم لها يتحكم في إطلاقها ومسيرها، وقد جرت العادة أن يضرب المقدم الطبول معلنا بداية الانطلاق. وضخامة القافلة وكثرة تجارها وما يترتب عنها من صعوبات طبيعية وبشرية حتم عليها الخضوع لتنظيم محكم لضمان سلامة القافلة، وذلك أثناء تنقلها من بلاد المغرب إلى بلاد السودان، هذا فيما يخص القوافل العابرة للصحراء[1].

أما بالنسبة لقوافل الحجاج فكان الأمر مختلفا، فلم يكن على المسافر أخذ كل مؤونته معه، فكان بإمكان أعضاء القافلة شراء ما يلزمهم من المراكز التجارية التي تعبرها قوافل الحجاج المتجهة من بلاد المغرب إلى بلاد الحجاز، وهذا ما تحدث عنه العياشي في رحلته للحج، وذلك بالحديث عما يلقاه الحجاج من مساعدات من طرف سكان المناطق التي تمر بها القوافل، فكانت قوافل الحجاج تنظم في الركب، وكان للركب دور كبير في ربط المغرب بالمشرق، لكن يتضح لنا أن المغاربة شاركوا في الركب المصري وذلك بوقوع مصر في طريق الحجاز، كما شاركوا في مهرجان المحمل وذلك بحمل جانب من كسوة الكعبة الشريفة، وكان الحجاج يشاركون في المحمل لنيل شرف حمل الكسوة[2].

ولقافلة ركب الحج تنظيم خاص بها، إذ يقسم بحسب الحجاج إلى قافلتين أو وركين، فسمي أحدهما "الركب الأول"، وسمي الثاني "ركب المحمل" والفاصل بينهما في السير ذهابا وإيابا يوم وليلة. وكان يلي الأمراء في المهام الرسمية في المحمل، القاضي والخطيب المقدم من قبل الخليفة في موسم الحج، وكان المحمل يتكون من قائد، وموظفون ملحقون به، فكانت وظيفة قائد المحمل الإشراف على القافلة و توجيه المنشدين و المراقبين، ووظيفة المنشدين والمراقبين ضبط ركاب القافلة، والإشراف على الدواب من جمال وخيول التي تحمل حاجات الحجاج، و"الطبال" مهمته إعلام الناس بقدوم ورحيل القافلة. وهناك حامل المشعل، والمشعل نوعان الأول يستخدم لإضاءة قبة قائد الركب ومساعده وتوقد بالدهن، وتوقد بعض المشاعل بالخشب لتفتيش الجمال، ومشاعل لقائد الجند وقواد الهوادج والسائرون من العامة.

وبالنسبة لحج ملوك السودان كان أولهم حسب ابن خلدون الملك "برمندانه" وتبعه فيما بعد بقية الملوك، كملك ماي المنسا ولي بن سندياتا كايتا الذي حج أيام السلطان الظاهر بيبرس، والملك ساكورة المالي الذي حج أيام السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون سنة 700هـ/1300م، وأشهر رحلات الحج تلك التي قام بها المنسا موسى سنة 724هـ/1324م فقد بلغت شهرتها أوربا[3].

[1]- فريد المهندس، المرجع السابق، ص 166.

[2]- عمرو منصور، المرجع السابق، ص ص 368-369.

[3]- المرجع نفسه، ص 71.

ثالثا: العوامل المتحكمة في تجارة القو افل:

1: العوامل الطبيعية:

أ- المياه:

توفر المياه ضروري للرحالة والمسافرين، لذا كانت القوافل تتزود به عند انطلاقها أو مرورها بالآبار ونقط المياه في أماكن توقفها، لأن انعدام المياه أو ندرتها أو نفاذها يشكل عائقا للقوافل ، وأحيانا رغم تواجد بعض الآبار في الصحراء إلا أنها تفقد أهميتها بالنسبة للقوافل، لأنها تكون بالقرب من ديار بعض القبائل التي تغير على القوافل، فتهلك القافلة عطشا، كما أن بعض المناطق خالية من المياه كالطريق بين كوغة وجاو مثلا، الذي يقطع في خمسة إلى ستة أيام الأمر الذي يدفع بالقوافل لإرسال الدليل أو الكشاف إلى مراكز التجارة الجنوبية لحث الأهالي على الخروج بالماء لاستقبالهم، وقد وصف لنا صاحب الاستبصار الصحاري الواقعة بين سجلماسة وغانة "بأنها رمال وجبال غير عامرة قليلة الماء"[1]، وهذا يدل على أن نقص المياه كان شديدا في بعض الجهات لدرجة تدفع القوافل لإرسال الدليل إلى مراكز التجارة الجنوبية لحث الأهالي على الخروج بالماء لاستقبالهم.

ووصف لنا الإدريسي الصعوبات الموجودة على طول الطريق بين سجلماسة وغانة بقوله: "لا يوجد فيها ماء وأن القوافل تتزود بالماء لسلوك هذه المجابات في الأوعية على ظهور الجمال ومثل هذه المجابة كثير في بلاد السودان وأكثر أرضها أيضا رمال تنسفها الرياح وتنقلها من مكان إلى مكان فلا يوجد بها شيء من الماء، وهذه البلد كثيرة الحر الحامية جدا"[2]، كما وصفها ابن سعيد المغربي بقوله: "...ما بين سجلماسة وغانة وهي طويلة عريضة يكابدون فيها شدة العطش ووهج الحر".

وتوفر الكلأ ووجود مسالك ظليلة بها نخيل وأشجار أيضا يعتبرمن العوامل المتحكمة في الطرق التجارية، ضف إلى ذلك طول أو قصر المسافة المراد قطعها أيضا مهم، ووجود الواحات التي تقطع مرة على مرة الامتداد المتصل للصحاري الذي قد يشكل خطرا أمام القوافل خاصة عندما يتقاطع اتجاه الكثبان مع اتجاه القافلة[3].

ب- الحرارة:

يتسم المناخ الصحراوي بالتباين الشديد في درجات الحرارة ليلا ونهارا، لأن الصحراء الكبرى تقع في منطقة مدارية جافة، بين خط الاستواء ومدار الاستواء شمالا، فتكون درجة الحرارة تكون مرتفعة بشكل كبير في فصل الصيف، والسبب هو بعد المنطقة عن المسطحات المائية، وقد تصل درجة الحرارة إلى 58° درجة في بعض المناطق، لذا حرص منظمو القوافل والتجار على محاولة التأقلم مع هذه الظروف[4]، وقاموا باختيار فصل الخريف لبداية رحلاتهم إلى السودان الغربي أوفي فصل الشتاء[5]، كما كان السير طوال الليل هو الحل الأمثل أي يمنع التحرك بالقوافل منذ الصباح حتى أول العصر ثم يستكملون السير إلى أول الليل ثم يبيتون، وذلك لمنع إصابتهم بالجفاف حيث كانت الحرارة شديدة في السودان الغربي ولم تكن مشكلة الحرارة فقط في ارتفاعها، لأنه حتى ليلا تنخفض درجات الحرارة انخفاضا حادا وهو ما قد ينتج عنه تجمد الأطراف[6].

---

[1]- مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص ص 200-201.

[2]- أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله الشريف الإدريسي، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، مج 1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة 2002، ص 18.

[3]- مامادو كان، المرجع السابق، ص 104، 106.

[4]- الإدريسي، المصدر السابق، ج1، ص 107.

[5]- ابن حوقل، المصدر السابق، ص 100.

[6]- عمرو ومنصور، المرجع السابق، ص 99.

كما قد تفاجئ القوافل بتقلبات جوية بسبب تساقط أمطار موسمية، مما يجعل فصل الشتاء باردا جدا، فكان تساقط الثلوج أيضا يفاجئ القافلة فتصبح مدفونة، لذا عمل منظموا القوافل على اختيار فصل الخريف لبداية رحلاتهم إلى السودان الغربي، أو في فصل الشتاء لقلة الحرارة في هذا الفصل، وسقوط بعض الأمطار التي تنمو عليها المراعي، كما كان السير ليلا هو الحل الأمثل (تسع ساعات)، ويمنع السير منذ الصباح حتى العصر تجنبا لإصابة أفراد القافلة بالجفاف[1].

ج- الرياح والعواصف:

كانت تشكل أضرارا للقافلة، لأنها كانت تحمل ذرات الرمل الدقيقة وتدفع بها حتى تغطي كل أجزاء جسم المسافر فتكون كالسكاكين الحادة، وإذا تراكمت ذرات الرمال حول الواقف قبرته في عدة دقائق، فكانت القوافل المتجهة إلى بلاد السودان تسير عبر طرق تستغرق فيها وقتا طويلا مجتنبة بعض الطرق المختصرة وذلك لتواتر الرياح عليها. وتذكر بعض الروايات أن هذه الرياح التي تشكل الأعاصير الصحراوية من شدتها ما يطوي قافلة بأكملها ويدفنها تحت الرمال، ومنها ما يسمى ب"الشهيلي" وهي رياح تهب في وسط الصحراء، وأخطرها تلك المثقلة بالرمال والغبار، والتي تسمى بـ"السيروكو" إلى درجة أنها كانت تغطي الآبار، فقد هجر الطريق المصري الرابط بالسودان الغربي بسبب العواصف الرملية على الجزء الأول الممتد من الواحات المصرية نحو فزان. لذا عدت الرياح مشكلة حقيقية للقوافل نظرا لشدتها التي كانت كفيلة بحمل جبال من الرمال، ففي حال تحولها إلى عواصف رملية تسبب الاختناق وربما الضلال عن الطريق، ودفن التجار والجمال[2].

ويقول الحسن الوزان توجد بعض الآبار المكسورة في داخلها بجلد الإبل أو المبنية بعظامها ومن الخطر جدا على التجار أن يقوموا بهذا السفر في غير فصل الشتاء لأنه تهب في غير هذا الفصل رياح قبلية تحمل معها من الرمال ما يغطي الآبار حتى من يذهب إليها مؤملا أن يجد الماء في الأماكن المعتادة لا يعثر للآبار التي غطتها الرمال على رسم ولا أثر، ويكون مضطرا إلى أن يموت عطشا.

د- الرمال المتحركة والسبخات:

كانت التغيرات في معالم الطريق بسبب تأثير الرياح على تجمعات الرمال تشكل أحد العوامل المسببة لعملية ضلال القافلة ويمكن أن تتعرض كاملة للهلاك[3]، فالأرض في بلاد الجريد ونفزاوة رخوة لدرجة أنه يمكن الغوص فيها، ويختفي فيها جيش بأكمله، لذا تُثبت عوارض لتوضيح المسلك القابل للاستعمال.

هـ- الثعابين والحيوانات المفترسة والحشرات والأمراض:

الصحراء هي موطن الثعابين فصحراء نيسر الواقعة بين سجلماسة وأودغشت كثيرة الثعابين، ومن الطبيعي أن التجار تعرضوا أثناء رحلاتهم الطويلة عبر الصحراء لمخاطرها فتعرضوا لأحدى لدغاتها وهي كفيلة بالقضاء على الإنسان خلال دقائق فجبل أزور الواقع على طريق بين تامدلت وأودغست كثير الثعابين[4]، كما واجه التجار أيضا خطر الوحوش والحيوانات المفترسة

---

[1]- حسن حافظي علوي، **سجلماسة و إقليمها في القرن الثامن من الهجري إلى الرابع عشر ميلادي**، المملكة المغربية، 1997م، ص 367.

[2]- محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي ابن بطوطة، **رحلة ابن بطوطة (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)**، مج 4، تحقيق عبد الهادي تازي، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 1997م، ص 242.

[3]- عمرو ومنصور، المرجع السابق، ص 101.

[4]- الإدريسي، المصدر السابق، ص 107.

فقد انتشرت في الطريق المؤدي من تامدلت إلى أودغست[1]، وعرف عن أهل أودغشت انتشار الحمى بينهم والتهاب الطحال، كما يوجد خطر الإصابة بالعمى بسبب العواصف الرملية[2].

و- التيهان: كانت الرياح تغطي طريق القوافل فتشتتها، ما يسبب ضياع القافلة وهلاكها بسبب الرمال المتحركة، وهذا ما لا تستطيع القافلة اجتيازه إلا بخبرة الدليل والكشاف وإلا فستتيه في الصحراء.

2: العوامل البشرية:

أ- قطاع الطرق:

شكل قطاع الطرق أحد المخاطر الرئيسية التي يتعرض لها تجار الذهب في طريقهم إلى السودان الغربي، إذ كانوا يتربصون بهم في المناطق الجبلية وبالقرب من آبار المياه، وكان هؤلاء القطاع من البدو الرحل والطوارق، وفي حالة التعرض للهجوم فالخطر لا يقف عند حد فقدان التاجر لسلعة أو ماح مله من ذهب بل قد يتجاوزه لفقدان حياته نفسها، أو التعرض على الأقل لإصابات خطرة كما تمثل الاضطرابات السياسية فرصة ذهبية لقطاع الطرق للقيام بهجماتهم[3]، وظهرت في مدينة تاهرت ومحيطها مشكلة قطاع الطرق الذين كانوا يعترضون طرق القوافل التجارية وحاولوا الأئمة بأنفسهم التصدي لهذا الخطر[4].

وكان كثرة هجمات قطاع الطرق على القوافل التجارية بين مصر والسودان الغربي بين القرنين 3-4هـ/9-10م سببا رئيسيا في هجرة الطريق الشرقي واتجاه التجار لاتخاذ طريق سجلماسة[5]، وكانت القوافل تتعاون فيما بينها لصد هجمات قطاع الطرق ومعظم من كان يقوم بنصب لكمائن هم جماعات من قبائل الطوارق والخنافسة، للاستيلاء على ما في الحمولة من أشياء ثمينة[6]. ومثلت الاضطرابات السياسية فرصة ذهبية لقطاع الطرق للقيام بغاراتهم على القوافل، فقد ظهرت في مدينة نهرت ومحيطها مشكلة قطاع الطرق الذين كانوا يعترضون طرق القوافل، وعمل الأئمة الرستميون أنفسهم على التصدي لهذا الخطر، فقد خرج الإمام أبو حاتم يوسف بن محمد بن أفلح في جيش ومعه وجوه زناتة بأمر من أبيه ليُجير قافلة قادمة من المشرق. كما استغل قطاع الطرق الحروب التي كانت بين أفراد الأسرة الرستمية لممارسة نشاطهم بكثافة، مثل الحرب بين الإمام يعقوب بن أفلح وابن أخيه أبي حاتم، فانقطعت السبل وبقي الأمر كذلك حتى تمكن أبو حاتم من المدينة، وشرد السراق وقطاع الطرق وأمنت السبل، لذا كانت القوافل تستعين بأبناء مسوفة لقوة بأسهم، ومعرفتهم بالطرق، وكانت صنهاجة الجنوب المستفيد الأكبر من الاضطراب الأمني قبل قيام دولة المرابطين، حيث كانت تحصل على الأموال من القوافل نظير توفير الحماية لها[7].

---

[1]- البكري، المصدر السابق، ج2، ص ص 846-847.

[2]- عمرو منصور، المرجع السابق، ص 103.

[3]- أبو العباس الونشريسي، **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل افريقية والأندلس والمغرب**، ج2، تقديم محمد حجي، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربية، 1984م، ص 402.

[4]- ابن الصغير المالكي، **أخبار الائمة الرستميين**، تحقيق محمد ناصر وإبراهيم حارة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986م، ص 99.

[5]- ابن حوقل، المصدر السابق، ص 65.

[6]- صالح معيوف مفتاح، **جبل نفوسة وعلاقته بالدولة الرستمية من منتصف القرن 2هـ إلى أواخر القرن 3هـ**، مؤسسة توالت الثقافية، د.م.ن، د.ت.ن، ص 66.

[7]- ابن الصغير المالكي، المصدر السابق، ص 91.

يضاف إلى ذلك الحروب الأهلية والفتن التي تؤدي إلى عرقلة سير القوافل التجارية وإلى تراجع دور الحواضر، مما يسبب اضطرابا لحركة التجارة نتيجة لغياب الأمن مما يدفع بعدد كبير من السكان إلى الهجرة القسرية، مما قد يغير من خارطة الإعمار البشري للمنطقة.

ب- غارات القبائل:

كان للصراعات والفرقة بين القبائل الصنهاجية وتنافسها أثر سلبي وآخر إيجابي على التجارة، لأن الفرقة تعني الحروب القبلية، واستبداد كل قبيلة بالعابرين عبر أراضيها، وإثقال كاهل القوافل بالإتاوات، وتعرضها للنهب والسلب، فقد سيطرت بعض القبائل المحاربة على الطرق الصحراوية الرابطة بين المغرب وجنوب الصحراء، وهي قبائل اعتمدت في عيشها على الغزو والنهب، من بينها قبائل لمطة وجزولة التي كانت تغير على القوافل المتجهة نحو بلاد السودان أو القادمة منها، كذلك القبائل الصنهاجية المحاربة بمنطقة آدرار قبيلتي إبدوكل وإيدلشي، وتقوم جماعة من السودان بالشيء ذاته. أما في حال وحدة هذه القبائل تحت زعامة واحدة، معناه استتباب الأمن والسلم، والتعامل مع سلطة واحدة وليس مع قبائل متعددة، مما ينعكس إيجابا على انسياب حركة التجارة، كما حدث حال تأسيس مملكة أنبية في الصحراء ثم دولة المرابطين[1].

وغارات قبائل بني هلال هي الأخرى أدت إلى نشر الذعر، وتكبد التجار لخسائر فادحة، بسبب ضعف التجارة مع السودان الغربي عبر الطريق الشرقي، نتيجة لهجمات الأعراب النازحين وتقلص حدود الدولة الزيرية، فانتشرت الفوضى، وتدهور الوضع الاقتصادي في جزء كبير من إفريقية والمغرب الأوسط.

ج- الصراعات العسكرية:

بسببها ينعدم الأمن والسلام والاستقرار، ما يجعل الدولة منشغلة عن حماية القوافل التجارية التي تتعرض للسلب والنهب، كما حدث بعد سقوط المرابطين وقيام الموحدين مثلا، سيطر الموحدون على خطوط تجارة الذهب من أجل الاستيلاء على محطاته الشمالية المهمة بالأخص أغمات. كذلك الصراع العسكري الذي دام خمسين سنة بين بني غانية والموحدين، كان له آثار خطيرة على تجارة الذهب، إذ أضحت المراكز التجارية في المغرب الأوسط (تاهرت، وارجلان، تلمسان) من أكبر ضحايا هذا الصراع، الذي كان سببا في إضعاف تجارة الذهب عبر الطريق الشرقي بصورة كبيرة[2].

وتعرضت قوافل الحجاج أيضا لعمليات للإغارة والسلب والنهب من طرف القبائل والبدو وسكان الأراضي الفقيرة، لذا كان الأعراب مصدرا من مصادر قلق الحجاج، ولم يكن همهم هو سلب أموال القوافل فحسب، بل تعدى ذلك إلى إزهاق الأرواح، وهذا ما حول طريق الحج إلى مآس في الطريق بين الحجاز ومصر لأنه كان دائم الحركة رغم وجود السلطة وسيطرتها. ففي سنة 789هـ قطع لصوص طريق قافلة كانت تحمل الشعير، ومنعوها من الوصول إلى مكة حتى يدفعوا نصف ما عندهم، لكن أصحاب القافلة كانوا مسلحين فحاربوهم، ولهذا السبب عملت القبائل على حماية القوافل لأنهم يدفعون لهم رسوما على ذلك.

رابعا: المبادلات التجارية ونظم التعامل:

نقلت القوافل التجارية أنواع مختلفة من السلع الخاصة ببلاد السودان الغربي، خاصة المعادن بالدرجة الأولى والتي أقبل تجار الشمال على اقتناءها، وفي المقابل وردت إلى السودان الغربي مجموعة من المنتجات الآتية من دول المغرب الإسلامي

[1]- عمرو منصور، المرجع السابق، ص 105.

[2]- المرجع نفسه، ص 106.

وبلاد مصر، وهذا التبادل التجاري عمل على تنشيط الحركة التجارية الداخلية والخارجية لكلا المنطقتين. ويمكن تقسيم هذه السلع والمنتجات المتبادلة إلى سلع صادرة عن السودان الغربي وأخرى واردة إليه.

1- السلع الصادرة من السودان الغربي:

أ- الذهب:

يعتبر من أهم صادرات بلاد السودان الغربي، استبدل بمختلف السلع سواء منتجات زراعية أو صناعية، أشار الجغرافيون والمؤرخون لأهمية الذهب وتجارته ،فأوردوا معلومات غزيرة عن هذا المعدن وصلت حد المبالغة أحيانا، مثال ذلك ما ذكره القزويني في كتابه: "...والذهب ينبت في رمل هذه البلاد [السودان الغربي] كما ينبت الجزر بأرضنا، وأهلها يخرجون عند بزوغ الشمس ويقطفون الذهب"، وكان التجار يعودون من السودان الغربي محملين بالذهب وهذا ما يدفعهم إلى تحمل مشقات السفر وقطع مسافات طويلة الصحراء الكبرى، لذا كانت تجارة الذهب على رأس المبادلات التجارية بين السودان الغربي والمغرب الإسلامي. ووجدت عدة مناطق لانتاج الذهب وهي ونغارة، غياروا، كوغة، يرسني ومنطقة مداسة[1]، أما مناطق انتاج الذهب داخل بلاد السوودان فهي مناجم بامبوك وبوري ولوبي ومناجم منطقة الغابات[2]، ويعتبر ذهبهم من أجود الأنواع، لأنه قليل الشوائب ونسبة نقائه تبلغ 92%، وهو نوعان: **ذهب غريني** يستخرج من الصخور المفتتة التي تحملها مياه أنهار النيجر والسنغال وغامبيا وروافدها، و**ذهب منجمي** يستخرج من بلاد الفَرْويين في حوض السنغال، ترابه أحمر، وهي تابعة لملك وثني.

خريطة طريق الذهب وفروعه الكبرى[3]

[1]- **منطقة ونغارة:** اختلفت المصادر في تحديد مكانها، **منطقة غيارُوا:** تقع على بعد 18 يوما من كومبي صالح عاصمة غانة، يستخرج منها أفضل أنواع الذهب. **مملكة كوغة:** اختلف في تحديد بعدها عن غانة، لم يكن انتاجها ضخما خلال القرن الرابع الهجري لكنه زاد مع القرن 5ه/11م. **برسني:** تقع جنوب أودغشت وغرب غياروا، أهلها مسلمون،عمل السودان العجم فيها المعروفون ببنو نغمارته (الونغارة) على نقل الذهب منها إلى سائر الجهات، فقد كان متوفرا بها بكميات كبيرة، ومع القرن 6ه/12م فقدت جانبا من دورها في إنتاج الذهب. **مداسة:** عمل سكانها الصنهاجيون في تجارة الذهب.

[2]- **بامبوك (Bambuk):** يعتبر من بين أهم المناجم يقع بين روافد نهر السنغال الأعلى وفروعه باخوي وبافنج وفاليمي غرب العاصمة المالية باماكو بـ 300 كم. **منجم بورْ/ بوري (Bure):** يقع عند ملتقى نهر النيجر الأعلى بفرعه تنكيسيو (Tinkisso) (بمملكة غانة)، كانت تحت سيطرة إمبراطورية مالي حتى سقوطها. **منجم لوبي (Lobi):** يقع في منطقة فولتا العليا (بوركينافاسو). **منطقة الغابات:** عرفت في المصادر باسم "بيط" جنوب جني، وهي من أغنى المناطق انتاجا للذهب، وهي منطقة نفوذ قبائل الأشانتي في منطقة ساحل الذهب (تحكمت فيه قبائل وثنية). بدأ استخراج الذهب فيه منذ القرن 5ه/11م، ووصل للسودان الغربي بفضل قبائل ونغارة (ديولا)، باعوه لتجار الشمال منذ سنة 494ه/1100م تقريبا.

[3]- عمل الباحثة أماني محمد محمد قطب، المرجع السابق، ص 146.

ج- الرقيق:

كانت تجارة الرقيق تجارة رائجة ومربحة كسب المتاجرين من وراءها أموالا طائلة، فاحتلت مكانة مهمة بعد تجارة الذهب والملح، وهنا فنشطت أسواق النخاسة، وكانت عامرة بعدد كبير من العبيد، والتي تفاوتت أثمانهم بحسب السن والجنس وقدرتهم على التحمل، وكان أغلب هؤلاء العبيد ينحدرون من القبائل الوثنية. والدليل على أن تجارة العبيد كانت رائجة في هذه الفترة، ما نستشفه من قول ابن بطوطة وابن خلدون والمقريزي حينما تطرقوا لذكر قافلة حج الملك المالي كنكان موسى الذي اصطحب في رحلته هذه ما يقرب من الخمسمائة عبد، فما بالنا بالعبيد الذين يشتغلون بالحقول والمزارع والبيوت، بمعنى أن هذه التجارة بالفعل كانت بأعداد ضخمة. ومن الأسواق التي اشتهرت بتصدير الرقيق مدينة أودغست، وأسواق مدينة جاو[1].

د- ريش وبيض النعام:

كان ريش النعام يلقى رواجا كبير في الأسواق وعليه إقبال كبير، إذ كانت تحاك به الأرائك والمخاد وتزين به القاعات، كما استعملته الطبقات الغنية كمراوح للتهوية أو الزينة، فكان للتجار المحليين منه كميات هامة أثناء رجوعهم من بلاد السودان الغربي، وكان التجار المحليون والوكلاء والوسطاء يعملون على تهيئة وجمع ما تيسر لهم؛ أما بيض النعام فكان يستخدم في تركيب الأدوية كما كان يوضع فوق المناضد ويعلق على الحيطان للزينة وكانت أثمانه في الأسواق الخارجية المرتفعة[2].

هـ- العاج:

توفر العاج بكميات هائلة جعلت سكان الشمال يصنعون منه أواني للشرب ويزينون به الخيل، فكان من الكماليات المرغوب بها بالشمال الأفريقي، وتم تصديره للمغرب الأقصى، وازدهرت تجارته مع التوسع في تجارة الذهب[3].

و- الجلود:

كانت جلود الحيوانات من السلع ذات التاريخ التجاري القديم في السودان الغربي، استخدمت في صناعة الأحذية والقرب وأكياس لحفظ الحبوب.

ز- التوابل:

جلب التجار المحليون التوابل والبهارات من مناطق الغابات الاستوائية بالمناطق الجنوبية، واستخدمت إما للطهي أو كعقاقير طبية، وكانت أثمانها باهظة جدا رغم ذلك كان الإقبال علي شراءها شديدا. إضافة إلى مواد أخرى كالسياط الذي يستعمل في الترويض الحيوانات واشتهرت بلاد التكرور بصناعتها، كم صدر السودان الغربي الأبنوس والعسل والقمح والحبوب.

2- السلع الواردة:

استوردت بلاد السودان الغربي من شمال إفريقيا بعض من السلع التي لا تنتجها المنطقة أو أنها قليلة الوجود، وكانت في مجملها أما زراعية أو صناعية وهي:

أ- الملح الحجري:

يعتبر الملح الحجري أهم سلعة جلبها تجار الشمال إلى الجنوب، فقد كانت الحاجة ماسة إليه، حيث شكل الملح المادة الأساسية التي يطلبها سكان السودان والمنطقة الغابوية لندرته وأهميته ولأنه سلعة صحراوية لا توجد بالأراضي المغربية ولا ببلاد

[1]- فريد المهندس، المرجع السابق، ص 249، 251.

[2]- إسماعيل العربي، المرجع السابق، ص 451.

[3]- فريد المهندس، المردع السابق، ص 254.

السودان[1]. وكانت الصحراء المصدر الطبيعي للملح الصخري، ومن أشهر المناطق التي أسهمت في إنتاجه وتزويد السدان الغربي به هي مناجم تغازة[2] الواقعة إلى الجنوب من مدينة سجلماسة[3] على بعد عشرين يوما، فقد كان له مكانة خاصة في المبادلات التجارية[4]، وظلت تغازة المصدر الرئيسي للملح في السودان حتى القرن 16م، ويقول البكري: "ومن غرائب تلك الصحراء معدن الملح على يومين من المجابة الكبرى وبينه وبين سجلماسة عشرين يوما، تحفر عنه الأرض كما تحفر سائر المعادن والجواهر ويوجد تحت قامتين أو دونهما من وجه الأرض، ويقطع كما تقطع الحجارة، ويسمى هذا المعدن تاتنتال، وعليه حصن مبني بحجارة الملح وكذلك بيوته ومشافه وغرفه كل ذلك ملح، ومن هذا المعدن يتجهز بالملح إلى سجلماسة وغانة وسائر السودان والعمل فيه متصل والتجار إليه مسايرون وله غلة عظيمة".

وتشكل الملح الصخري على شكل طبقات ملحية متفاوتة من حيث السمك تفصل بينها طبقات طينية، وعادة ما يتشكل هذا الملح في الأحواض والسباخ، استخرجه سكان الصحراء وسوقوه إلى بلاد السودان منذ عهود سحيقة[5]. وكان معدن الملح الحجري يساوي وزنه ذهبا في بلاد السودان الغربي، وهو من المعادن التي تهافت التجار على لاقتنائها، فيحملونه معهم إلى المناطق الخالية من الملح كإقليم التكرور وتنبكت التي تستورده من تغازة، فكان الملح بالتالي يشكل نصف أحمال القوافل لاحتياجهم إليه. وبالملح يتصارف السودان كما يتصارف بالذهب والفضة، يقطعونه قطعا ويتبايعون به[2]، وكانت جزيرة أوليل على المحيط الأطلسي المصدر المهم لتزويد السودان الغربي بالملح، وبسبب وقوعها في آخر غرب السودان، فقد كان من الصعوبات بما كان وصول ملحها إلى أطراف السودان النائية جنوبا وشرقا، لعدم توفر المواصلات التي تسير ذلكّ، وكان التكرار يتاجرون في ملح أوليل على السنغال[3].

كما أنه كان أول سلعة اتجر بها مع السودان الغربي، فقد عانت بلاد السودان من نقص كبير في مادة الملح حتى أن بعض الأساطير السودانية تأكد على أن السكان كانوا يبيعون أبناءهم بقطعة ملح لا تساوي حجم أقدامهم[6]. وكان **الملح** يصل للمنطقة على هيئة ألواح مستطيلة تزن ما بين 25 إلى 30 كيلوغرام، ثم يوزع في أنحائها، وبسبب ندرته وصعوبة توصيله ارتفعت قيمته التبادلية مع الذهب، وحرص التجار على جلب أكبر قدر منه للحصول على المزيد من الذهب[4]. وذكر الحسن الوزان أن تجميد الملح كان يتم في الصيف في بعض البحيرات الصغيرة والغدران بلاد البربر مكونا طبقة بيضاء مستقيمة كما يشاهد ذلك مثلا في ضواحي فاس،

ب- المواد الزراعية:

من بين المواد الزراعية الأساسية القمح رغم انه ينتج في بعض مناطق كسهول نهري نيجر و السنغال، كما شكل الجزء الكبير من أحمال القوافل التجارية المتجهة من المغرب إلى السودان الغربي، إضافة إلى بعض الخضر الجافة، والزيتون،

---

[1]- الحسين عماري، **المغرب والتجارة العابرة للصحراء من القرن 15إلى القرن 18م**، مطبعة وورك بيرو، مراكش، ط3، 2019م، ص 165.

[2]- **تغازة:** مكان مأهول فيه عدد من مناجم الملح التي تشبه مقالع الرخام يستخرج الملح من حفر تحيط بها أكواخ عديدة يسكنها المستخدمون لاستخراج هذا الملح. ينظر: الحسن الوزان، المصدر السابق، ج1، ص 108.

[3]- **سجلماسة:** مدينة تقع جنوب المغرب الأقصى بنيت سنة 140هـ/759م من قبل اليسع، وهي منطقة عبور ومركز تجاري هام.

[4]- فريد المهندس، المرجع السابق، ص 225.

[5]- الناني ولد الحسين، المرجع السابق، ص 426.

[2]- ابن بطوطة، المصدر السابق، مج 4، ص 239.

[3]- عمرو منصور، المرجع السابق، ص 62.

[6]- حسن حافظي علاوي، المرجع السابق، ص 385.

[4]- الهادي مبروك الدالي، **التاريخ السياسي**، ص 233.

والشحوم والزبدة، والتمر كان من الأحمال الكبيرة التي تجلب إلى السودان الغربي، يجلبه التجار من واحات توقرت وورجلان وتوات، والتين المجفف الذي كانت له قيمة خاصة يجمعه التجار من مختلف أسواق المغرب، وهناك مواد غذائية أخرى كالشاي والسكر والصمغ والصنوبر ونبات تاسلعة.

ج- المواد التعدينية:

من المواد التعدينية الأسلحة والأقواس الدفاع والهجوم إلى الدروع والخوذات والخنازير والسهام والتروس والأقواس وأدوات حديدية أخرى كالقدور، والسكاكين والأسلاك النحاسية... وغيرها وهذه المواد كانت تأتي من البندقية وتستغرق في موانئ الشمال الإفريقي ومنها إلى السودان الغربي.

ج- المنتجات النسيجية:

تنوعت المنتجات النسيجية الواردة إلى السودان الغربي، وتوافقت مع ما يلبسه السكان بمختلف الطبقات الاجتماعية، فكان غالبية أهل السودان الغربي يقتنون ملبوساتهم من الألبسة القطنية و الصوفية التي يجلبها تجار المغرب الأقصى، أما الألبسة الحريرية من اقتناء الطبقة الغنية، هذه المنتجات التي جلبت من أوروبا مرورا بموانئ الشمال الإفريقي، ويحملها تجار مصر والمغرب الإسلامي إلى بلاد السودان الغربي.

وكانت المنسوجات الصوفية من بين السلع التي حملها التجار المغاربة والمصريين، فيشير الإدريسي إلى أن الأكسية الصوفية كانت من السلع التي حملها التجار المغاربة للمبادلة بالذهب، وعرفت سجلماسة بجودة صوفها، والذي يعمل منها ثياب يبلغ الثوب منها أزيد من خمسة وثلاثين مثقالا، بفضل مهارة السجلماسيات في صناعة غزل الصوف كما كانت المنسوجات السوفية والكتانية من أهم المنتجات المصدرة من تاهرت لمبادلتها بذهب السودان، حيث اشتهرت المدينة بإنتاجهم لتوفر خامات الصوف والكتان من المراعي والمزارع[1].

وقد عرفت الأصواف التي كانت تنتجها قطعان القبائل المرينية بجودتها في أوروبا واشتهرت باسم Merinos وذلك من القرن 7هـ/13م[2]، وكان معظم لباس أهالي السودان الغربي من المنسوجات القطنية والصوفية والحريرية التي كان يأتي بها تجار المغرب الأقصى إلى منطقة التكرور عبر آغمات، وكان القميص السوسي الأخضر اللون يأتي به تجار المغرب من بلاد سوسي ولا يلبسه إلا الملوك نظرا لأنه غالي الثمن[3].

د- الخيول:

كانت الخيول الأصيلة من بين السلع المهمة التي نقلها التجار المغاربة إلى السودان الغربي، وجنوا من وراءها أرباح وفيرة، لأنه كان يعاب على الأحصنة الموجودة بالمنطقة أنها قصيرة وصغيرة، واستخدمها التجار في أسفارهم واضطر الحكام لاستيراد الخيل من الشمال الإفريقي خاصة من المغرب الأقصى، والخيول التي يجلبها التجار لا تباع إلى بعد عرضها على الحكام وشراء احتياجاتهم منها، لذا ارتفعت أسعار الخيول نتيجة لإقبال الحكام في السودان الغربي عليها[4] ، حيث قال الحسن الوزان: "لا يولد في هذه البلاد من الخيل غير بعض البراذين الصغيرة التي يستعملها التجار في أسفارهم، وأرباب الحاشية في تجوالهم في المدينة،

---

[1]- عمرو منصور، المرجع السابق، ص ص 75-76.

[2]- حسن حافظي علاوي، المرجع السابق، ص 390.

[3]- الهادي مبروك الدالي، **التاريخ السياسي والاقتصادي لأفريقيا في ما وراء الصحراء من نهاية القرن الخامس عشر إلى بداية القرن الثامن عشر**، الدار المصرية اللبنانية القاهرة، ط1، 1999م، ص 333.

[4]- عمرو منصور، المرجع السابق، ص 79.

أما الجياد فتأتي من بلاد البربر تصل مع القافلة ثم تعرض بعد عشرة أيام أو اثنى عشر يوما على الملك ليأخذ منها العدد الذي يريده ويدفع فيه ثمنا مناسبا".

ويرجع سبب ارتفاع أثمان الخيل إلى أن التجار الوافدين على السودان الغربي كانوا يدخلون ومعهم أعداد قليلة من هذه الخيول، لأن أغلبها كان ينفق في الطريق، نظرا لبعد المسافة وعدم قدرتها على تحمل العطش والحر الشديد فيهلك العديد منها قبل وصوله بلاد السودان، ولكي يعوض التجار أثمار الخيول الهالكة، فإنهم كانوا يبيعون القليل منها الذي يصل إلى السودان بأسعار مرتفعة لتعوض خسارتهم وما فقد منها[1]. ومن بين الحيوانات المرغوب فيها أيضا بغال المغرب التي عرفت رواجا كبيرا وكثر اقتنائها في أسواق السودان الغربي، وذلك لضخامتها وقوتها وقدرتها على الكر والفر في الحروب.

هـ- الكتب:

تنوعت الكتب بين المخطوطة والمنسوخة بالإضافة إلى الورق والأقلام، فكانت من المستوردات الهامة إلى بلاد السودان، نظرا لقيمتها الثقافية والفكرية، ومناطق استيرادها الأساسية هي المغرب الأقصى ومصر كانت أثمانها باهظة جدا تزيد من أثمانها الحقيقية بضعف ونصف الضعف تقريبا، ومن بين المدن التي اهتمت بتجارة الكتب تنبكت وولاته وتيشيت وشنقيط وودان[2].

ومن الواردات الأخرى إلى بلاد السودان الغربي الروائح العطرية والأصبغة والأدوية العشبية، والحلي إما من الفضة أو النحاس وبعضها الآخر من الذهب الخالص والأحجار الكريمة الملونة ونادرة كانت تباع في السودان الغربي بأعلى الأثمان، والأحجار الكريمة من اقتناء الأثرياء فقط، جلبها التجار من المغرب ولكن لم تلبث حرفة الوراقة إن ازدهرت في تنبكت، فأصبحت الكتب تستنسخ ويعاد بيعها في مناطق السودان المختلفة وفي المغرب نفسه[3].

و- النحاس:

كان النحاس المصنع يمثل سلعة ذات أهمية كبيرة ضمن صادرات بلاد المغرب إلى السودان الغربي، فقد حرص تجار المغرب على نقله إلى أسواق مدينتي أودغست وجاو أين كانت تم مبادلته مع سلع أخرى مثل الذهب[4]. ومعدن النحاس بخارج تكدا يحفرون عليه في الأرض، ويأتون إلى البلد، فيسكبونه في دورهم، فإذا سبكوه نحاسا أحمر، صنعوا منه قضبانا في طول شبر ونصف، بعضها رقاق وبعضها غلاظ، فتباع الغلاظ منها بحساب أربعمائة قضيب بمثقال ذهب، وتباع الرقاق بحساب ستمائة وسبعمائة بمثقال، يشترون برقاقها اللحم والحطب، ويشترون بغلاظها العبيد والخدم والذرة والسمن والقمح، ويحملون النحاس منها إلى مدينة كوبر من بلاد الكفار، وإلى زغاي، وإلى بلاد بورنو، وهي على مسيرة أربعين يوما من تكدّا"[5]. كما صدر إقلي السوس النحاس المسبوك إلى بلاد السودان[6].

رابعا: نظم التعامل التجاري:

كانت هناك عدة وسائط للتبادل التجاري تعتمد كلها على المقايضة وشكلت رؤوس الأنعام (الإبل والبقر والغنم) أساسها، كما كان التعامل في التجارة الصحراوية خصوصا في المعاملات مع السودانيين يتم أيضا بمقايضة صفائح الملح كقيمة

---

[1]- فريد المهندس، المرجع السابق، ص 236.

[2]- أحمد مولود ولد أيده الهلال، المرجع السابق، ص 254.

[3]- محمد الغربي، **بداية الحكم المغربي في السودان الغربي**، ج1، مؤسسة الخليج، الكويت ص 450.

[4]- فريد المهندس، المرجع السابق، ص 232.

[5]- ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 711.

[6]- أحمد مولود ولد أيده الهلال، المرجع السابق، ص 256.

نقدية، كما كان للآلئ الفينيقية ذات الألوان الخضراء والزرقاء دورا مهما في المبادلات "الأحجار الحرة"، كما مثل الودع أحد وسائط التقويم عوض النقود، والقضبان النحاسية أيضا، وكان التبادل التجاري يتم بصورة بسيطة في بادئ الأمر وتنطوي القاعدة الأساسية لنظم التعامل التجاري على التبادل منتج بمنتج آخر مهما كانت نوعيته ثم تطورت نظم التعامل التجاري مع مرور الزمن، وهي كالآتي:

أ- التجارة الصامتة:

لقد رسخت السردية التاريخية القديمة مفهوم التجارة الصامتة بمعنى أن المبادلات التجارية كانت تتم عبر المقايضة أو التجارة الصامتة بين التجار المغاربة والسودانيين، وكان هذا النظام أو التبادل يتم دون نطق كلمة واحدة من الجانبين، لذلك أطلق على هذه النوعية من التعامل التجاري اسم التجارة الصامتة (sillent tirade) أو التبادل الصامت، حيث كان التجار يقومون بقرع الطبول[1]، إذ أنها كانت العلامة المتفق عليها بين الطرفين، ثم يختفي التجار المغاربة عن الأنظار ثم يأتي تجار عراة يضعون بجانب تلك السلع مقدار مساويا من الذهب، ثم يختفون وهنا يأتي التجار المغاربة ويكون أمامهم أمرين، إما أخذ الذهب الموضوع إما يتركوا بضاعتهم ويختفون ويعني ذلك أنهم لم يرضوا ذلك، فيأتي الطرف الآخر ويزيدون الذهب حتى يرضى الطرف الأول كما ذكره لنا الحموي.

ويصف المسعودي هذه الطريقة في القرن 4هـ/10م، بقوله:"...وبها منهم أمم عظيمة ولهم خط لا يجاوره من صدر إليها فإذا وصلوا إلى ذاك الخط جعلوا الأمتعة والأكيسة عليه فانصرفوا فيأتون أولئك السودان ومعهم الذهب، فيتركونه عند الأمتعة وينصرفون ويأتي أصحاب الأمتعة فإن أرضهم وإلا عادوا ورجعوا فيعود السودان فيزيدوهم حتى تتم المبايعة"[2]، وبعد الانتهاء من تلك العملية تعود القافلة أدراجها، بينما يأخذ أفرادها في قرع الطبول لإبلاغ السكان المحليين أن المقايضة الخرساء قد تمت بنجاح[3]، وحتى القزويني وابن الوردي والعمري والقلقشندي يذكرون هذه القصة.

وبالنسبة للمصادر الأجنبية يقدم الرحالة الإيطالي كاداموستو(Ca'da Mosto) الذي خدم الأمير البرتغالي هنري الملاح؛ معلومات تكاد تكون متطابقة مع النصوص العربية، ولعل من الإضافات الهامة عنده أن عملية التبادل لا تتم في مواقع استخراج الذهب، فهو ينص على أن تجار الملح بعد وضع سلعتهم في مكان فيه ماء يبتعدون مسافة نصف يوم عن الموقع، فيقدم تجار الذهب في مراكب كأنهم يخرجون من جزيرة، وقد صرح أنه عجز عن فهم المقصود بالماء؛ هل هو بالقرب من البحر أو النهر، لأن العرب والبربر الذين زودوه بالمعلومات لم يخبروه بذلك، المهم أن النص الذي استحضره كاداماستو هو نفسه نص الإدريسي المتعلق بجزيرة الونغارة[4].

والتشكيك في مدى مصاقية التجارة الصامتة بدأ يتراجع، حيث بدأ سنة 1965التشكيك في صدقية الأخبار المتعلقة بهذا النوع من التبادل في المجتمعات الإفريقية القديمة والوسيطة، في دراسة من إنجاز سوندستروم (SundströmLars)، وتابع هوبكنز (.HopkinsA.G) ذات الموقف والتحليل في رفض روايات التجارة الصامتة، والتي رأى أنها لا تصمد أمام النقد، وفي الأخير

---

[1]- فريد المهندس، المرجع السابق، ص 256.

[2]- أبو الحسن علي المسعودي، **أخبار الزمان ومن أباده الحدثان وعجائب البلدان والغامر بالماء والعمران**، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط 4، 1980م، ص 88.

[3]- فريد المهندس، المرجع السابق، ص 259.

[4]- حسين بوبيدي، التجارة الصامتة ي السودان الغربي: قراءة في نقاش تاريخي، مداخلة بالملتقى الوطني الأول العلاقات الاقتصادية بين بلاد المغرب الإسلامي وبلاد السودان الغربي خلال العصر الوسيط وانعكاساتها الحضارية على النواحي الاجتماعية والثقافية، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتاعية، جامعة ابن خلدون تيارت، 20 ديسمبر 2023.

خلص الأستاذ حسين بوبيدي في موضوع التجارة الصامتة إلى أن موضوع التجارة الصامتة ما هو إلا أسطورة لا أساس لها من الصحة، وأول المؤرخين الذين ذكروا ذلك وتناقله المؤرخون عنه فيما بعد هو المؤرخ هيودوت، عند حديثه عن تجارة الذهب بين القرطاجيين والسكان القاطنين غرب أعمدة هرقل(مضيق جبل طارق)،"وقصته هذه تعد تدوينا لسرديات كانت رائجة عند شعوب الفضاء المتوسطي في التاريخ القديم؛ قد استمر انتاجها في مختلف النصوص، مع تغيير في المناطق والمجتمعات وأنواع التجارة كما نقلها الحموي مثلا، وتم إنتاج قصص مشابهة لها، وارتبطت في العلاقات الاقتصادية بين المغرب الإسلامي والسودان 2الغربي بتجارة الذهب، وقد تبين معنا أن الأمر لم يكن أكثر من إصرار تجار الونغارة السوننككيين (المعروفين أيضا باسم الديولا) المستفيدين من احتكار التبادل مع منتجي الذهب على الترويج لهذه الرواية للحفاظ على دورهم كوسطاء في تجارة الذهب، ليستفيدوا من عوائد هامة من وظيفتهم، ونقلها عنهم التجار المشارقة والمغاربة والأوروبيين لتبلغ أسماع الإخباريين والجغرافيين وتستوطن الكتب، فيتم بذلك استعادة نص هيرودت الذي عبر الزمان والمكان، وهكذا كرر الونغارة فكرة القرطاجيين، وأعاد المسعودي وكاداموستو ومن نقل عنهما إنتاج السردية، وتداخل النقل مع الطمع التجاري في تكريس أسطورة وجدت بيئة خصبة لتستمر"[1].

ب- المقايضة:

اعتمد التجار فيما بعد على المقايضة، وشكلت رؤوس الأنعام من الإبل والبقر والغنم أساسها كوسيلة للتبادل التجاري عوضا عن التجارة الصامتة خاصة فيما بين التجار الصحراويين والسودانيين، كما اعتبروا صفائح الملح عملة نقدية، وكانت اللآلئ الفينيقية الخضراء والزرقاء أداة مهمة للتبادل والمقايضة، وعرفت أيضا باسم الأحجار الحرة، واستعملت كحلي للنساء. أما بالنسبة للودع مثل هو الآخر أحد وسائل التبادل التجاري، ويعتبر الودع الأبيض أفضل نوع، وكان يجلب من بلاد فارس بواسطة التجار المغاربة، وانتشر استعماله أكثر خلال القرن 11ه/17م مع التجارة الأوربية على الشواطئ الأطلسية من خلال مقايضته بذهب منجم بامبوك وسلع أخرى[2].

والبكري أول من أشار إلى استعمال الودع كوسيلة للمقايضة خلال العصر الوسيط، فذكر بأن الملح والودع والنحاس هي أكثر ما تتجهز به قوافل التجار، أما الحسن الوزان أشار إلى أن الودع كان يستخدم لشراء الأشياء التافهة، وأن مثقالا واحدا من الذهب يعادل أربعمائة قطعة منه[3]، وحتى عبد الرحمن السعدي تحدث عن استعمال الودع في المعاملات في تنبكت، وبأن قيمة صرفه انخفضت مقارنة مع الذهب إلى خمسمائة ودعة.

ج- الأصداف:

تمثل طريقة التبادل بالأصداف من أقدم نظم التعامل التجاري، واستعملت الأصداف كنقد ورمز للتبادل التجاري في إفريقيا الغربية استعملت خصوصا أقاليم السنغال.

د- العملة:

لا توجد إشارة في المصادر لوجود معاملات نقدية ضمن أساليب المبادلة التجارية بين تجاري المنطقتين فقط ما ذكره ألفيس كاداماستو منتصف القرن 9ه/15م إلى وجود النقود المسكوكة بالجزء الغربي من صحراء الملثمين أي أن النقود لم تكن متداولة، وتجارة الذهب بالصحراء الغربية لم تترك أثرا نقديا إلا بعض الحالات من المعاملات النقدية الاستثنائية التي حدثت في

[1]- حسين بوبيدي، المرجع السابق.

[2]- أحمد مولود ولد أيده الهلال، المرجع السابق، ص ص 242-243.

[3]- الحسن الوزان، المصدر السابق، ج 2، ص 167.

العصر الوسيط بواسطة عملات مغربية أو مصرية، ما عدا ذلك كان التعامل يتم بواسطة مثقال الذهب الذي يعد وحدة لقياسه تعادل 25,4 غرام[1].

وبظهور العملات النقدية تغير مفهوم المبادلات التجارية، وطغت على أساليب المبادلات الأخرى غذت المعاملات التجارية بشكل أفضل وأصبحت قيمة المعاملات التجارية بالنقود تكتسب معنى آخر، فالعملة النقدية الذهبية التي استعملها أهل تادمكة تسمى الصلع لأنها من ذهب محض غير مختومة، وتعاملت بعض المناطق بالدينار الإقديزي، قد وجد ابن حوقل بأودغشت صكا نقديا بلغت قيمته اثنين وأربعين ألف دينار. كما عرفت بلاد السودان الغربي بنوع آخر من المبادلات تلك التي تم التبادل فيها بالقضبان النحاسية الرفيعة بحساب ستمائة أو سبعمائة مثقال[2] يشترى بها اللحم والحطب، أما القضبان الغليظة منها يشترى الخدم والقمح والسمن والذرة، ظهر هذا التعامل بصورة خاصة بتكدة

د- وحدات القياس وأدوات الكيل والوزن: مع اختلاف المنتوجات الصادرة والواردة إلى بلاد السودان الغربي، كان لابد من وجود وحدات يعتمد عليها في هذه العملية التجارية، منها:

1 – المقاييس: بالنسبة لوحدات القياس والكيل والأوزان المستخدمة، فهي في مجملها مقاييس عربية إسلامية، كالمثقال شكل وحدة وزن الذهب، والمد لقياس الحبوب.

أ- **الشبر**: هو الامتداد بين الخنصر والإبهام، وذلك في حالة بسط الكف قدر بـ 21,5 سم، استعمل لطول الأرض والأقمشة[3].

ب- **الذراع**: بسط اليد ومدها، وأصله من الذراع وهو الساعد[4]، وهو ما بين طرف المرفق إلى طرف الأصبع الوسطى وقد عرفته بلاد المغرب واستعملته في أسواق الأقمشة[5].

ج- **الميل**: يستخدم في قياس المسافات الطويلة مقداره ألف ذراع قيل أيضا مقداره ثلاثة آلاف ذراع وخمسمائة ذراع ، و يساوي 1340 مترا بالتقريب.

د- **الفرسخ**: وتقاس به المسافات الطويلة يعادل ثلاث أميال[6].

2 – المكاييل: حيث استعملت عدة وحدات منها:

أ- **المد**: المقدر بحفنة باليدين المتوسطتين، يستعمله التجار والعامة عند كيل المواد الجافة كالتمر والحبوب، ويكثر استعماله عند إخراج الزكاة صبيحة عيد الفطر.

ب– **الصاع**: يسع أربعة أمداد كما يمثل نسبة خمسة أرطال وثلث.

ويقول الونشريسي "أربع حفنات بكلتا اليدين من القمح أو غير ذلك فهو مقدار الصاع الشرعي"[7].

ج- **القسط**: يقدر بنصف الصاع ومعناه النصيب.

---

[1]- أحمد مولود ولد أيده الهلال، المرجع السابق، ص 240-241.

[2]- **المثقال**: يساوي 29.116 غرام

[3]- أمين عوض الله، **تجارة القوافل بين المغرب والسودان الغربي وآثاره الحضارية حتى القرن التاسع عشر للميلاد**، معهد البحوث والدراسات العربية، بغداد، 1984، ص 92.

[4]- علي جمعة محمد، **المكاييل والموازين الشرعية**، القدس للنشر، القاهرة، 2001م، ص 36.

[5]- عبد الواحد المراكشي، **وثائق المرابطين والموحدين**، تحقيق حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية للنشر، مصر، 1997، ص ص ص 295 -303 .

[6]- الهادي المبروك الدالي، المرجع السابق، ص 338.

[7]- الونشريسي، المصدر السابق، ج 1، ص 398.

د- **القفيز**: عبارة عن مكيال لكيل الحبوب، كان مستعملا منذ القديم، يقدر القفيز بثمانية وأربعون صاعا، شاع استخدام قفيز القيروان في الدولة الرستمية وهو اثنان وثلاثون ثمنا والثمن يساوي ستة أمداد بمد النبي، ومد النبي يساوي مدا وثمن مد قروي[1]

هـ-**المودى**: هو ما يحمله العبد أو الرجل من الحبوب أو نحوه في كيس من الجلد[2].

3– الموازين:

كان هناك الكثير من الموازين التي استعملت في العمليات التجارية بين المغرب والسودان الغربي نذكر منها:

أ- **القنطار**: يعادل مائة رطل ويختلف باختلاف المادة المراد وزنها، ظهر هذا النوع من الموازين في الدولة الرستمية، فكان يوجد قنطار الزيت وقنطار الفلفل، وقنطار الزيت يساوي قنطاران غير الثلث إلا المجلوب من الفلفل وغيره فإنه قنطار عدل[3].

ب- **المثقال**: يساوي وزن 72 من حبات القمح المتوسط الحجم.

ج- **الدرهم**: يساوي سبعة أعشار الدينار.

د- **الدينار**: يساوي أربعين درهما.

هـ-**الأوقية**: تساوي حوالي 27,5 غرام تقريبا[4].

[1]- الونشريسي، المصدر السابق ، ج2 ، ص 73.

[2]- الهادي المبروك الدالي، المرجع السابق، ص 337.

[3]- البكري ، المصدر السابق، ج2، ص 736.

[4]- محمد الغربي، المرجع السابق، ص 434.

المحور الثالث

الحواضر والقبائل الصحراوية الفاعلة في العلاقات

المحاضرة الرابعة: الحواضر الفاعلة في العلاقات

كان للحواضر الصحراوية والسودانية دور فاعل في التواصل الاقتصادي والثقافي بين ضفتي الصحراء، فقد كانت محطات استراحة للمسافرين، تزودهم بالمياه والمؤونة وعلف الدواب، إلى جانب كونها مراكز للتبادل السلع، وبعض هذه المراكز تحول إلى حواضر علمية كتبكت مثلا. وأهمية وفاعلية كل حاضرة منها كانت على حسب موقعها الجغرافي، وقربها من مسالك التجارة الرئيسة، وكذلك ما كان يحدث في الشمال أو الجنوب من أحداث سياسية أو اقتصادية كان ينعكس عليها.

أولا: الحواضر الصحراوية:

1- أودغست:

تعتبر أودغشت من أهم الحواضر الصحراوية الفاعلة في العلاقات بين ضفتي الصحراء، فقد كانت محطة كبيرة وسوقا مركزية أساسية يتجمع فيها المنتوج الصحراوي والسوداني (الملح، العنبر، الجلود، الصمغ العربي، الذهب، الرقيق، النحاس)، فكانت بذلك مركزا اقتصاديا مهما، فهي مركز الاتصالات والمبادلات والمعاملات بين تيارات مختلفة قادمة من مناطق بعيدة[1]، وأودغست من أولى وأقدم المراكز التجارية الإسلامية التي ظهرت بالصحراء[2]، وأهم مدينة في مجال صنهاجة الصحراء إلى غاية منتصف القرن 5هـ/11م، ساعدها في ذلك موقعها الجغرافي الآمن الذي استقطب التجار إليها، لأنها عبارة عن واحة تكثر فيها المياه والآبار. وتأسست كمركز تجاري حوالي القرن 1هـ/7م في المنطقة الواقعة جنوب الصحراء الكبرى، وهي الباب الجنوبي الذي تتفرع عنده قوافل السودان القادمة من كل ناحية نحو المنحنى العلوي لنهر النيجر الذي كان يعتبر الممر الرئيسي لبلاد السودان الغربي، ونظرا لموقعها الجغرافي الممتاز بين جبال أفله وكتلة أركيز الصخرية من أجل الدفاع عنها، جعل منها منطقة ساحلية قادرة على توفير مراع جديدة ودائمة، وتوفير نقاط مياه لسنوات من الجفاف، الأمر الذي جعل منها محطة تجارية هامة لقوافل الصحراء أثر كبير في نشر الأفكار والثقافات التي يحملها التجار، فكانت عاصمة صنهاجة اللثام في القرن 4هـ/10م. وسيطرة ملوك صنهاجة عليها يعني احتكاررهم لتجارة الملح مع بلاد السودان، واتفادتهم من الرسوم المفروضة على القوافل التجارية الداخلة والخارجة منها، الأمر الذي أجج الصراع الصنهاجي الغاني الزناتي على السيطرة على أودغشت[3].

أول من أشار إليها هو اليعقوبي الذي سماها "غسط"[4]، ثم ذكرها ابن حوقل والمهلبي (ق 4هـ/10م)، بعدها تطورت المدينة تطورا كبيرا ما بين منتصف القرن 4هـ/10م ومنتص4ف القرن 5هـ/11م حسب البكري، الذي أعطى لنا وصفا دقيقا لسوقها العامرة وكثافة سكانها "إذ لا يسمع الرجل جليسه لكثرة الضوضاء بالمدينة"، والتجارة فيها تكون بالذهب ومختلف أنواع الحبوب والفواكه، ويأتيها التجار من كل الأقطار خصوصا المغاربة، فأصبحت ملتقى أغلب القوافل التي تنطلق من سجلماسة أو نول لمطة أو درعة عبر تامدلت، كما أنها كانت ارتبطت بمملحة آوليل ومدينتي غانة ويرسني بواسطة طريق كان يتجه من الغرب إلى الشرق، وهذا الطريق يربطها بشبكات الطرق المنطلقة من آوليل إلى نول لمطة وممالك حوض السنغال، كما ارتبطت أيضا بمختلف المدن السودانية الواقعة إلى الجنوب منها خاصة تلك الواقعة في حوض نهر السنغال.

---

[1]- مامادو كان، المرجع السابق، ص 122.

[2]- اختلف المؤرخون والجغرافيون وعلماء الآثار حول تحديد موقعها حاليا، وتشير التنقيبات الأثرية أنها تقع في"تغداوست" حاليا، وتبعد أطلالها مسافة 34 كم إلى الشمال الشرقي من مدينة تامشكط بمنطقة الحوض في موريتانيا الحالية بالقرب من بئر النوداش. ينظر: ولد الحسين الناني، المرجع السابق، ص 322.

[3]- أحمد الشكري، **الإسلام والمجتمع السوداني إمبراطورية مالي 1230-1430م**، الرباط، دار أبير الرقراق، 2015، ص 108.

[4]- اليعقوبي، المصدر السابق، ص 111.

ونظرا لهذه الأهمية حدث صراع عسكري حولها، بعدما رغبت قبائل زناتة ومملكة غانة في الجنوب في السيطرة عليها، وفشتد الصراع حولها خلال القرن 4ه/10م مما أدى إلى سقوطها في يد مملكة غانة -التي كانت في أوج قوتها- في تاريخ غير واضح نهاية القرن، قيل بأنه كان بعد سنة 360ه/971م، وحدده دولافوس (Delafosse) سنة 380ه/990م، وذكر أحمد الشكري أن نجاح الغانيين في السيطرة على أودغست المحتمل أنه كان بفضل مساعدة الزناتيين الذين برزت قوتهم خلال هذه افترة بعد تخلصهم من مضايقة الفاطميين[1].

وتراجع دور أودغشت بعد أن استرجعها المرابطون منتصف القرن 5ه/11م الذي يعتبر نهاية مرحلة الدور الريادي لها، كمحطة للتبادل التجاري بين ضفتي الصحراء، خاصة بعد المعاملة القاسية التي تعرض لها سكانها على يد جيش عبد الله بن ياسين، دفعت بالكثير منهم إلى الفرار منها، كما تراجع دورها في تجارة الملح (ملاحة آوليل)، خاصة بعد بداية الإنتاج الوفير لملاحة تغازة بمجال مسوفة، مما صرف التجار عن طريق أودغشت إلى طريق وادي درعة- بلاد السودان عبر المفازة الكبرى[2].

2- آزوكَي/ آزكَي:

ذكر المستشرق ليفتسكي بأنها تقع في الجنوب الغربي من مدينة شنقيط الموريتانية في مجال قبيلة لمتونة، وقدر الإدريسي المسافة بينها وبين سجلماسة ب15 يوما، ووبينها وبين سلى وتكرور 25 يوما، وبينها وبين نول لمطة سبعة مراحل حسب الحميري. أما البكري وصفها بأنها عبارة عن حصن شيده يانو بن عمر الحاج اللمتوني -قبل قيام الحركة المرابطية كان حوله عشرين ألف نخلة[3]. ولم تظهر أهمية أزوكي إلا بعدما اتخذها المرابطون قاعدة لدولتهم في الصحراء بعد تراجع دور أودغشت، فقد أكدت المصادر العربية على ضرورة العبور على آزكي لكونها محطة استراحة وتزود بالماء والكلأ والعلف، فأخذت بذلك دور أودغشت كمحطة لتبادل السلع، كما كان لها دور تجاري مهم على طول الطريق بين مدن المغرب الأقصى وحوض السنغال.

3- وَارْجَلَانْ[4]:

تعتبر بوابة الصحراء لقوافل المغرب الإسلامي، ومحطة للطرق التجارية بالسودان الأوسط وشرق السودان الغربي في المرحلة التي كانت السيادة فيها للمحور الغربي، فكانت وارجلان محطة مهمة يلتقي فيها التجار المغاربة والمشارقة، وتخرج منها القوافل باتجاه بلاد السودان الغربي محملة بالسلع، وتعود بأحمال أخرى من التبر ومواد أخرى، لأنها كانت تتصل بزغاوة وتادمكة جنوبا، كما اتصلت بأودغشت غربا، وكانت منفذا مهم في التجارة الصحراوية منذ العصر الرستمي، إذ شكلت المركز الأول لتجارتهم، واكتست طابع "بوابة السودان" باعتبارها "المعبر الضروري الذي تمر منه القوافل الحاملة للذهب والعبيد إلى التل القسنطيني"، وكان سكانها على اتصال مع مملكة أكدز، واكتسبوا خبرة واسعة في المسالك الصحراوية، فكان منهم أدلاء لتلك الطرق، ولهم دور ريادي في قيادة القوافل التجارية مع غانة. واتصلت وارجلان بقلعة بني حماد منذ القرن 5ه/11م وحافظت رغم الزحف الهلالي على علاقتها بمدينة المسيلة.

---

[1]- أحمد الشكري، المرجع السابق، ص 107.

[2]- حسين بوبيدي، **محاضرة الحواضر الصحراوية الفاعلة في العلاقات (1)**،كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة عبد الحميد مهري، قسنطينة 2، 2021/2020، منصة التعليم عن بعد، ص ص 3-4، الرابط الالكتروني:
https://elearning.univ-constantine2.dz/elearning/course/view.php?id=727

[3]- ولد الحسين الناني، المرجع السابق، ص 320.

[4]- اختلف المؤرخون في رسم الكلمة فمنهم من كتبها "وَارْكَلَا" و"وَارْجَلَانْ"، ومنهم من ذكرها باسم "وَرْجَلَنْ" كالبكري، أما الإدريسي ذفكرها باسم "وَارْقَلَانْ"، فيقول: "هي مدينة فيها قبائل مياسير وتجار أغنياء يتجولون في بلاد السودان إلى بلاد غانة وبلاد ونقارة فيخرجون منها التبر ويضربونهم في بلادهم باسم بلدهم"، وابن خلدون ذكرها باسم "وَارْكَلَانْ"، والحسن الوزان ذكرها باسم "وَرْكَلَةْ".

وخلال القرن 6هـ/12م أشار الإدريسي إلى أهمية النشاط التجاري بها، وهو الأمر نفسه الذي ذكره ابن سعيد المغربي خلال النصف الثاني من القرن 7هـ/13م إذ أكد على الأهمية التي صارت تحظى بها كأهم حاضرة على طريق التجارة الصحراوية بالنسبة للمغرب الأوسط عموما، وحواضره الشرقية خصوصا، خاصة فيما تعلق بتجارة العبيد، فقال "وهي بلاد نخل وعبيد ومنها تدخل العبيد إلى المغرب الأوسط وإفريقية، والسفر منها في الصحراء إلى بلاد السودان كثير". وهكذا كانت وارجلان أهم مسلك منذ النصف الثاني للقرن 6هـ/12م فكانت المسلك الذي يرتبط بالسودان الغربي والأوسط، وحافظت على هذه الريادة طيلة القرن 7هـ/13م ثم قلت أهمية ذلك خلال القرن 10هـ/16م حسب الحسن الوزان. وارتبطت وارجلان بطريقين بالغي الأهمية مع قفصة والمسيلة، وبمسلكين مهمين مع تونس وقسنطينة التي ترتبط بدورها بمختلف المدن الداخلية والساحلية للشرق الجزائري، مثل سطيف، تبسة، بونة، القل، جيجل، وبجاية التي كانت تستقطب عددا كبيرا من التجار في طريقهم إلى أو من بلاد السودان الغربي[1].

4- توات:

ارتبط ازدهار قصور توات وفعالية مساهمتها في التواصل الاقتصادي بين المغرب الإسلامي والسودان الغربي ازدهار مسالك المحور الأوسط خاصة في القرن 8هـ/14م، فقد استفاد قصر تمنطيط تفضيل التجار للمسالك العابرة عليه بسبب اضطراب الأوضاع الأمنية في المسالك الأخرى، كانتشار ظاهرة قطع الأعراب للطرق. واستمرت فاعلية توات في تنشيطها للتواصل الاقتصادي عبر الصحراء حسب ما ذكره الحسن الوزان خلال القرن العاشر الهجري من أن "سكان قصر تيجورارين أغنياء".

وتوات تقع في الجنوب الغربي من صحراء المغرب الأوسط، وتوات عبارة عن إقليم واسع في صحراء الجزائر الغربية، يمتد من شمال قرارة إلى بلاد تدكلت، وينقسم إلى ثلاث مناطق: الأولى تيجورارين في الشمال حيث قصور أقروت وتسابيت وتيميمون، والثانية توات الوسطى حيث قصور بودة وتيمي وتمنطيط، أما الثالثة فهي تيدكلت ومن قصورها أولف وأقبلي وتيط[2].

تعتبر توات من المراكز التجارية المهمة التي ساهمت بشكل كبير في تنشيط التجارة العابرة للصحراء، نظرا لموقعها الاستراتيجي كواحة في وسط الصحراء، مما جعل منها نقطة اتصال بين شمال الصحراء وجنوبها وخاصة بلاد السودان الغربي، واعتبرت من بين المحطات الهامة في الطريق الرابط ببلاد السودان الغربي، حيث كانت تتزود القوافل فيها بالماء والغذاء وكانت تعرض بها سلع القوافل، وقد اكتسبت أهمية اقتصادية لاحتلالها لهذا الموقع حيث نشطت بها العديد من الأسواق، وظهرت العديد من الحوانيت لمختلف الحرف وهذا ما جعلها تعج بمختلف الجاليات[3].

وكان اليهود المحرك الأساسي لتجارة توات، فتواجد الجالية اليهودية الغنية وكبيرة العدد لها، في الوقت نفسه، دّر عليها أموالا وفيرة في تجارتها مع السودان الغربي، باعتبارها مركزا تجاريا تعبره قوافل الرابطة بين شمال إفريقيا، وبين السودان الغربي، وقد مارس اليهود إلى جانب التجارة، صياغة الحلي وسك النقود ولعبوا أدوارا مهمة كوسطاء في التجارة، إذ كانوا على اتصال بكبار أرباب التجارة، وأرباب السفن والشركات الأوروبية، التي كانت تتعامل مع المغرب آنذاك، وخاصة بناء ملتهم المقيمين بأوروبا،

[1]- مامادو كان، المرجع السابق، ص 129.

[2]- حسين بوبيدي، المرجع السابق، ص 5.

[3]- هواري رضوان، **التحولات الاقتصادية والاجتماعية في السودان الغربي من القرن 7هـ/ 13م إلى القرن 10هـ/ 16م**، أطروحة دكتوراه، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 2020/2019م، ص 199.

وبهذا أصبحت توات ملتقى طرق مهما لعدد كبير من القوافل التجارية القادمة من الشمال الإفريقي والمنطقة نحو السودان الغربي[1].

ارتبط ازدهار قصور توات وفعالية مساهمتها في التواصل الاقتصادي بين المغرب الإسلامي والسودان الغربي ازدهار مسالك المحور الأوسط خاصة في القرن 8هـ/14م، فقد استفاد قصر تمنطيط تفضيل التجار للمسالك العابرة عليه بسبب اضطراب الأوضاع الأمنية في المسالك الأخرى، كانتشار ظاهرة قطع الأعراب للطرق[2]، واستمرت فاعلية توات في تنشيطها للتواصل الاقتصادي عبر الصحراء حسب ما ذكره الحسن الوزان خلال القرن 10هـ/16م من أن "سكان قصر تيجورارين أغنياء". فكانت توات بذلك ملتقى للطرق التجارية القادمة من الشمال والمتجهة نحو بلاد السودان الغربي. وصارت خلال فترة حكم الصنغاي من أهم طرق التجارة الصحراوية المنطلق من تنبكت نحو تغازة، فتوات ثم سجلماسة والمغرب الأوسط كما كانت تنبكت تغص بالتجار التواتيين. وكانت مدينة الجزائر واحدة من المستودعات الكبرى التي توجه جزءا من البضائع السودانية نحو أوروبا،

5- مدن الزاب:

هي عبارة عن مراكز تجارية واقعة على خط التجارة الداخلة والخارجة من بلاد السودان، الشيء الذي ربط تجارها مع تجار السودان برباط وثيق، ومنها: بسكرة والبرج وطولقة والدوسن ثم نفطة، أما بادس كانت آخر مدن الزاب شرقا، وبالقرب منها كانت "تفترق الطرق إلى بلاد السودان، وإلى القيروان، وإلى بلاد الجريد وطرابلس وغيرها... فيها تجتمع الرفاق، ومنها تخرج إلى جميع البلاد". كم كان هناك المسيلة في العصر الحمادي، التي تقع على طريق القوافل الواردة والصادرة من وإلى المشرق والمغرب الأقصى والصحراء، فارتبطت بتجارة السودان عبر الطريق القادم من ورقلة، وكان تجار الجزائر وبجاية يلتقون تجار السودان ببلاد مزاب.

ثالثا: الحواضر السودانية:

1- مدن الشريط الصحراوي الساحلي:

أ- غانة/ كومبي صالح:

تعتبر مدينة غانة العاصمة (وليس مملكة غانة) من أقدم المدن السودانية التي شاركت في التجارة العابرة للصحراء، لأنها مجال قبائل السوننك الذي يجمع بين الصحراء والساحل السوداني، الأمر الذي أهل حاضرتهم غانة لتولي دور الوسيط بين المغاربة والسودانيين. وتقع أطلال المدينة اليوم في موقع يسمى "كومبي صالح" بأقصى الجنوب الموريتاني بولاية الحوض الشرقي على بعد 70 كم عن مدينة تندغة الموريتانية، وهذا المكان لا يتوفر على المياه الكافية لكن من خلاله يمكن مراقبة المجال الصحراوي والتوسع فيه[3]، لذا كانت غانة العاصمة جسر المرور في التوغل في بلاد السودان نحو الجنوب والجنوب الشرقي إلى مناطق الذهب، فازدهرت وتوسعت غانة بفضل ازدهار التجارة فيها[4].

وبالنسبة لذكر المدينة غانة في المصادر العربية، أول من أشار لها هو الفيزاري (بعد 170هـ/786م) لكنها الإشارة الذي ذكرها تتعلق بالمملكة والمجال وليس المدينة، ثم ذكرها الخوارزمي (ت بعد 232هـ/846م) لكن دون تفصيل، أما المعلومات التي

[1]- الهادي مبروك الدالي، المرجع السابق، ص 301.

[2]- حسين بوبيدي، المرجع السابق، ص 2.

[3]- المرجع نفسه، ص 5.

[4]- مامادو كان، المرجع السابق، ص 123.

قدمها اليعقوبي عنها فهي مهمة "في بلاده معادن الذهب وتحت يديه عدة ملوك"[1]، ومع ابن حوقل ستتضح المعلومات أكثر عن مدينة غانة "مدينة بالغة الثراء"[2] أي أنها كانت مستفيدة من عوائد التجارة الصحراوية، ومن علاقات اقتصادية نشطة مع أودغشت، ولم تكن المدينة الثانية قد شيدت بعد -نقصد مدينة المسلمين- لذا فضل المسلمون القادمون من الشمال الذهاب إلى أودغشت لأن الحضور الإسلامي بها لم يتأثر بسيطرة السوننك عليها حوالي سنة 380هـ/990م.

ومع القرن 5هـ/11م بدأت تظهر صورة جديدة لغانة المدينة فقد اتسع عمرانها، وتطورت شبكة الطرق التي ربطتها بمختلف المدن السودانية وبمراكز إنتاج الذهب، وتعززت المدينة أكثر مع تدمير المرابطين لمدينة أودغشت سنة 446هـ/1054م، فاستقطبت التجار الذين كانت أودغشت تعد نهاية رحلتهم لأنها كانت توفر لهم السلع السودانية، الأمر الذي ضاعف الحضور المغربي بها، فأصبحت مدينة غانة ملتقى لثقافات متعددة، وتجمعا للمجموعات السودانية والمغاربية معا.

وازدادت أهمية مدينة غانة خلال القرن 6هـ/12م حسب ما كتبه عنها الإدريسي إذ عرفت تحولات عميقة فأصبحت مدينة إسلامية تحكمها أسرة عربية من الأشراف، وكثر عدد سكانها وازدادت أهميتها الاقتصادية على عهده، ومع الكشف الأثري على المدينة بين أنه في الفترة ما بين القرنين 5-6هـ/11-12م شهدت المدينة بروز المؤثرات العمرانية المغربية عليها مثل الفخار المزجج باللونين الأخضر والأصفر، واللونين الأحمر الفاقع والعاجي في دهان الفخار، إضافة إلى الأباريق والأكواب والمزهريات والمطاحن وحبات الخرز المختلفة واستوردوا البعض منها، وقلدوا الحرف المغربية. والمعلومات التي وصلتنا عن غانة المدينة بعد عصر الإدريسي بعد أن غزتها قبائل صوصو حوالي سنة 600هـ/1203م، تراجع دورها في المنطقة بعد أن هجرها أهلها، واستمر السوننك في سكنها بعد تحالفهم مع المالنكي بعد طرد صوصو منها، وأخذت ميمة مكانها بعد أن انحرفت المسالك التجارية من ولاته نحوها[3].

ب- إيولاتن/ولاته:

شكلت ولاتة بحكم موقعها على الحدود بين الصحراء وبلاد السودان محطة مهمة للتجارة منذ العهد الوسيط، ونقطة جذب للتجار البربر والعرب والزنوج سكانها الأصليين، وكل هذه العناصر البشرية انصهرت في عملية تثاقف فريدة، ما جعل من إرثها الثقافي متنوعا، فأخذت الثقافة السودانية والعمارة المغربية، ويتضح ذلك في الفنون الزخرفية ونمط عيش أهلها، فتحولت من قرية سودانية وثنية "بيرو" إلى مدينة قوافل "إيولاتن" يؤمها التجار المسلمون الوافدون من بلاد المغرب، وتحول اسمها إلى "ولاتة" بداية من القرن 6هـ/123م، ومع نهاية العصر الوسيط تحولت إلى ملاذ للنخب السودانية الهاربة من ظلم بعض سلاطين السودان بتنبكت[4].

وولاته مدينة تقع في أقصى الجنوب الشرقي لموريتانيا أسست تحت اسم "بيرو"، وكانت على صلة قوية مع مملكة غانة منذ القرن 2هـ/8م قبل أن يتحول اسمها إلى "ولاتة" بداية القرن 6هـ/13م. أما عن روايات تأسيسها فقد تعددت، فنجد بعضها يربط تأسيسها وإعمارها بناس قادمين من غانة، فبعد خضوع كومبي صالح حاضرة غانة لقبائل الصوصو سنة 601هـ/1203م

[1]- اليعقوبي، المصدر السابق، ص 199.

[2]- ابن حوقل، المصدر السابق، ص 25.

[3]- حسين بوبيدي، المرجع السابق، ص ص 6-8.

[4]- أحمد مولود ولد أيّده الهلال، المرجع السابق، ص 83.

انتقلت بعض الأسر السوننكية الثرية صحبة جمع من التجار العرب والبربر إلى بيرو هربا من جبروت قبائل الصوصو، وكانوا تحت إمرة الحاج إسماعيل وأسسوا ولاتة سنة 622هـ/1224م قريبا من موقع "بيرو"[1].

وخلال القرن 4هـ/10م كانت ولاتة عبارة عن قصر صحراوي صغير يسكنه السوننك ضمن المجالات التابعة لغانة، وكان القصر يحمل اسم "بير"، ازدهرت فيما بعد بفضل سقوط غانة على يد الصوصو سنة 600هـ/1203م، إذ فرت إليها العائلات السودانية الثرية، والجاليات المغربية، ونقلوا معهم أموالهم وتجارتهم وأعمالهم وأنشطتهم، مما سمح بتحول القصر الصحراوي إلى مركز تجاري. وهذه الهجرة نحو ولاتة كانت نحو سنة 620هـ/1224م بمثابة التأسيس الثاني لولاتة/بير، الأمر الذي لفت إليها أنظار ملوك مالي لذا ضمها سندياتا كايتا لمملكته سنة 636هـ/1240م بعد حرب بينهما لأنها كانت تريد الحفاظ على استقلالها. وعندما زارها ابن بطوطة ذكر بأنها مدينة سودانية ثرية وأعطى وصفا دقيقا عن سكانها وعاداتهم وتقاليدهم، وذكر بأنها كانت مقصدا للتجار من كل ناحية، وتحيط بها الكثبان الرملية من كل جهة، وكان يديرها وال معين من قبل منسى مالي. ويشكل أفراد قبيلة مسوفة أغلب سكانها، وكانت لهم مكانة بارزة، كما تولى العنصر البربري والعنصر العربي مناصب بالغة الأهمية بها، وتغيير اسمها من بير إلى ولاتة يدل على النفوذ الكبير للقبائل الصنهاجية فيها. ثم برزت ولاتة كمركز تجاري هام على طريق الصحراء الجنوبي بعد سقوط مملكة غانة وفرار جماعة من المسلمين إليها، وأدت نفس الدور الذي قامت به أودغشت فاتجهت إليها القوافل عبر المنطقة الغربية من الصحراء الكبرى، وكانت على علاقة تجارية بمدينة تمبكت،

أما عن مكانتها الاقتصادية فقد بدأت إيوالاتن تحتل مكانها كمركز تجاري على طريق الصحراء الجنوبي بعد سقوط إمبراطورية غانة وقيام ملكة مالي التي ضمتها إلى حدودها، وأدت إيوالاتن الدور نفسه الذي كانت تقوم به أودغشت في عهد إمبراطورية غانة، إذا اتجهت إليها القوافل عبر المنطقة الغربية من الصحراء الكبرى، وارتبطت بعلاقات تجارية مع تنبكت وبقية المراكز الأخرى[2]، وازدهرت بها تجارة الملح الذي كان يباع الحمل منه بعشرة مثاقيل إلى ثمانية، وبينها وبين سجلماسة مسيرة شهرين كاملين، وبينها وبين مالي مسيرة أربعة وعشرين يوما، وكانت مدينة إيوالاتن محطة للقوافل القادمة من سجلماسة وأودغست[3].

ومنذ القرن 7هـ/13م تشكل محور تجاري بالغ الأهمية مثلت ولاتة محطة رئيسية فيه، ارتبطت فيه لمدينة ميمة ثم مدينة نياني عاصمة مملكة مالي، وعندما ازدهرت تنبكت صار له فرع آخر عبرها نحو جني، فأصبحت ولاتة من أهم المدن الفاعلة في الأنشطة الاقتصادية بالنيجر الأوسط، وتمازجت بها العادات الصحراوية بالعادات السودانية والعكس، وابتداء من القرن 8هـ/14م أصبحت ولاتة تمارس دوري أودغشت وغانة، فهي أول مدينة سودانية ومعبر للقوافل المتجهة إلى مختلف المدن السودانية، ومسكن الكثير من الجاليات المغاربية، ومركز ثقافي يضم القضاة والفقهاء يهتم بتعليم القرآن والمعارف الدينية[4].

---

[1]- يعتقد سكانها بأن تأسيسها مرتبط بحملات عقبة بن نافع، وإن كانت المصادر العربية لم تشر إلى ذلك غير أن حفيداه حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة وابنه عبد الرحمن وصلا إلى هذا الجزء من الصحراء سنة 116هـ/734م، والبعض الآخر يرى بأنها تأسست قبل تنبكت، وربط البعض تأسيسها بمقدم يحي بن موسى الكاظم إليها فارا من بغداد، وذكر البعض أن اسم ايوالاتن قد يكون اسم أحد بطون مسوفة، وأن اسم ولاته يحيل إلى الإرث السوداني البربري المشترك، ويعتبر أولاد القاضي والمحاجيب أول من سكنها من البيضان. ينظر: الحسين ولد الناني، المرجع السابق، ص 319.

[2]- الهادي مبروك الدالي، **التاريخ السياسي**، ص 306.

[3]- فريد المهندس، المرجع السابق، ص 223.

[4]- حسين بوبيدي، المرجع السابق، ص 4.

وابتداء من القرن 8هـ/14م أصبحت ولاتة تمارس دوري أودغشت وغانة، فهي أول مدينة سودانية ومعبر للقوافل المتجهة إلى مختلف المدن السودانية، ومسكن الكثير من الجاليات المغاربية، ومركز ثقافي يضم القضاة والفقهاء، ويهتم بتعليم القرآن والمعارف الدينية، نظرا لموقعها كمعبر للقوافل ومحطة لها، مما ساعدها على امتلاك ثروة كبيرة لكونها وسيطا في تجارة الذهب والملح، ومعبر لركب الحج السوداني. ومنذ القرن 7هـ/13م تشكل محور تجاري بالغ الأهمية مثلت ولاتة محطة رئيسية فيه، ترتبط بميمة ثم نياني عاصمة مالي، وعندما ازدهرت تنبكت صار له فرع آخر عبرها نحو جني، فأصبحت ولاتة من أهم المدن الفاعلة في الأنشطة الاقتصادية بالنيجر الأوسط، وتمازجت بها العادات الصحراوية بالعادات السودانية والعكس. وتواصل ازدهار ولاتة فلم تتأثر بسقوط مملكة مالي وسيطرة توارق مقشرن عليها، ولا بهجمات قبائل الموسي سنة 885هـ/1480م، فجذبت التجار السودانيين إليها، كما قصدها تجار المغرب الإسلامي (أوجلة، فزان، غدامس، توات، درعة، فاس، شنقيط...)، وهكذا توسعت المدينة مع القرن 10هـ/16م خاصة وأنها كانت معبر ملح إيجيل إلى المناطق السودانية يُحمل إليها من تيشت ومنها إلى تنبكت. لكن مع نهاية القرن 10هـ/16م تراجع دورها الاقتصادي.

وأهلها موقعها الاستراتيجي كمعبر للقوافل ومحطة لها على امتلاك ثروة كبيرة لأنها مارست دور الوسيط في تجارة الذهب والملح، ومعبر لركب الحج السوداني، وتواصل ازدهار ولاتة فلم تتأثر بسقوط مملكة مالي وسيطرة توارق مقشرن عليها، ولا بهجمات قبائل الموسي سنة 885هـ/1480م، فجذبت التجار السودانيين إليها، كما قصدها تجار المغرب الإسلامي (أوجلة، فزان، غدامس، توات، درعة، فاس، شنقيط...)، وهكذا توسعت المدينة مع القرن 10هـ/16م خاصة وأنها كانت معبر ملح إيجيل إلى المناطق السودانية يُحمل إليها من تيشت ومنها إلى تنبكت، لكن مع نهاية القرن العاشر الهجري تراجع دورها الاقتصادي[1].

ج- تنبكت:

نشأت خلال القرن 5هـ/11م على يد توارق مقشرن نتيجة جفاف توالى على الصحراء لعدة سنوات، ما اضطر الملثمين للنزوح جنوبا قرب نهر النيجر نظرا لتوفر الكلأ والماء والمرعى، وكان اختيارهم لهذا المكان نابعا من رغبتهم في الحفاظ على دورهم في تجارة الذهب بعد أن بدأ منجم بامبوك في حوض السنغال يفقد أهميته لصالح مناجم بُوري في حوض النيجر الأعلى، ويدل على ذلك عمران تنبكت الذي كان على حساب ولاتة الواقعة إلى الغرب منها، ومع الدفع الذي أعطته الدولة المرابطية للتجارة في المنطقة اكتسبت تنبكت شهرة تجارية في المرحلة الأولى من تاريخ تأسيسها، وبفضل هذه الشهرة قصدها العديد من الناس من أهمهم العلماء، مما أكسبها شهرة علمية وثقافية في مرحلة لاحقة.

ويذكر السعدي أن مؤسسيها هم قوم من "مقشرن" إحدى قبائل الطوارق، ويعني اسمها "بئر بكتو"، وبكتو اسم العجوز التي كانت تحرس البئر، وكانت في البداية عبارة عن مجموعة من الخيام للقبائل الرحل المقيمين خلال الصيف في أروان، حفر فيها الطوارق بئر في القرن 3هـ/9م ثم تزايد عدد الآبار بها، فصار التجار يقيمون بها للراحة ومن خلال لقاءاتهم العديدة تحول المكان، وبعد أن كانت تنبكت مجرد مكان يحفظ فيه المسوفيون متاعهم وزروعهم أصبحت سوقا بالغ الأهمية، استقطب أصحاب رؤوس الأموال من التجار المغاربة الذين كانوا يعمرون ولاتة، فقدموا إليها من أوجلة وفزان وغدامس وتوات ودرعة وتافيلالت وفاس8 والسوس وشنقيط إض2افة لأهل مصر والسودانيين السوننك، وكان لموقعها الممتاز عند منتهى الدلتا المركزية لنهر النيجر جعلها تتلقى مؤونتها، كما كانت متصلة عن طريق نهر النيجر ببلاد الهاوسا، ومن وراء الهاوسا ببلاد برنو

[1]- حسين بوبيدي، المرجع السابق، ص 5.

وتشاد التي كان تجارها يتلاقون في أسواق المدينة، فكانت بذلك محطة للقوافل التجارية القادمة من الشمال لا سيما المغرب الأقصى، فأصبحت حلقة وصل بين تجارة المغرب وبين تجارة السودان[1].

ومع القرن 8هـ/14م بدأت تكسب أهميتها ضمن حواضر مملكة مالي، وورثت بالتدريج التراكمات الحضارية التي جمعتها المدن الواقعة إلى الغرب منها، إذ دفع غياب سلطة سياسية قوية في المجالات الصحراوية وبداية وصول قبائل بني حسان إلى المنطقة العديد من الملثمين إلى الاقتراب من مناطق السودان، لتمثل تنبكت مدينة صنهاجية داخل المجال السوداني اختلطت بالعناصر السوننكية والمالنكية، ورثت عن الحواضر الصحراوية الخبرة التجارية، والتقاليد العلمية، فلم تخرج إمامة المسجد الكبير بالمدينة من أيديهم إلا إلى عبد الله البلبالي (ت بعد 940هـ/1534م).

زارها المنسى موسى عند عودته من الحج سنة 725هـ/1324م وضمها للمملكة مالي، وعين عليها واليا من قبله، متيحا لها حرية أكبر في تنشيط تجارتها مع مختلف الحواضر السودانية، فأصبحت تنبكت محطة مهمة في طرق القوافل التجارية، لذا ظهرت في الخريطة الملاحية لأنجيلو دوسارت باسم (Tenbuch) سنة 740هـ/1339م، كما ظهرت في خريطة الميورقي اليهودي إبراهام كريسك (Abraham Cresques) سنة 777هـ/1375م، فقصدها التجار المغاربة واستقروا بها وكونوا جاليات بها أهمها التواتية والغدامسية خاصة.

ومع القرن 9هـ/15م أصبحت تنبكت مركزا بارزا في تجارة الملح القادم من مملحة تغازة، قسم منه ينقل إلى مالي ومن مالي إلى مختلف المدن السودانية جنوبا، وفي المقابل تستقبل تنبكت الذهب السوداني لتنقله القوافل المغاربية إلى تونس ووهران وهنين وفاس وماسة في السوس وآزيلا وآسفي ومنه إلى الموانئ الإيطالية. كما استفادت من التجارة النهرية، ومن تراجع الطريق البري نحو ولاتة بسبب شح المياه، ومع القرن 10هـ/16م تعافت من أثر غزوات قبائل الموسي ثم من سياسات سني علي 873هـ/1468م بسبب التهجير والجرائم التي ارتكبها في حق ساكنتها خاصة النخبة منهم، فاسترجعت مكانتها الدينية في عهد الأساكي. وعلى المستوى الاقتصادي احتلت مكانة بارزة في التجارة الصحراوية، وحافظت على دورها في تجارة الملح[2].

د- غاو/جاو (Gao):

إن الموقع الجغرافي لجاو عند الطرق التجارية الصحراوية الآتية أكسبها شهرتها الاقتصادية، تذكر المصادر بأنها كانت على علاقات تجارية واسعة مع إقليم فزان منذ خمسة آلاف سنة قبل الميلاد، وبذلك ربطتها علاقة تجارية واسعة مع الشمال الإفريقي ما قبل الإسلام. وتعتبر غاو المركز التجاري الثاني من حيث الأهمية بعد تنبكت، فقد مثلت الدور الاقتصادي كمركز من المراكز التجارية في السودان الغربي والدور السياسي لمملكة سنغاي كعاصمة لها، وبلغت أقصى ازدهارها في عهد الأساكي، فكانت القوافل التي تأتيها من جهة الشرق تقصدها قبل تمبكت، أما القوافل التي تأتي من تنبكت فإن الكثير من بضائعها تنقل إلى غاو، واختصت بالإضافة إلى ذلك بأن القوافل التي كانت تقدم إليها أكثر ما يوجد بها هم من الأساتذة وطلاب العلم.

ويذكر المهلبي القرن 4هـ/10م بأن غاو تتكون من مدينتين إحداهما للملك وحاشيته في غرب النهر، والثانية تسمى "**سرناة**" تقع في الشرق تسكنها الرعية، وهو ما ذكره البكري خلال القرن 5هـ/11م، أما مع القرن 6هـ/12م فقد أكد الإدريسي على أنها "مدينة كبيرة مشهورة، كثيرة السكان"، وبعد البحث الأثري تم العثور على المدينتين، غاو القديمة أي المدينة الملكية، وسرناة

[1]- فريد المهندس، المرجع السابق، ص ص 212-213.

[2]- حسين بوبيدي، **الحواضر الفاعلة**، ص ص 7-8.

هي "غاو سني" (Gao Sanny) التي ضمت الجاليات المغربية المسلمة (يرجح بأنها جاليات إباضية) أسهمت في بدور بالغ في تطوير الأنشطة الحرفية بها، ومجموعات مختلفة من السودانيين يمثل سنغاي السُورُوكو نسبة كبيرة منهم، وفي هذه المدينة تتركز مختلف الحرف. ومع الوقت تنامي دور غاو التجاري خاصة بعدما تراجع دور كومبي صالح بعدما خرب المرابطون أودغشت سنة 446هـ/1054م.

ومع منتصف القرن 8هـ/15م أصبحت غاو مدينة كبيرة، تواجد بها الكثير من الغاربة، وأصبحت منطلقا للمسلك التجاري المتجه نحو تادمكة- وارجلان- القيروان ومنها إلى بقية مدن المغرب والأندلس، كما أنها ارتبطت بشبكة طرق داخلية مع العديد من مناطق السنغاي والماند، فعرفت توافدا مستمرا إليها للقوافل مما جعل منها مركزا فاعلا في التغييرات الاقتصادية والاجتماعية، واحتضنت جالية مغربية كبيرة، مهدت سياسيا لظهور مملكة صنغاي، وعلى عهدها بلغت غاو أوج عظمتها وقوتها وازدهارها.

2- المدن الداخلية:

أ- ميمة:

تقع مدينة ميمة شمال مسينة (Macina) بين بحيرتي فاجبين (Faguibine) ودبُّ (Débo)، وتشمل المناطق المحيطة بمدينة باسيكُونو في أقصى الجنوب الشرقي الموريتاني حاليا، واختلف المؤرخون في تحديد موقعها، ذكرها ابن بطوطة لأول مرة منتصف القرن 8هـ/14م في حديثه عن طريق العودة الذي سلكه من مالي إلى تنبكت، وكانت إلى جانب مقاطعة دياغا تمثلان المقاطعات الشرقية من مملكة غانة، ودلت التنقيبات الأثرية على قدم التعمير البشري بها، وبأنها كانت منطقة عبور لأنها اشتهرت بصناعة الحديد لذا كانت تبيعه. وكانت تزود مملكة غانة به، وهذا الحديد هو الذي ساهم في قوتها العسكرية، ومع سقوط كومبي صالح سنة 600هـ/1203م أصبحت ميمة التأسيس الثاني لمملكة غانة، هاجر إليها السوننك المسلمون الذي رفضوا الهجرة نحو ولاتة، وهكذا تشكلت مملكة ميمة، والتي ضم مجالها الجغرافي المناطق الواقعة شمال مسينة، وغرب بحيرة دبُّ، ثم توسع هذا المجال شمالا ليضم كانياغا (Kanyaga) وجنوبا ضم بعض المجالات السابقة للصوصو.

بعد غياب غانة عن التجارة الصحراوية تحول طريق هذه التجارة من سجلماسة- أودغشت- غانة إلى سجلماسة- ولاتة- ميمة- مالي، الأمر الذي جعل كل ثروات النيجر الأوسط تمر عبر ميمة في هذه المرحلة، وكان السوننك هم حلقة الوصل بين المغاربة والسودانيين. وهكذا شاركت ميمة في التجارة الصحراوية منذ نهاية القرن الخامس الهجري، وتوسطت الطريق بين ولاتة ومالي، وقدمت من خلال ملكها ملكها موسى تنكارَا وفرسانه دعما كبيرا للمالنكي في مواجهة الصوصو في معركة كرينا سنة 633هـ/1235م.

ومع القرن 8هـ/14م تسربت القبائل الصنهاجية إلى مملكة ميمة تدريجيا، فسكنوا **قرية زاغري** إلى جانب قبائل الونغارة (نجراته) مجموعتان مختلفتان مذهبيا البيضان (إباضية سموا بصُغنغو) والثانية مالكية سموا بتُوري، ومع الوقت توسع مجال انتشار الجاليات المغاربية تدريجيا ليتجاوز حدود ولاتة وتنبكت نحو مناطق السافانا، فبروز مدن النيجر الأعلى الداخلية كميمة وزاغة وكابرة ومسينة وغيرها معناه توسع مجال دار الإسلام تدريجيا (المجال من التكرور غربا إلى غاو شرقا شاملا منطقة الساحل –الجنوب الصحراوي وشمال السافانا- والمناطق المحيطة بالدلتا الداخلية للنيجر)[1].

[1]- حسين بوبيدي، **محاضرة الحواضر الصحراوية الفاعلة في العلاقات (2)**، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة عبد الحميد مهري، قسنطينة 2، 2021/2020، ص ص 7-8، منصة التعليم عن بعد، الرابط الالكتروني:

https://elearning.univ- constantine2.dz/elearning/course/view.php?id=727.

انشقت مملكة ميمة عن ملكة مالي بعد الاضطرابات التي عرفتها هذه الأخيرة، إثر سيطرة توارق مقشرن على أقاليم مالي الشمالية حوالي سنة 837هـ/1433م لكن استقلالها لم يدم طويلا، إذ وقعت تحت سيطرة مملكة سنغاي في عهد ملكها سلمان دم/داند سنة 869هـ/1465م وخربوا حاضرتها، وهنا انتهى دورها الحضاري خاصة بعدما تعرضت أراضيها للتصحر لغاية القرن 8هـ/14م، مما حرمها مواصلة دورها الرائد في إنتاج الحديد، ومع تنامي دور تنبكت في استقطاب تجار الشمال، تراجع دور الجمل في توزيع السلع الشمالية بسبب تطور الأسطول النهري، الذي كان أفراده ينقول السلع بالمراكب إلى مدينة جني التي نافست الحاضرة ميمة ثم تجاوزتها فيما بعد[1].

ب- مالي:

مدينة قديمة ورد ذكرها في المصادر العربية كمدينة وكمملكة بتسميات عدة ملل، ملّل، ما، ومالي وملي، ينتمي شعبها إلى مجموعة الماندي التي ينتمي لها السوننك والونغارة، وملكها من أوائل الحكام الذين اعتنقوا الإسلام بفضل أحد الدعاة (رواية البكري)، انخرطت في التجارة العابرة للصحراء بسبب قربها من مناجم الذهب في منطقة بُوري.

تتقاطع الرواية الشفوية مع الخبر الوارد عند الإدريسي في اعتبار "دُو" هي مدينة مالي المذكورة في مصادر القرنين 5-6هـ/11-12م، أما عن موقعها اليوم فقد اختلفت آراء الباحثين في تحديده، والتي جمعها لنا البحث حسين بوبيدي كالتالي::

أ- شارل مونتاي انطلاقا من الروايات الشفوية وتحليلا لنص ابن سعيد المغربي يعتبر مالي المدينة هي "كِري" (Kiri) المرتبطة بمنطقة "دُو" (DO)الواقعة في جبال الماندينغ بأعالي نهر الباخوري (Ba-Khoy) جنوب غرب باماكو.

ب- ريموند موني (Raymond Mauny) يرى بأن مالي المدينة هي "دَاو" (Dao) التي تقع على بعد 35 كم جنوب غرب باماكو أيضا (هي دائما مالي الشمالية عنده)، أما حاضرة المالنكي زمن حكم المناسي فهي تقع بمالي الجنوبية، والتي لم يحسم اليوم موقعها (بسبب عدم الاتفاق على طريقة قراءة المعلومات المتعلقة بها سواء الواردة في المصادر العربية عند ابن بطوطة، العمري، محمود كعت، عبد الرحمن السعدي، أو تلك الوايات الشفوية للماندي إضافة لعجز التنقيب الأثري عن تقديم أدلة حاسمة.

ت- لم يقدم ابن خلدون أية إشارات حول موقعها لكنه سمى المدينة بـ"**بني**"، في حين سماها العمري "**ييتي**"، والقلقشندي "**بنبي**"، والحسن الوزان "**مالي**" وأضاف بأن المملكة أخذت اسمها من اسم قاعدتها (القرية العظيمة)، أما محمود كعت ذكر بن دار إمارة ملك مالي كانت في مدينتين: إحداهما "**جارب**" والثانية "**ينع**".

ث- الرواية الشفوية تسمي قاعدة الملك المالنكي "نياني" (Niani)، نيانيبة (Nianiba) ومعناها نياني الكبرى، نياني-نياني (Niani-Niani).

وفي انتظار تأكيد موقع عاصمة مالي حسب نتائج البحث الأثري أو ما قد تجود به المصادر العربية الدفينة، المهم أنه بسبب موقعها الجغرافي الممتاز أهلها لأن تكون مركزا بالغ الأهمية في مسار التغيرات الاقتصادية والاجتماعية، لأنها أصبحت السوق الأساسي لمنتجات الشمال والجنوب، وإليها تنتهي القوافل التجارية من أجل إجراء عمليات التبادل، وهي مقصد أهل المغرب ومصر[2]، إلى جانب كونها مركزا علميا إذ قصدها الطلاب للتعلم والعلماء المغاربة للتدريس والقضاء والكتابة والإمامة. ولأول مرة نجد المغاربة (البيضان) قد تجاوزوا حواضرهم التقليدية في جنوب منطقة الصحراء، إذ ستصبح قبائل مسوفة جزء أساسيا من مكونات المجتمع المالي، ناقلة معها مختلف القيم بفضل التعايش في الحواضر الشمالية مثل أودغشت وغانة وولاتة

[1]- حسين بوبيدي، **الحواضر السودانية (2)**، ص ص 2-4.

[2]- فريد المهندس، المرجع السابق، ص 210.

وتنبكت، مما سمح للمغاربة بالتأثير في المالنكي بعد مرحلة طويلة من التعامل والتساكن مع السوننك. وبفضل هذا التعايش أصبح أهل مالي أكثر أهل السودان تحضرا، فهم الأئمة والمدرسون، وتشبهوا في الكثير من عاداتهم وألبستهم بالعادات والثقافة المغربية، مما أهل مالي لأن تكون حاضرة إسلامية بامتياز في المجالات السودانية الداخلية، وأثرت على المجموعات الاخرى، فقد تمكن المالنكي من نقل المؤثرات المغربية إلى جنوب منطقة السافانا وداخل منطقة الغابات[1].

خريطة عاصمة مالي[2]

وتوضح الخريطة التالية مختلف المواقع التي اقترحت لعاصمة المللنكي:

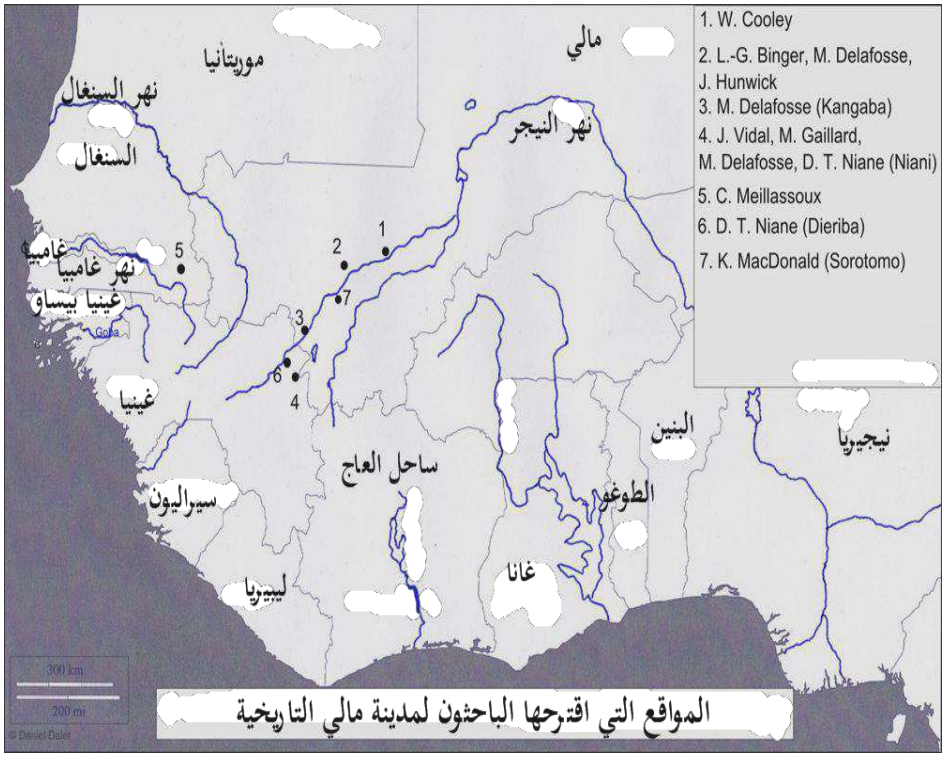

ج- جيني (Djenné):

مدينة جيني واحدة من أهم الحواضر الإسلامية السودانية، تقع إلى الجنوب الغربي من مدينة تمبكت بحوالي مائتي ميل[3]، على نهر باني[4] رافد النيجر، وفي منطقة تشعب الروافد التي كانت تقدم للمدينة حماية طبيعية من جهة، وتسمح لمياه الفيضان أن تروي الحقول الملحقة بالبيوت بشكل منتظم، وفي رواية أخرى ذكر بأنها تقع إلى الجنوب الغربي من تمبكت، وتبعد عنها بحوالي 700كم، كانت جيني في بدايتها بلدة صغيرة ظهرت في قلب داتا نهر النيجر على أنقاض إحدى مدن مملكة غانة، أما فلكيا فهي تقع حاليا في جمهورية مالي على خط عرض 35 و 13 درجة شمالا، وخط طول 9 درجة شر[5].

---

[1]- حسين بوبيدي، **الحواضر السودانية (2)**، ص ص 5-6.

[2]- الخريطة توضح المواقع المقترحة للعاصمة مالي من وضع الدكتور حسين بوبيدى

[3]- فريد المهندس، المرجع السابق، ص 217.

[4]- **نهر باني:** يعد واحدا من الأنهار الكبرى في بلاد السنغاي، وأحد روافد نهر النيجر مجراه في الجهة الشرقية منه يلتقيان مع بعض قرب مدينة جني.

[5]- عطية مخزوم الفيتوري: **دراسات في تاريخ شرق إفريقيا وجنوب الصحراء**، جامعة قار يونس، بنغازي، ط1، 1988، ص ص 288-289.

أما عن أصل تسمية جيني اختلف فيه، فقيل بأنه مستمد من الأسطورة الشعبية، والتي مفادها أن أحد القادة العرب في غزوة بدر قد عين للقبائل الإفريقية مكان تأسيس المدينة، لتكون تحت الجنة أو فوقها، لذلك أخذت اسمها من "الجنة"، ثم حُرف الاسم إلى" حنا" وأخيرا "جنّي"، وقيل أن اسمها أتى من الاسم العربي "الجن- الجان" نظرا لما اشتهرت به من وجود السحر والسحرة، وغيرها من الرويات حول سبب تسميتها.

وعن تاريخ تأسيسها قيل بأنها أسست خلال القرن 1ه/7م، وذكر السعدي بأنها أسست في القرن 2ه/8م، وقيل بأنها أسست خلال القرن 3ه/9م، وفضل بنائها يعود إلى بربر صنهاجة، فقد اختاروها لتكون ملتقى تجار الملح بتجار الذهب، ولم يلبث تجار الونغارا القادمين من الجنوب الغربي إلى أن سكنوا بها، وأصبحت أعدادهم تتزايد حتى شكلوا غالبية السكان. وأسلم ملكها "كنبر" في القرن 6ه/12م الذي هدم قصره وبنى مكانه مسجدا.

وجيني تعتبر امتدادا للمدينة القديمة القريبة منها "جنو دجنُّو" (Jenne-jeno) التي يعود تاريخها إلى القرن 3 ق.م، ساعدها موقعها الجغرافي الحسين على نهر النيجر من استعماله في التواصل التجاري مع الشمال، والاحتماء به من الأخطار الخارجية خاصة من قبائل الموسي، ومع القرن 4ه/10م كانت تستورد الملح من المسلمين، وتوفر لهم الذهب بالمقابل والذي كان يصلها من إقليم الغابات. وهكذا استمرت المدينة في النمو وتأثرت بالعمارة المغربية.

وأول إشارة للمدينة جيني في المصادر الغربية كانت عند الرحالة الجينوي مالفنت (Malfante) سنة 851ه/1447م كتبها (Geni)، وذكر بأنها تقع على مسافة 76 كم شمال شرق موبتي (Mopti) وسط جمهورية مالي، وتتموضع في السهول الفيضية بين نهري النيجر وباني (Bani) بالدلتا الداخلية. واختلف المؤرخون حول المجموعة السكانية التي أسستها فدولافوس يقول بأن السوننك هم من أسسها، باعتبار أن تأسيسها كان أحد نتائج سقوط غانة على يد الصوصو سنة 600ه/1203م، في حين يرى مونتاي (Monteil) أن مؤسسيها هم مسوفة، تحول أهل جني إلى الإسلام بتحول ملكهم إليه في القرن 6ه/12م، لكن السعدي يرى بأن هذا التحول لم يحدث إلا مع القرن 8ه/14م.

خضعت جني لمالي قبل سنة 725ه/1325م حين كان مجرد مدينة تقع على أطراف المسالك التجارية الرئيسة، وقد بدأت تكسب أهميتها مع البروز التارخي لتنبكت، ففي فترة ازدهار تنبكت صارت مدينة جني مكانا لالتقاء التجار لتبادل المنتجات بينهم، وحملت القوارب البضائع من تنبكت إليها، حيث كان تجار الجنوب يقصدونها ليأخذوا ما يحتاجون إليه من بضائع الشمال، فارتبطت جني وتنبكت معا وكان ازدهارها من ازدهار هذه الأخيرة، فكانت مدينة جنى مركزا للالتقاء للقوافل الصحراوية في الداخل ومركز المنتجات الصادرة من السودان الغربي[1]، وبذلك تعد جيني المركز التجاري الثالث من حيث الأهمية التجارية بعد كل من تنبكت وغاو، كما تعتبر من بين أهم المحطات التجارية لقبائل صنهاجة باعتبارها واقعة على الحدود الشمالية لبلاد السودان. ومن بين العوامل التي جعلت منها مركزا تجاريا هاما في العصر الوسيط، وقوعها على الطريق الغربي الرابط بين سجلماسة وغانة، كما تعتبر مستودع لتبر السودان، وذلك لوجود مراكز لتحويل الذهب وتصفيته من الشوائب، ثم تدهورت مدينة جيني منذ القرن 7ه/13م لصالح مدينة "**جني الجديدة**" التي حلت محلها إلى أن هُجرت "جني جنُّو" تماما مع القرن 9ه/15م ربما بسبب الفيضانات التي عرفتها[2].

واستفادت جيني من توسع التجارة النهرية على يد السوروكو منذ القرن 9ه/15م، كما ساعدها تراجع دور ولاتة لصالح تنبكت على جذب السلع المغربية ومبادلتها بالسلع السودانية عن طريق تجارة القوارب، ولعل حرص سني علي (868-

[1]- الهادي المبروك الدالي، **التاريخ السياسي والاقتصادي**، ص 306

[2]- حسين بوبيدي، المرجع السابق، ص ص7-8.

897هـ/1464-1492م) على إخضاعها كان انطلاقا من موقعها، وفاعليتها في الحركة التجارية. وبهذا تطورت واتسعت مدينة جيني، فكثرت بها الأسواق العامرة كل أيام الأسبوع، وقصدتها قبائل الونغارة الذين يقصدونها بعبيدهم للقيام بالمبادلات التجارية، واعتبرها الأوربيون أبرز المدن السودانية وأكثر أهمية اقتصادية من تنبكت، فكانت بمثابة العاصمة الاقتصادية لحوض النيجر الأعلى، فأعادت بذلك رسم خريطة التبادل وطرق القوافل ومركز التسوق، وإعادة تشكيل المجتمع السوداني لقربها من مناطق الغابات[1]، وحتى المؤرخين الأوربيين قالوا عنها بأنها كانت سوق عظيمة من أسواق المسلمين يجتمع فيها تجار الملح من إقليم تغازا (Tahada) على مسيرة يومين إلى الشمال من توديني (Taouddeni)، وتجار الذهب من مناجم باكوكو (bakoko)، وبفضلها تجمعت القبائل في تمبكت من جميع الجهات المجاورة، كما كانت مركزا ثقافيا ينافس الحاضرة تمبكت، قصدها الكثير من العلماء خاصة من البيضان قادمين إليها من تنبكت، وقصدها أيضا فقهاء السوننك والونغارة، فكانت حاضرة علمية بامتياز ساهمت في تنشيط الحركة العلمية بحوض النيجر الأعلى، ومن بين العائلات العلمية بها عائلة بغيغ[2].

وخلاصة المحاضرة، نستنتج أن كل الحواضر والمراكز التجارية المذكور أعلاه قد شجعت بعض الجماعات من المناطق المجاورة على الاستقرار نظرا لتوفر فرص الكسب بها، وممارسة الحياة الجديدة المتمثلة في الحرف اليدوية البسيطة التي يتطلبها استقبال القوافل التجارية، واشتغل سكان هذه المدن التجارية بالتجارة الداخلية والخارجية، وهذا ما يفسر الكثافة السكانية لهذه المدن الاقتصادية، خاصة بعد استقرار التجار الوافدين إليها من المغرب الأدنى والأوسط والأقصى وحتى من مصر للقيام بمهمة مراقبة الأسواق المحلية. ومع استقبال هذه المراكز للأيدي العاملة الوافدة من مناطق أخرى، تحولت الحياة البسيطة إلى حياة حضارية بفعل التفاعل التجاري والازدهار الاقتصادي.

وإلى جانب هذه الحواضر التجارية الكبيرة وجدت مدن أخرى صغيرة مثل تغازة وتادمكة وتكدا وغيرها، لكن الحياة كانت في كل منها بصورة مصغرة عن حياة المدن الكبرى، كما أنها استمدت نشاطاتها من المدن الكبرى، لذلك لم يكن لها دور خاص على الصعيد التجاري لأن اقتصادها ظل مرتبطا بالمراكز التجارية الكبرى، أما البوادي الصحراوية فلم يكن لها دور اقتصادي مهم إذ غلبت على سكانها حياة التنقل والترحال . وما يمكن استنتاجه أيضا أن النواة الأولى للمراكز التجارية هو استقرار مجموعة من السكان حول الواحات والأراضي المنبسطة في بادئ الأمر، واكتسبت طابعا الاقتصادي والحضاري عن طريق اشتغالها بالتجارة وسيطرتها على أهم الطرق التجارية المؤدية إليها، لذا كانت التجارة الصبغة التي اصطبغت بها هذه المراكز مما سيسهل مهمتها فيما بعد لتكون مراكز إشعاع حضارية.

المحاضرة الخامسة: القبائل الصحراوية الفاعلة في العلاقات

[1]- حسين بوبيدي، المرجع السابق، ص 8.

[2]- الفيتوري، المرجع السابق، ص 289.

تمهيد:

تعرف الفاتحون العرب على سكان الصحراء خلال القرن 1ه/7م ، وذكر ابن عبد الحكم وابن الفقيه واليعقوبي وابن خلدون وابن حوقل والبكري والدمشقي وابن خلدون بعضا من قبائلهم كلمتونة، جدالة، مسوفة، مسراتة، بني وارث، بني لماس، لمطة، جزولة، سرطة وغيرها. وما نركز عليه في المحاضرة هي تلك القبائل الفاعلة والأكثر تأثيرا في توجيه الأحداث التاريخية في المنطقة كما ذكره الباحث الحسين ولد الناني، القبائل التي تقاسمت النفوذ في المجال الجغرافي الصحراوي، وسيطرت كل واحدة منها على نطاق جغرافي خاص بها، تحمي ثرواته ومراعيه، وتستفيد من مياهه وموقعه على الطرق التجارية العابرة للصحراء، وأغلب القبائل الفاعلة تنتمي إلى الحلف القبلي صنهاجة الجنوب، وهي لمتونة، جدالة، مسوفة ثم لمطة، ترغة، جزولة، بني وارث، والتي كان مجالها ممتدا ما بين بلاد المغرب شمالا، وبلاد السودان جنوبا، ومن البحر المحيط غربا إلى غدامس من قبلة طرابلس وبرقة شرقا حسبما ذكره ابن خلدون. ولقد شكلت لمتونة وجدالة ومسوفة أبرز عناصر الإعمار البشري في الصحراء خلال العصر الوسيط، خاصة بتحكمها في المسالك التجارية الرابطة بين المغرب الأقصى وجنوب الصحراء من خلال الطريق اللمتوني[1].

وستحدث تغييرات عميقة على المجال الصحراوي المحاذي للسودان الغربي بعد القرن 7ه/13م، بسبب نزوح بني حسان تدريجيا، وتشكل مجموعة قبائل عربية ستبسط سيطرتها على المجال، وتؤدي دور القبائل البربرية في تسيير القوافل، ويصعب علينا تحديد المجال الجغرافي الدقيق لكل قبيلة، لأنها كانت في حراك دائم، مرتبط بالتحولات السياسية، والمصالح الاقتصادية، والنزاعات على الأرض والرعي[2].

أولا: المجموعات الصنهاجية:

1- لمتونة:

تعتبر إحدى أكبر وأقوى وأهم القبائل الصنهاجية وأكثرها شهرة، فقد كان ملك الحلف الصنهاجي فيهم، تنحدر فروعها حسب المؤرخين العرب من جد واحد هو لمت أو تلميت، ومجالها الأصلي حسب دولافوس هو منطقة أودغشت وأقاليم تاجنانت الموريتانية، ومنه توسعوا بعد ذلك في الأراضي الممتدة ما بين جدالة غربا وبلاد مسوفة شرقا، وشمالا تصل إلى وادي تارجا ووادي نون، وخلال القرن 1ه/7م كانت لمتونة تنتجع المنطقة الواقعة بين السوس الأقصى وجبل آدرار، ووصلت فروعها جنوبا إلى تاكنت لتشمل الصحراء الواقعة بين سجلماسة ومدينتي سلى وتكرور، وواصلت انتشارها خلال القرن 2-3ه/8-9م باتجاه الجنوب الشرقي حيث وصلت إلى الحوض الذي أسست به عاصمة ملكها أودغشت، وأهمية هذا المجال الجغرافي تبرز في اختراق الكثير من طرق القوافل له، ما جعل اللمتونيين يساهمون في النشاط الاقتصادي، أضافة لقرب مجالهم من مجالات السوننك. ومع أواخر القرن 5-6ه/11-12م بعد طردها من الجنوب على يد التحالف الزناتي الغاني، اضطرت إلى الدخول في صراع مع مجموعة البافور المستقرة آنذاك في آدرار الذي يوفر موقعه على الطرق التجارية العابرة للصحراء بالإضافة واحاته مصادر هامة للعيش[3].

---

[1]- أحمد مولود ولد أيده الهلال، المرجع السابق، ص 57.

[2]- حسين بوبيدي، **القبائل الصحراوية الفاعلة في العلاقات**، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة عبد الحميد مهري، قسنطينة 2، 2021/2020، منصة التعليم عن بعد، ص 1، الرابط الالكتروني:

https://elearning.univ-constantine2.dz/elearning/course/view.php?id=727.

[3]- ولد الحسين الناني، المرجع السابق، ص 88.

كما رحل الكثير من اللمتونيين إلى الشمال مطلع القرن 6هـ/12م مما أدى إلى تداخل مجالاتهم مع مجال مسوفة، وهذا كان في صالح المسوفيين. وكان هدف لمتونة تعويض ما فقدته في الجنوب، وتمكنت بفضل قائدها يانو بن عمر أخو يحي بن عمر من احتلال منطقة أسست بها حصنا عسكريا هو "أركي" (آزُوكي)، وأصبحت جيوشها تنطلق منه للإغارة على المجموعة السالفة الذكر. لكنها لم تحتل منطقة آدرار كاملة إلا خلال النصف الثاني من القرن 5هـ/11م بعد بسط الحركة المرابطية نفوذها على كامل القبائل الصنهاجية الصحراوية والأراضي التابعة لها، فاتخذوا من آزوكي عاصمة لهم شيدوها على أنقاض مدينة قديمة.

وخلال القرن 5هـ/11م كانت قبيلة لمتونة من أكثر القبائل عددا وبطونا وأوسعها مجالا، ومن بين بطونها: بنو وتنطق، بنو زمال، بنو صولانو بنو ناجسة، جلهم كانوا بدوا متنقلون وراء مواشيهم، وبعضهم استقر بالمدن كأودغشت، كان لهم دور هام في المبادلات التجارية، فقد سيطروا على أقدم طريق يعبر الصحراء باتجاه بلاد السوداني وهو "المسلك اللمتوني" بعد قيام حركة المرابطين، وقيادة الأمير أبي بكر بن عمر اللمتوني لجيوشه شمالا وجنوبا عبر المسلك الرابط بين سجلماسة وغانة سيطرت عليه قبيلة مسوفة، وفي حال اتحاد قبائل صنهاجة كان الملك يختار من لمتونة من بين رؤسائها[1].

2- مسوفة:

كان لقبيلة مسوفة دور كبير في تسيير حركة القوافل التجارية نظرا لمهارتهم في مهنة الدلالة، وبراعتهم في ذلك مكنتهم من احتكار مهنة الدلالة على طول الطريق الغربي منذ القرن 4هـ/10م لغاية القرن 8هـ/14م[2]، وتعتبر مسوفة من أقدم القبائل الصحراوية احتكاكا بالعرب الفاتحين، وكان لها دور هام في توسيع نطاق فتوحات المرابطين إلى جانب لمتونة وترغة خاصة بعد الصراع الذي حدث بين لمتونة وجدالة حول زعامة الحركة، وانسحاب الأخيرة وانزوائها في المناطق الشاطئية[3].

ومسوفة أو مسطوف هي قبيلة صنهاجية صحراوية تعود لنفس الأرومة السلالية لقبائل جدالة ولمتونة، تقع ديارهم على الشرق من منازل لمتونة وإلى الغرب من زناتة، وتصل شمالا إلى تندوف وتتجاوزها أحيانا حتى وادي درعة، وتصل فروعها إلى منعطف النيجر جنوبا، في حين يرى جوزيف كيوك (J. Cuoq) بأن الموطن الأصلي لهم هو منطقة تندوف الجزائرية، بدؤوا توسعاتهم منها منذ القرن 2هـ/8م ثم ملكوا المجال الواقع بين أودغشت وسجلماسة، ثم اتسع مجالهم على حساب لمتونة، فامتدوا غربا نحو بلاد السودان ناحية غانة وشرقا ناحية ممالك كوكو وتادمكة وتكدا، كما توسعوا أيضا في مجال قمنورية بعدما قضى عليهم المرابطون مع بداية غزوهم للصحراء، وكانت مسوفة تنتجع في الشمال في مدينة درعة، وفي بعض مجالات السوس الأقصى المطلة على الصحراء. وأهمية مجالها الجغرافي تظهر في المسالك التجارية الصحراوية التي تعبره، بالإضافة لوجود ملاحة تانتال (تغازة)، فكانوا من أهم المساهمين في خفارة القوافل والعمل كأدلاء لها[4].

ومن بطون مسوفة بني ينتسر (نيسر) وإليهم تنسب صحراء نيستر، وكانت بلادهم من أكثر أجزاء الصحراء جفافا وتصحرا وأقلها مياها، رغم ذلك كان لهم دور حيوي، وعلا شأن مسوفة خاصة قبل قيام دولة المرابطين وعو شأن العصبية اللمتونية، فقد سيطرت مسوفة على الطريق الرابط بين سجلماسة وغانة، واستولت على مملحة تغازة الواقعة على طول الطريق، وتولت قيادة القوافل وانفردت بذلك أكثر منذ القرن 8هـ/14م فالوسطاء التجاريين والأدلاء جلهم من مسوفة، كما كانوا يشكلون غالبية سكان تنبكت وولاته، وامتد بذلك نشاط مسوفة التجاري حتى منطقة نهر النيجر، وهذا يعني إعادة

[1]- المرجع نفسه، ص 91.

[2]- فريد المهندس، المرجع السابق، ص ص 183-184.

[3]- محمد ولد أيده الهلال، المرجع السابق، ص ص 94-95.

[4]- ولد الحسين الناني، المرجع السابق، ص ص 91-92.

التشكل بين المجموعة الصنهاجية والمجموعة السودانية على امتداد القرنين 8 و 9 الهجريين وفق قواعد جديدة بتقاسم النفوذ، فلم يكن من مصلحة مسوفة إلحاق الأذى بمملكة مالي نظرا لتشابك مصالحهم الاقتصادية المرتبطة بطرق التجارة وحمايتها والعوائد التي يجنيها الطرفان منها، لذا لجأت مملكة مالي إلى تعيين واليين على ولاتة أحدهما من البيضان والثاني من السودان، وبالتالي استأثر السودانيون بالسلطة السياسية التي امتدت من السودان الغربي (مالي حاليا) إلى منطقة الحوضين الشرقي والغربي بالجنوب الشرقي لموريتانيا الحالية، واستأثر الصنهاجيون بتسيير تجارة القوافل[1].

كما اهتمت مسوفة أيضا بالرعي، فقد كانت تزود القوافل المارة عبر أراضيها بالمياه والعلف لمواشيها نظير مبالغ مالية كانت يقدمها لها أصحاب القواق التجارية، كما تحصلت مسوفة على الأموال الطائلة بفضل سيطرتها على ملاحة تغازة ومقابل الملح الذ كانت تبيع للتجار الذاهبين غلى السودان، كما جنت الأموال أيضا بفضل الضرائب المختلفة من القوافل العابرة لأراضيهم مقابل حمايتها من السلب والنهب[2].

2- جدالة:

تنحدر من جدها جُدال (كُدال) وتجتمع مع لمتونة في أب واحد، وحسب بعض المصادر هي من أكثر القبائل عددا، والبعض يعتبر بأنها من بقايا شعب الجيتول القديم الذي تحدث عنه الكتاب اللاتين، وإن كان البعض يعتقد بأنهم جزولة وليس جدالة[3]، استقروا في الصحراء منذ القديم، وانتشرت فروعهم جنوبا حتى الضفة اليمنى لنهر السنغال، ولا يعرف التاريخ بالضبط، ولكن من المؤكد أنها كانت هناك خلال القرن 1ه/7م، ويرى دولافوس بأن مجالهم يمتد شرقا إلى جبل آدرار، وهم أقرب الملثمين جغرافيا إلى الممالك السودانية. كما انتشروا بالجزء الغربي الموالي للمحيط الأطلسي وتغيرت حدودهم الجنوبية مع ق 5ه/11م[4]، بسبب موقف جدالة من الحركة المرابطية وعدم مشاركتها في فتوحاتها، فدخلت في صراع مع لمتونة التي كانت تقود الحركة المرابطية ومع مملكة التكرور -وهي حليفة لمتونة-، وكانت تسيطر على الضفة اليسرى لنهر السنغال، فقتل الجداليون أميرها وارجابي بن رابيس سنة (432ه/1040-1041م)، عندما كان يقود مجموعة من التكرور ضمن الجيش المرابطي بقيادة يحي بن عمر اللمتوني، فاتجهت جيوش المرابطين إلى الجداليين وأخضعتهم بقوة السلاح، فانزووا في مناطق شاطئية منعزلة، ومن المحتمل أن يكون حلفاء لمتونة من سكان التكرور قد استفادوا من هزيمة الجداليين، فاستولوا على أراضي تلك القبيلة المجاورة ومن ضمنها صنغانة المدينة الواقعة على ضفتي نهر السنغال، والتي يرى البعض أن اسمها الأصلي هو صنهاجة وحرف إلى صنغانة ومنها السنغال، ومنحت المدينة اسمها للنهر ثم توسع الاسم ليشمل المنطقة الواقعة إلى الجنوب منه.

وكان لجدالة دور أساسي في المبادلات التجارية مع بلاد السودان، نتيجة وجود الملح، فقد سيطرت جدالة منذ القرن 4ه/10م على مملحة آوليل التي كان ملحها يصدر إلى الممالك السودانية في حوض نهر السنغال وإلى أودغشت عبر طريق بري متجه من الغرب إلى الشرق، ومن أودغشت يصدر إلى غانة وممالك النيجر السودانية، وهو ما يفسر ثراء القبيلة[5]، ولعل

[1]- أحمد مولود ولد أيده الهلال، المرجع السابق، ص 63.

[2]- فريد المهندس، المرجع السابق، ص 25.

[3]- ولد الحسين الناني، المرجع السابق، ص 86.

[4]- حسين بوبيدي، المرجع السابق، ص 3.

[5]- فريد المهندس، المرجع السابق، ه1، ص 24.

سيطرتهم على هذا المصدر الاقتصادي الحيوي وقتها، هو ما يفسر ما كانت عليه القبيلة من الثراء آنذاك، وقرب منازلها من ديار السودان جعلها تقود قبائل صنهاجة الصحراء في شخص رئيسها يحي بن إبراهيم الجدالي قبل أن تعود الزعامة إلى لمتونة[1].

قبائل صحراوية أخرى: وهي القبائل الأقل عددا وتأثيراها محدود في توجيه الأحداث التاريخية داخل المنطقة، كانت تعيش إلى جانب القبائل الكبرى، من أهمها:

أ-بنو وارث:

مضاربهم حسب البكري في الطريق بين مدينتي تامدلت وأودغشت على بعد 27 مرحلة من الأولى وعشرة مراحل من الثانية[2]، لهم مدينة تسمى بانْكلابين تقع بين مضارب لمتونة وجدالة وحاليا تقع داخل تمانت فهي قريبة من مواقع ونغارة، وهم أول من أسلم من صنهاجة الصحراء، وينسب إسلامهم إلى عقبة بن نافع، كان عددهم أقل خلال القرن 4هـ/10م كانوا ينتجعون صحراء واران إلى الجنوب من مدينة شنقيط الحالية، وتوفر لهم هذه الصحراء خلال مواسم الأمطار المراعي الجيدة للإبل. وتوسع نفوذ هم باتجاه الجنوب خلال قرن من الزمن، وجاهدوا منة أجل نشر الإسلام في السودان الغربي حتى قبل قيام حركة المرابطين، وكانوا يحصلون على قدر كبير من حاجياتهم عن طريق ما كانت توفره لهم حماية القوافل ورسوم المرور من مداخيل[3].

ب- جزولة:

يعتقد البعض بأنها تنحدر من شعب الجيتول الذي كان يعيش في أطراف الشمالية للصحراء خلال العصر القديم، وحدد اليعقوبي موقعهم في النصف الثاني من القرن 3هـ/9م في مدينة فالوسن معتبرا إياها آخر مملكة الأدارسة إلى الجنوب، أما البكري وصاحب الاستبصار وابن خلدون قرنوا بين مجالي جزولة ولمطة بين نول ووادي سوس، وفي الطريق بين تامدلت وأودغشت. وتمركزت جزولة خلال العصر الوسيط في جنوب غرب المغرب الأقصى، وانتجعت المنطقة الواقعة بين وادي سوس ودرعة، منطقة ملامسة للحدود الشمالية لصحراء الملثمين، وتخترقها الطرق التجارية العابرة للصحراء باتجاه بلاد السودان، مما ساعدهم على الانسياب نحو الجنوب حتى أعماق الصحراء. وبعضهم يرى بأن الجزوليين قدموا من الشرق من تونس وليس من المغرب الأقصى، وأعداد جزولة كانت قليلة وبالتالي كان دورهم محدودا، وعندما عظم أمر يوسف بن تاشفين اتخذ حشمه من جزولة وغيرهم، ولم تتمكن جزولة من السيطرة على أي طريق تجاري بسبب سيطرة القبائل الكبرى، لذا لم تجد أمامها بدا من اتخاذ الإغارة ونهب القوافل في المناطق الوعرة نشاطا لها، ومصدرا من مصادرها الاقتصادية حالها حال لمطة.

ج- لمطة:

لا تختلف وضعيتهم عن وضعية جزولة، ثقلهم يوجد على الطرف الشمالي للصحراء، ومعظم المؤرخين يرون بأنها تدخل ضمن القبائل الصنهاجية، ويرى ابن خلدون أن جدهم لمك من إخوته صناك (صنهاج)، حدد اليعقوبي مجالها في النصف الثاني من القرن 3هـ/9م في صحراء المغرب الشرقية حول زويلة فزان باتجاه أوجلة وإجدابية، أما ابن حوقل منتصف القرن 4هـ/10م جعل مجالها في نواحي تامدلت، وهو ما ذكره البكري في القرن 5هـ/11م[4]، إضافة إلى مدينة نول لمطة بالسوس الأقصى التي تنسب لهم، وذكر الإدريسي بأنهم كانوا يأوون إلى مدينة آزكي مما يعني تفرق بطونهم وحراكهم الدائم خلال القرن 6هـ/12م.

---

[1]- ولد الحسين الناني، المرجع السابق، ص ص 86-87.

[2]- البكري، المصدر السابق، ص 164.

[3]- ولد الحسين الناني، المرجع السابق، ص ص 96-7.

[4]- البكري، المصدر السابق، ص 157.

وارتبطت لمطة مع صنهاجة بحكم الجوار أو المصالح المشتركة المرتكزة على ممارسة المجموعتين للرعي والتجارة العابرة للصحراء، وكان معظمهم يعيشون في المنطقة الواقعة بين وادي السوس ومصب وادي نول، أسسوا مدينة اقترن اسمها بهم تسمى "نول لمطة" كانت حيوية خلال العصر الوسيط للتجار، منها تنطلق شبكة من الطرق باتجاه الصحراء وبلاد السودان، واستخدموا تلك الطرق ليستقروا بالصحراء دون أن يتمكنوا من السيطرة على منطقة خاصة بهم، فاضطروا لقطع الطرق والإغارة على القوافل لكن ذلك لم يكن وضعهم الدائم، وجماعة منهم تمكنت من التوغل داخل الصحراء واستقرت في مدينة آزكي وشاركت في الخدمات التي كانت توفرها هذه المحطة المهمة للتجار الذين يقصدون مدن السودان الغربي، كما ساهموا في المثاقفة التي تمت بين صنهاجة الصحراء والشعوب السودانية المجاورة لهم، وهذه المجموعة اعتبرها بعض الباحثين أصل مجموعات الطوارق التي تعيش إلى الشمال والشرق من مدينة تنبكت وهناك من يرى غير ذلك[1].

د- مداسة:

تمثل مداسة أغلب ساكنة السوس الأقصى، وسيظهر مجال جديد لها مع القرن 5هـ/11م ربما اضطرها إليه حروب القرن 4هـ/10م بين صنهاجة وزناتة، وحدد البكري هذا المجال ما بين مملكة غانة ومملكة كوكو من بلاد السودان الغربي وهو نفس المجال الذي حدده الإدريسي، ومن مدنهم: رأس الماء، تيرقي، و\رْتنيس، بوغرات، مداسة (سبة لهم). وتداخلت مضاربهم مع بعض مناطق السودان الغربي عند الثنية الكبرى لنهر النيجرن مما جعل من مداسة معبرا للمؤثرات الثقافية من المغرب الإسلامي إلى الصحراء ومنها إلى السودان الغربي، كما ساهموا في تنشيط التواصل الاقتصادي أيضا[2].

د- ترغا (تارجا):

ترجة أو ترغة أو تاركا يرى جوزيف كيوك أن العرب هم من أطلق هذه التسمية على المجموعات الفزانية بعد فتحهم لشمال إفريقيا، وتعني كلمة "تارجا" في لغة الطوارق الشماليين "فزان"، ويتغير معناها عند طوارق آخرين (الوادي، الساقية). وخلال العصر الوسيط كان موطن ترغا الرئيسي يقع بين وادي درعة والساقية الحمراء، رغم ذلك ورد اسمها مع أسماء القبائل التي كانت تعمر صحراء الملثمين خلال الفترة السابقة لقيام حركة المرابطين، فقد كانوا يمثلون أغلب سكان تامدلت خلال النصف الثاني من القرن 3هـ/9م، ومع القرن 5هـ/11م شاركت تارغا في تشكيل الجيوش المرابطية عند خروجها من الصحراء وغزوها لسجلماسة، وصار دورها أكبر عندما شاركت في ملء الفراغ الذي خلفه انسحاب قبيلة جدالة من الحركة، وتعاظم دورها في التبادل التجاري بين شمال وغرب إفريقيا بعد سيطرة المرابطين على الصحراء والمغرب، وهاجرت مجموعات منها من الشمال إلى الجنوب سعيا وراء الأرباح الكبيرة (التجارة)، وتزايدت أعداد تلك المجموعات، وعرفت عصرها الذهبي أواخر القرن 5هـ/11م بعدما ضعفت لمتونة عقب موت زعيمها أبي بكر بن عمر اللمتوني، وهجرة الكثير من أبنائها إلى المغرب الأقصى استجابة لطلب يوسف بن تاشفين بعد ثورة مسوفة على زعامة لمتونة في الصحراء، فانسابت مجموعة من تارغا إلى الشرق وسيطرت على الصحراء المحاذية لنهر النيجر، وبسطت نفوذها، وأعطت اسمها لكل مجموعة أصبحت خاضعة لها.

امتدت مجالات الملثمين إلى غاية الحواضر المغربية الصحراوية في الوسط والشرق، وإلى جبال السوس غربا، مما يؤكد تأثر الصنهاجيين بالتغيرات الحضارية التي طرأت على بلاد المغرب الإسلامي، وهذا الطرح كما يذكر حسين بوبيدي تؤكده الدراسات الأثرية التي تتبعت مسار انتشار القبور الإسلامية بالسودان الغربي أي أن الإسلام انتشر بين السكان البدو بسبب مساهمتهم في الأنشطة المتعلقة بالتجارة، قبل أن ينتقل على سكان الحواضر دون أن ننسى عامل المصاهرة.

[1]- ولد الحسين الناني، المرجع السابق، ص 99.

[2]- حسين بوبيدي، المرجع السابق، ص 4.

كما فرضت الدول السودانية سلطتها على العديد من القبائل الصحراوية، بعدما مدت رقعتها هناك كما فعلته كوكو منذ القرن 3هـ/9م، وجعل اليعقوبي مملكة صنهاجة من الممالك التي تتبعها ثم غانة بعدها، كما حولت مملكة مالي الكثير من هذه القبائل الصنهاجية التي افترقت كلمتها إلى رعايا يقرون لها بحق الطاعة، ويدفعون لها الخراج، ويخدمون في عسكرها وقت الحاجة، كما فرضت سلطتها على مشيخات نيتسر ومدوسة ولمتونة ونيتغراس في منطقة الآيير، وصار منسى مالي سلطانا عليهم دون أن ينزع عنهم أمر إدارة قبائلهم.

ثم بدأت العلاقات الصنهلجية-السودانية تتشكل من جديد على امتداد القرنين 8-9هـ/14-15م وفق قواعد جديدة من القبول والرضا بتقاسم النفوذ، فالسودانيون استأثروا بالسلطة السياسية التي امتدت من عمق السودان الغربي إلى منطقة الحوضين الشرقي والغربي بالجنوب الشرقي لموريتانيا الحالية، أما الصنهاجيون حافظوا على أدوارهم التقليدية في تجارة القوافل، وهذا الانصهار بين المجموعتين نتج عنه بروز عدة مؤثرات هجينة بالقصور الصحراوية، وتغيرات هامة في الحواضر السودانية، فكانت مسوفة تؤدي دور الرسول الثقافي عبر حركيتها الواسعة على طول المجالات الصحراوية والسودانية.

وعندما أصبح السنغاي مملكة أصبح توارق مقشرن قوة بربرية في الصحراء، فقد سيطروا على سبخات الملح خاصة ملاحة تغازة، لأن نشاطهم التجاري هو أهم أنشطتهم الاقتصادية، فقد مارسوا التجارة مع الكثير من الحواضر المغربية كوارجلان، وغات، وفزان وتوات، وخضعت لهم تنبكت في أحيان كثيرة؛ الأمر الذي نتج عنه ترسيخ الوجود البربري بها، ورغم عداءهم لحكام غاو أحيانا، وتحالفهم مع الفلانيين إلا أنهم لم يتوانوا في الانضمام على جيشهم في أحيان كثيرة، فوقفوا معهم ضد السعديين عندما بدأ الخلاف حول ملاحة تغازة، بينما ولاتة بعدما تراجعت سلطة مملكة مالي في هذه المجالات، أصبحت حاضرة صحراوية طورت شكلا جديدا من السلطة إذ لم تخضع لسلطة السودانيين مع استمرار علاقتها التجارية والثقافية معهم[1].

ثانيا: سكان الصحراء من غير صنهاجة الجنوب:

1- زناتة:

تعتبر من أكبر القبائل البتر، اشتهرت بعدائها التقليدي وحروبها مع صنهاجة خاصة خلال القرن 5هـ/11م، عندما تحالفت كل واحدة منهما مع الأمويين أو الفاطميين. ولم تكن الصحراء بمعزل عما يجري في الشمال،وكان للزناتيين بالصحراء إسهامات خطيرة على المستوى الاقتصادي والسياسي في المدن الصحراوية، فقد حاولوا خلال القرن 5هـ/11م السيطرة بقوة السلاح على عاصمة الملثمين أودغشت لكنهم فشلوا في البداية، ثم تمكنوا بواسطة تحالفهم مع الأمويين من إلحاق الهزيمة بصنهاجة، وتوغلوا في الصحراء في عهد زعيمهم زيري بن عطية الذي تجاوز نفوذه السوس الأقصى. وفي نفس الفترة كان أمويو الأندلس يبذلون جهودا كبيرة لمنع سيطرة الفاطميين على الطرق الغربية المنطلقة من المغرب الأقصى باتجاه غانة، فشجعوا حلفاءهم من الزناتيين على السيطرة عليها، وهذا ما يبرر التغيير الذي طرأ على تركيبة سكان أودغشت الذين كان معظمهم خلال القرن 4هـ/10م من صنهاجة ثم أصبح معظمهم خلال القرن 5هـ11م من زناتة[2].

واستخدم الزناتيون الإباضيون -بعد سقوط تاهرت- مسالك المحور الغربي المنطلق من سجلماسة باتجاه أودغشت خلال القرن 5هـ/11م إلا أنهم لم يسيطروا على مراكز التجارة على طوله، لأن سجلماسة كانت تحت نفوذ مغراوة القوي وهم زناتيون صفريون متحالفين مع الأمويين، وهو ما يفسر استقرار زناتة إفريقية بأودغشت. وقد يكون الوجود الزناتي شمل أيضا

[1]- حسين بوبيدي، المرجع السابق، ص ص 5-6.

[2]- ولد الحسين الناني، المرجع السابق، ص 103.

مراكز تجارية صحراوية أخرى لم تسعفنا المصادر بمعلومات عنها، باستثناء ما ذكره ابن خلدون من أن قبيلة مطغرة الزناتية فرت أمام الفاتحين إلى داخل الصحراء، وزرعت النخيل ببعض واحاتها. ووزنهم السياسي والتجاري كان أكبر من عددهم، لذا نفسر اختفاءهم السريع كمجوعة متميزة خلال النصف الثاني من القرن 5هـ/11م عندما أصبح الانتقام منهم هدفا رئيسيا عند المرابطين، فذابوا في المجتمع الصنهاجي كغيرهم من الأقليات القبلية .

ثالثا: القبائل العربية:

لقد أشار البكري إلى الهنيهن والفامان أحفاد الجيش الأموي المرسل إلى غانة على أنهم أوائل العرب الذين اندمجوا مع العناصر السودانية لكن عددهم كان قليلا، لذا فحضور القبائل العربية في المجالات المحاذية لبلاد السودان سيتأخر لغاية القرن 8هـ/14م، وكان البربر يمثلون الساكنة الوحيدة في هذه المجالات، لكن مع بداية القرن 10هـ/16م سيظهر التغيير الكبير الذي طال الخريطة البشرية نتيجة لتوسعات بني حسان، وتشكيل كونفدرليات قبلية عسكرية جديدة ذات أصول عربية، فقد ذكر فرناندیز (V.Fernandes) وجود أربع مجموعات من العرب في الصحاري الغربية المحاذية لبلاد السودان، تتمثل في المجموعة التي تسكن منطقة لوديا (Lodea) والرحامنة وأولاد أحمر والبرابيش الذين كان احتكاكهم أكثر بالسودانيين عن غيرهم[1].

1- عرب الفتح:

هي المجموعات التي جاءت لفتح بلاد المغرب القديم منذ القرن 1هـ/7م، ويعتبر ابن عبد الحكم أول مؤرخ ذكر لنا الحملات العسكرية الأولى التي قادها عقبة بن نافع في بلاد فزان وكوار سنة 46هـ/666م، وحملته في السوس جنوب المغرب الأقصى حوالي سنة 62 أو 63هـ/682م، وبعدها حملة حفيده عبيد الله حبيب بن أبي عبيدة الفهري سنة 116هـ/734م الذي توغل في الجنوب الغربي للصحراء وبلاد السودان ونجح في حملته هذه كما ذكره ابن عبد الحكم[2]، ثم لدينا حملة حاكم إفريقية عبد الرحمن بن حبيب سنة 130هـ/748م التي حفر فيها مجموعة من الآبار على طريق تامدلت في اتجاه الجنوب، وحملة المشتري بن الأسود التي قادته إلى بلاد أنبية حتى وصل نهر السنغال، وهنا لا نعرف تحديدا إن كانت حملة عبد الرحمن بن حبيب هي التي أسفرت عن تسرب بعض أفراد الجيش الأموي إلى حدود مملكة غانة، فعُرف المقيمون منهم بمدينة سلى باسم "الفامان"، والمقيمين في غانة باسم "الهنيهيين"، أم أنهم قدموا للمنطقة قبل حملة حاكم إفريقية[3]؟

ورغم أن أثر الحملات العسكرية العربية ضعيف في نشر الاسلام أو استغلال خيرات بلاد السودان أو تغيير الخريطة البشرية بالصحراء، فإنها مهدت الطريق أمام العرب للوصول إلى تلك المناطق، وبعد سقوط الدولة الأموية بدأت ملامح إستراتيجية عربية جديدة تتحدد، هدفها الوصول على الصحراء بالطرق السلمية لنشر الإسلام، والمشاركة في المبادلات التجارية، وذلك عندما قام عبد الرحمن بن حبيب بحفر آبار على طول الطريق الرابط بين تامدلت وأودغشت سنة 127هـ/745م، لتسهيل تنقل الدعاة والتجار، وكانت خطوته هذه ناجحة في تحقيق الهدف الذي كانت ترمي إليه، ولعل من بين أهم نتائجها الوجود العربي الواضح والهام في المدن التجارية الصحراوية منذ القرن الثاني الهجري خاصة أودغشت، وازداد بعد تأسيس سجلماسة وتاهرت، فاختلطوا بالسكان أثناء عبورهم للصحراء، واستقرارهم بالمناطق الحضرية الصحراوية، وشمل حتى البوادي ثم تجاوز

[1]- حسين بوبيدي، المرجع السابق، ص 7.

[2]- ابن عبد الحكم، المصدر السابق، ص 94.

[3]- زوليخة بنرمضان، المرجع السابق، ج 1، ص ص 48-49.

الصحراء جنوبا إلى مدن السودان الغربي المحاذية للصحراء من الجنوب، بعد أن احتكوا بالمجموعات السودانية التي استقر بعضها في المدن والمناطق الصحراوية المحاذية لبلادهم[1].

2- البرابيش:

فرض البرابيش سيطرتهم تدريجيا على الصحاري الغربية المحاذية لبلاد السودان الغربي، وأخضعوا قبائل صنهاجة، وشاركوهم تسيير القوافل التجارية في عمق المجالات السودانية إلى غاية مدينة جني، وكان المكون العربي هو الغالب عسكريا ثم ثقافيا عندما نجح البرابيش في تعريب القبائل المنهزمة ودمجها ضمن أسلوب حياتهم، وذكر محمود كعت أول إشارة لوجود البرابيش تحت سلطة السنغاي. ولم تكن العلاقة بين البرابيش والسودان جيدة في بداية الأمر، فقد كانت سمعتهم سيئة بسبب إغارتهم على القبائل والقوافل لذا كان السودانيون يفضلون الاتجار مع الصنهاجيين، لكن سرعان ما تغير الوضع لأن الفائدة التي ستجنيها القبائل العربية من الانخراط في التجارة وحماية القوافل أكبر بكثير مما كانت تجنيه من السلب والإغارة والنهب[2].

3- كنته:

تضاف قبيلة كنته للقبائل العربية انتسابا، فبوصولها إلى المجالات السودانية بقدوم وليها سيدي أحمد البكاي (ت 934هـ/1528م) إلى ولاتة ازداد عددها، وامتدت فروع القبيلة إلى تنبكت وما يليها، وكان لها دور بارز في نشر الطريقة القادرية في منطقتي الصحراء والساحل لعقود طويلة، وإن كانت فاعليتها في التغييرات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية بالمنطقة لم تبرز بوضوح إلا في القرن 12هـ/18م باستثناء ما ينسب إلى جدها بترسيخ الحجاب بين نساء ولاتة[3].

ثالثا: السودانيون: يقصد بهم مجموعة السودانيين التي تعايشت مع الملثمين في الصحراء، وهي امتداد للشعوب السودانية في غرب القارة، ومن بين أهم هذه الشعوب:

أ- **السوننكة:**

يعتبرون من أكثر الشعوب أهمية وحيوية بين شعوب الماندي، فقد هيمنوا على تاريخ المنطقة خلال العصر الوسيط، عرفوا أيضا باسم "السيراكول" (Sérakoulé) التي تعني عند قبائل الولوف "الرجال الحمر". سكنوا في البداية في الصحراء ثم انتقلوا إلى السواحل الغربية للمحيط الأطلسي، وبعدها توغلوا جنوب الصحراء في المناطق الواسعة الممتدة ما بين أعالي نهر السنغال في الغرب وبحيرات النيجر، واعتنقوا الإسلام في وقت مبكر. واستوطنوا المنطقة الساحلية المحاذية للصحراء من الجنوب، وموطنهم الأصلي هو منطقة "وَكدُو" التي انتشر منها إلى المناطق المجاورة، وهم أيضا خليط من شعوب الصحراء والساحل وحوض النيجر، تمازجت وانصهرت مع الوقت بعد أن اجتمعت نواة هذا الشعب الأصلية وهي الكنكارة، وخلال الفترة الممتدة من القرن 2-5هـ (8-11م)، كان السوننكة من أكبر وأقوى العصبيات السودانية في غرب إفريقيا[4].

وكان لهم دور اقتصادي وسياسي خطير في المنطقة، فهم مؤسسو إمبراطورية غانة التي كانت تقع في الحزام الساحلي الملاصق للأطراف الجنوبية للصحراء غير بعيدة عن أودغشت، وكانت العلاقات التجارية والصلات الثقافية بين العاصمتين نشطة مما أدى إلى استقرار التجار الغانيين واليد العاملة الغانية في المراكز التجارية والمدن الرئيسة الصحراوية خاصة مع القرن

[1]- ولد الحسين الناني، المرجع السابق، ص ص 107-108.

[2]- حسين بوبيدي، المرجع السابق، ص 7.

[3]- المرجع نفسه، ص 8.

[4]- ولد الحسين الناني المرجع السابق، ص 114.

5هـ/11م (خاصة كنكارة= الونجارة)، واستقروا بالشمال من أودغشت أواخر القرن 4هـ/10م بعد هجوم غانة على المنطقة واستمر حتى النصف الثاني من القرن 5هـ/11م.

لذا كان وجودهم بالمنطقة وليد ظروف محددة، وكان معظمه مؤقتا كجاليات التجار والحرفيين، أو المجموعات التي استقرت في منطقة متقدمة نسبيا نحو الشمال، لذا استمات الصنهاجيون في قتالهم للكنكارة بعد التفافهم تحت لواء أبي عبد الله بن تفاوت أثناء محاولته لاستعادة أودغشت من سيطرة غانة، ورغم موته استمر المرابطون في شن الغارات والحروب بعد أن نظموا صفوفهم تحت قيادة أبي بكر بن عمر اللمتوني الذي قضى على غانة سنة 1076م، ولكنه لم يطرد الكنكارة من تكانتْ بل أبقى عليهم بعد أن صارت دولتهم جزءا من دولة المرابطين، فتعايشوا مع السكان البدو في المنطقة والذين تزايدت حركتهم وأعدادهم في تلك المنطقة بعد الهجرة الحسانية، فأصبح التعايش بين مجموعتين متباينتين في نمط الحياة (مزارعون/رعاة) أمرا صعبا، فبدأت هجرة الكنكارة نحو الجنوب خاصة بعد قلة تساقط الأمطار.

ب- الفلان (Les peuls):

اختلف المؤرخون حول أصلهم ، ومن المهم معرفة أصول هؤلاء المحاربين الرعاة الذين كان لهم دور مهم في تاريخ المنطقة من السنغال إلى غاية الكاميرون، لذا نجد العديد من النظريات والروايات حول هذه المسألة منها الرواية المحلية والعربية والغربية، إضافة لرواية علماء الأجناس واللغات. ويرى **لويس توكسيبي** بأنه من الأفضل الأخذ بنظريات علماء الأجناس واللسانيات الذين اعتمدوا على العلم لإثبات نظرياتهم من خلال دراسة أنثربولوجية للفولانيين ودراسة لغوية للغاتهم ولهجاتهم، والأقرب إلى الصواب حسب دراسات علماء اللغة والأجناس أن الفلان من أصل حامي كوشي ولغتهم أيضا وبالتالي فهم من أصول إثيوبية. تشكلوا من الشعوب القادمة للمنطقة وهي شعوب رعوية تحولت إلى شعب سوداني بعد أن اتخذت من اللغة السودانية لغة لها، كما أخذت عنهم بعض المظاهر الحضارية وبعض العادات، سكنوا بمنطقة فوتا تور خلال القرن 1-4هـ/7-10م ثم توسع مجالهم مع القرن السادس الهجري بشكل طفيف بعد تحالفهم مع اللمتونيين أثناء حروب الحركة المرابطية..

4- البافور:

هم من أقدم شعوب الصحراء فهم السكان القدماء لمنطقة آدرار بموريتانيا الحالية، وتذكر الروايات المحلية أنهم هم من عمروا مدينة الكلاب آزوكي قبل أن يطردها منهم المرابطون، ويجعلوا من آزوكَي حصنا لهم ثم قاعدة في الصحراء، ذكريات عنهم، أما عن أصولهم فهي محل غموض كبيرا نظرا لتضارب الروايات المحلية الشفوية التي يشوبها الخلط والوضع[1]، فجعلوا من تسمية البافور مدلولا يشيرون من خلاله إلى سكان شمال غرب الصحراء القدماء الذين لا يعرفون عنهم شيئا. وتجمع الروايات على أنهم لم يكونوا زنوجا لأن لون بشرتهم يتأرجح ما بين البياض والحمرة، والإدريسي وابن خلدون قالوا بأنهم سكان قمنورية، وقيل بأنهم يهود هل هم يهود الهجرات التي قدمت خلال الألف سنة الأخيرة قبل الميلاد؟ أم هم بربر تهودوا بضغط تلك الهجرات اليهودية؟ لا يستبعد أن يكون معظم يهود الصحراء (البافور) من السكان المحليين الذين تأثروا بالمهاجرين اليهود، فأخذوا عنهم بالإضافة إلى الديانة تقنيات جديدة كزراعة النخيل والري، وعلى الأغلب هم بربر زناتة المتهودين. انتشروا في البداية بشكل مركز في منطقة آدرار الموريتانية بتُنكاد وآمدرْ وتُوجنين الكبير وغيرها من المناطق، وكانوا مزارعين بالدرجة الأولى، ويزاولون الصيد البري، ويطاردون الوحوش بكلابهم، حفروا الآبار وبلطوها، كثرت قراهم، واتسعت مدنهم.

[1]- أحمد مولود ولد أيده الهلال، المرجع السابق، ص 63-64.

ولكن هذا الوضع تغير مع القرن 4هـ/10م عندما تعرضوا لهجمات متكررة من جيرانهم اللمتونيين والسودان. فأخضعهم اللمتونيون خاصة أبو بكر بن عمر اللمتوني وشتتهم في الصحراء، وهذه الحروب التي شنت ضدهم قبل وأثناء وبعد قيام الحركة المرابطية، وتلك الحروب التي سبقت عودة أبي بكر إلى الصحراء من المغرب، أضعفت البافور وألجأتهم إلى التحصن في الجبال، لكنها لم تقض عليهم أو تخضعهم بشكل نهائي، بل أدت بهم إلى قبول التبعية لملك يهود وادي نون، بعد أن كانت سلطة زعيمهم تشمل مناطق من جنوب المغرب الأقصى. وشتت أبو بكر بن عمر المتوني أثناء عودته يهود وادي نون، وقتل ملكهم، ثم هاجم البافور ففرت فلول جيشهم المنهزم باتجاه الشرق، ودخلت المجابات الكبرى (صحراء وعرة)، وانسابت إلى منطقة الحوض وبقاياهم في "أنمادي"، في حين اتجه آخرون ناحية الغرب، واستقروا على شواطئ المحيط الأطلسي، واستقروا على ضفته الجنوبية، وتكيفوا مع بيئاتهم الجديدة، في حين فرت "إيمراكن" نحو منطقة الساحل امتهنت لأطلسي، وامتهنت صيد الأسماك، وكانت في نكد من العيش وضيق الحال[1].

[1]- ولد الحسين الناني، المرجع السابق، ص 123.

المحور الرابع

دولة المرابطين وامتداداتها في بلاد السودان

المحاضرة السادسة: دولة المرابطين وامتداداتها في بلاد السودان

لقد أخفقت قبائل صنهاجة الجنوب طوال العصر الوسيط في إقامة وحدة سياسية قوية ومستمرة بين قبائلها، رغم الأهمية القصوى لموقعهم الجغرافي الذي منحهم التحكم في التجارة الصحراوية، رغم انتشار الاسلام بينهم خلال القرن 3هـ/9م إلا أن ذلك لم يكن كافيا لقيام تلك الوحدة، ومع قيام الحلف الصنهاجي الثالث والذي ستتأسس معه الدولة المرابطية في صحراء الملثمين خلال النصف الأول من القرن 5هـ/11م، التي تمكنت من بسط نفوذها على كامل الصحراء، وعلى الأجزاء التي احتلتها مملكة غانة، كما سيطرت على أجزاء كثيرة من بلاد الغرب الإسلامي، الأمر الذي مكنها من التحكم في الطرق والمراكز التجارية التي كانت تحت سيطرة الغانيين والزناتيين، ووحدوا المنطقة بأكملها على المذهب المالكي السني[1].

1- الحلف الصنهاجي الأول:

تعتبر مملكة أودغست أول تنظيم سياسي صنهاجي عرفته الصحراء، ووصلتنا عنه معلومات مكتوبة وذات قيمة تاريخية، وكانت أودغسن (غسط كما سماها اليعقوبي) عاصمة لبلاد انبية التي كانت تطلق على تحالف قبائل صنهاجة اللثام، وهي التي تحدث عنها الفيزاري أول مرة[2]. وذكر بعض الباحثين أن "أنبية" لفظها الأصل "أنبيتا" والمقصود بها "الحلف الصنهاجي الأول" (**157-306هـ/774-918م**) الذي كانت عاصمته أودغست، وكان هذا الحلف السياسي بزعامة **يتلوتان بن تلاكاكين** (توفي 222هـ/836م)، الذي كان معاصر لعبد الرحمن الداخل، ويتلوتان هو أول من ملك الصحراء من صنهاجة اللثام[3]، وجه جهوده إلى الجهاد في السودان الغربي، ونجح في الوصول إلى نهر السنغال لأول مرة حتى استعان به ملك مملكة أوغام الوثنية التي تقع شرق مملكة غانة، وتعتبر هذه أول خطوة موحدة لصنهاجة اللثام في حركة الجهاد بالصحراء الكبرى لكنه توفي سنة 222هـ/836م بعد أن حكم 65 سنة أي حكم من 157-222هـ، ثم تعاقب على رئاسة الحلف من بعده حفيده "**يتلوتان الأثير بن فطر**" (222-287هـ) إلى أن توفي سنة 287هـ بعد أن حكم هو أيضا 65سنة، فخلفه ولده "**تميم بن الأثير**" (287-306هـ/900-918م) الذي ثار أشياخ صنهاجة وقتلوه سنة 306هـ/918م.

2- الحلف الصناجي الثاني (340-360هـ/951-971م):

دخلت صنهاجة بعد مقتل تميم بن الأثير مرحلة من الفوضى والاضطرابات السياسية بعد أن انفرط عقدها، واستمر هذا الافتراق لغاية القرن 5هـ/11م حسب ابن أبي الزرع، لكن الحقيقة أن هذه الفوضى حسب الباحث أحمد الشكري لم تدم طويلا، فقد اقتصرت على السنوات الأولى من بداية القرن 4هـ/10م، بدليل فترة حكم الملك الصنهاجي **تين يروتان ابن ويسنو بن نزار** (معه يبدأ الحلف الصنهاجي الثاني 340-360هـ/951-971م)، يعتبر أشهر وأقوى ملوك صنهاجة الجنوب، الذي تمكن من استعادة مدينة أودغشت من يد الغانيين، ودَان له أزيد من عشرين أمير سوداني كانوا يحكمون قبائل سودانية توجد ما بين مجال صنهاجة ومجال مملكة غانة، وأدُّوا له الجزية، فعمل على تأمين أمن المسالك الصحراوية، ونشر الإسلام بين الأفارقة الوثنيين، ودام حكمه حتى سنة 360هـ/971م، حكم بعده أبنائه لكن للأسف لم تحتفظ لنا المصادر بأسماءهم ولا بسنوات حكمهم، سقطت بعدها أودغست في يد الغانيين سنة 380هـ/990م إلى أن فتحها النمرابطون مسنة 446هـ/1045م، ويعتقد هنا أن مملكة غانة حاولت خلال هذه الفترة مد

---

[1]- أحمد الشكري، المرجع السابق، ص 143.

[2]- ولد الحسين الناني، لمرجع السابق، ص ص 186-187.

[3]- أبو الحسن علي بن عبد الله ابن أبي زرع الفاسي، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972م، ص8 120.

نفوذها في مجال صنهاجة خارج أودغست، وقد تكون زناتة ساعدتهم في ذلك لأن الزناتيين سيستقرون بأودغست، وسيعملون ا على ازدهار المدينة تحت حكم الملك الغاني الوثني[1]، وذكر البكري قطع السودان طريق القوافل الرابط بين تامدلت وأودغست، كما أن غانة سيطرت على ملاحة تغازة الواقعة في مجال مسوفة.

3- الحلف الصنهاجي الثالث وتأسيس الدولة المرابطية:

إذا سينفرط عقد الحلف الصنهاجي الثاني مرة أخرى لأسباب لم تفصح عنها المصادر، لتسود الاضطرابات مرة أخرى لغاية العقد الثالث من القرن 5هـ/11م، وستظل الوضعية السياسية لصنهاجية اللثام مضطربة حتى العقد الثالث من القرن 5هـ/11م أين سيتشكل الحلف الصنهاجي الثالث تحت زعامة **الأمير أبي عبد الله محمد بن تيفاوت اللمتوني** المعروف بتارشتا حوالي سنة 424هـ/1033م، والذي سيعلن الجهاد في بلاد السودان الغربي، ووصل إلى موضع يقال له "ونغارة" غربي مدينة "بانكلابين" التي أخذها بنو وارث من قبائل صنهاجة، لكن العملية الجهادية التي قام بها أبو عبد الله تفاوت كانت محدودة زمانا ومكانا، فقد استشهد بعد ثلاث سنوات من تزعمه للحلف سنة 425هـ/1034م، في مكان محاذ لقبيلة بني وارث الصنهاجية حسب ما ذكره البكري، فقد قتله أهل قمنورية عند بنكلابين، ما يعني أنه توفي في الصحراء أو على مشارفها المطلة على بلاد السودان، ومن المؤكد أن أبا عبد الله بن تيفاوت قد وصل إلى الحدود المتاخمة للمملكة غانة الوثنية. وبعد وفاته تولى صهره **الأمير يحي بن إبراهيم الجدالي** أمر صنهاجة من بعده، وهنا تنتقل زعامة قبائل صنهاجة من لمتونة إلى جدالة لأول مرة في تاريخ الحلف الصنهاجي[2].

وفي عام 427هـ/1036م استخلف الأمير يحي بن إبراهيم الجدالي ابنه إبراهيم على رئاسة الحلف الصنهاجي، وقصد بلاد المشرق للحج ما بين سنتي (427-429هـ/1036-1039م)، وفي طريق عودته مر بالقيروان والتقى بشيخ المالكية الفقيه أبي عمران الفاسي الذي وجهه للفقيه واجاج بن زلو اللمطي شيخ رباط نفيس، فوصل الأمير إبراهيم بن يحي الجدالي إلى الرباط سنة430هـ/1039م انتدب له واجاج أحد طلبته لمرافقة الأمير الجدالي لموطنه من أجل تجديد إسلام أهل صنهاجة، فلم يقبل بهذه المهمة إلا الفقيه عبد الله بن ياسين الجزولي ومعه تتأسس الدولة المرابطية.

فانتقل معه إلى الصحراء وكان لتشدد عبد الله بن ياسين الجز ولي أن ثار عليه زعماء صنهاجة ومنهم الفقيه الجوهر بن سكم مع رجلين آخرين فعزلوه، وبسبب هذه الثورة الصنهاجية قرر عبد الله بن ياسين الجز ولي الذهاب إلى السودان الغربي وحمل السكان على الإسلام، ولكن يحي ابن إبراهيم أشار عليه أن يبني رباطا قصد التعبد عند مصب نهر السنغال، وما هي إلا أشهر قليلة حتى التف حول الرباط أناس كثر، ولما أحس عبد الله بن ياسين بالقوة والقدرة على المواجهة خرج مع المرابطين برباطه في نهاية العقد الرابع من القرن (5 هـ -11م) وربما بعد ذلك ببضع سنوات.

وعاود عبد الله بن ياسين الجزولي الرجوع ثانية إلى جنوب المغرب الأقصى وخصوصا إلى مدينة سجلماسة مدركا إمكانياته العسكرية التي قرر على أساسها التقدم لجهاد مملكة غانة الوثنية وبلاد السودان الغربي، وبهذه الخطوة نسجل ميلاد "الحركة

---

[1]- أحمد الشكري، المرجع السابق، ص ص 106-107.

[2]- انتقال زعامة صنهاجة من من لمتونة إلى جدالة يبرره حسين بوبيدي ليس لكون يحي هو صهر تارشنا، لكن بسبب ضعف عصبية لمتونة إثر خسارتها لحاضرتها أودغشت التي سقطت في يد غانة، ومع توسع هذه الأخيرة شمالا، وبروز القوة الزناتية الإباضية في الصحراء، وفقدان مسوفة سيطرتها على ملاحة تغازة، فقدت لمتونة قوتها الاقتصادية، في المقابل كانت جدالة ما تزال مسيطرة على الطريق الساحلي المار بها، لذا أصبحت القوة الأساية في الحلف الصنهاجي. ينظر: حسين بوبيدي، **دولة المرابطين في الصحراء الكبرى (1): الحلف الصنهاجي وقيام الدولة**، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة عبد الحميد مهري، قسنطينة 2، 2021/2020، منصة التعليم عن بعد، ص 4، الرابط الالكتروني:

https://elearning.univ-constantine2.dz/elearning/course/view.php?id=727

المرابطية" التي قادها عبد الله بن ياسين وأهم ما تمخضت عنه هذه الحركة إسلام شعب التكرور والذي كان أول الشعوب السودان الغربي التي اعتنقت الإسلام، خصوصا بعد اعتناق قائدها وارجابي بن رابيس وسيحارب هذا القائد مع ابنه لبى بن رابيس إلى جانب الزعيم – الأمير- يحي بن إبراهيم في حركته الجهادية بالسودان الغربي وحارب معه جنبا إلى جنب.

توفي في هذه المرحلة الأمير يحي بن إبراهيم وواصل عبد الله بن ياسين حركته الجهادية حتى غزى مدينة أودغشت واسترجعها من غانة سنة 446هـ/1054م، وبذلك تم لهم توحيد الصحراء تحت حكمهم، فقد كانت أودغشت دائما محطة صراع بين صنهاجة اللثام وملوك غانة الوثنية نظرا لأهميتها التجارية، لكن هنا انشقت عنهم جدالة في السنة نفسها، وتمكنت من هزيمة الجيش المرابطي المتحالف مع التكرور، وقتل **الأمير يحي بن عمر اللمتوني** سنة 448هـ/1056م، ما جعل المرابطين يقدرون قوة جدالة ولا يعودون للتفكير في ضمها لحلفهم.

هنا آلت الزعامة المرابطية إلى **أبي بكر بن عمر اللمتوني** الذي واصل فتح بلاد السودان حتى وصل إلى مناجم الذهب، وذكر ابن أبي الزرع ما وصل إليه أبو بكر من سلطان بقوله: "استقام له الأمر الصحراء إلى جبل الذهب من بلاد السودان"، وفي عهده قتل عبد الله بن ياسين حين عودته إلى أغمات في إحدى معاركه 451هـ/1059م ثم خليفته **سليمان بن عدو** فاضطربت الأمور حسب البكري ففي سنة 460هـ/1086م كتب "وأمير المرابطين إلى اليوم أبو بكر بن عمر، وأمرهم منتشر غير ملتئم، ومقامهم في الصحراء"، إذ ذكرت المصادر هجوم جدالي على لمتونة، في حين ذكر ابن خلدون أن الخلاف كان بين لمتونة ومسوفة، ولعل هذه الظروف هي التي دفعت بالأمير أبي بكر بن عمر اللمتوني لتحويل الإمارة لابن عمه يوسف بن تاشفين، وقاد هو الجيوش المرابطية في الجنوب وكان هدفه هذه المرة محاربة مملكة غانة الوثنية، أين تمكن من اسقاطها وتوسع على حساب مجالاتها، إلى أن لم بعد استشهد في أحد غزواته (ابن أبي زرع الفاسي استشهد سنة 480هـ/1087م بينما يؤكد ابن عذاري على أنه استشهد سنة 462هـ/1070م) من طرف قبائل الموسي الوثنية،وبعد وبعد وفاته خمدت الحركة المرابطية بالصحراء، ثم عادت من جديد بعد أن تولاها يوسف بن تاشفين الذي كرس جهوده لنشر الإسلام منذ القرن 6هـ/12م، واعتنق حكام إقليم "كانجابا" من قبائل الماندينجو الإسلام.

4- أسباب سقوط مملكة غانة:

لم تصل أبحاث المؤرخين بعد إلى معرفة الأسباب الحقيقية لضعف مملكة غانة وانهيارها سوى الفتح المرابطي سنة 469هـ/1076م وهجوم قبائل صوصو، والعامل الطبيعي الذي حدده الهادي المبروك الدالي في الجفاف الذي حل بالبلاد الواقعة شمال حوض السنغال بداية من القرن 5هـ/11م، مما حمل الناس على الهجرة إلى مواطن أخرى[1]، لكن السببان البارزان اللذان أثرا بشكل مباشر على انهيار مملكة غانة وحظيا باهتمام ودراسة المؤرخين دون غيرهم من العوامل الأخرى، هما هجوم قبائل الصوصو[2] والفتح المرابطي.

الفتح المرابطي لمملكة غانة:

الأمير أبو بكر بن عمر اللمتوني أول من وجه جهاده نحو مملكة غانة، ولم يكن ملوك غانة على علاقة طيبة مع جيرانهم الملثمين، فقد حاول كل منهما الاعتداء على الأخرى فاستولى الملثمون على أودغشت وهي ثاني أهم مدينة بعد العاصمة غزاها عبد الله

[1]- الهادي مبروك الدالي، المرجع السابق، ص 42.

[2]- كان لانسحاب المرابطين من المملكة أن خلت الساحة لقبائل صوصو، هذه القبائل التي سكنت مملكة غانة غرب الحوض الأدنى للنيجر، فأعلنت استقلالها وانفصالها عن مملكة غانة، وفي سنة 600هـ/1203م تمكن زعيم قبائل صوصو سومن كورو كانتيه أو سومانجورو (Souman Kourou kant) من الاستيلاء على عاصمة غانة وأصبحت تابعة. كما هاجمت قبائل صوصو إقليم ديارا المجاور لهم وهو جزء من مملكة غانة، ولم يصادفوا أية رد فعل قوية من ملوك غانة، وفر فريق من سكان المسلمين إثر هذا الهجوم بقيادة زعيم يسمى الشيخ إسماعيل إلى مدينة ولاته إلى الشمال وأنشأ مركزا تجاريا، وفي سنة 1240م سقطت العاصمة كومبي صالح نهائيا في أيدي حكام قبائل صوصو، فاندفعت القبائل صوب الجنوب للهروب من صوصو وهجوماتهم.

بن ياسين سنة 446هـ/1054م وانتصر فيها، وكون في نفس المكان رباطا آخر سنة 448هـ/1056م. وبعد دخول المرابطين إليها وسيطرتهم عليها ظهر الضعف الاقتصادي على مملكة غانة، وبفقدانها لهذا المركز التجاري المهم فقدت السيطرة على الطرق التجارية المؤدية إلى مناج8م الذهب لذا أصيبت بنيتها الاقتصادية بالضعف، ومحلت ولاتة محلها كمركز تجاري، وهذا التطور في المراكز التجارية الإسلامية هو نتيجة حتمية لاتساع رقعة الإسلام وتوغله نحو الجنوب.

ولما وجه الأمير أبو بكر حملته لمملكة غانة الوثنية كان هدفه الرئيسي تكريس جهوده لإخضاع المملكة للمرابطين، ليسيطروا على مناجم الذهب التي سيطرت عليها مملكة غانة قبلهم، ومن المؤسف أن المصادر التاريخية لزمت الصمت اتجاه حملة الأمير أبي بكر التي صادفها سقوط مملكة غانة، كما أنها لم تذكر أي تفاصيل أخرى عن جهاده خلال فترة أربعة عشر سنة والتي انتهت بسقوط المملكة غانة، وترجع عصمت عبد اللطيف دندش إلى صمت المصادر والمراجع بقولها: "لقد أغفلت تماما جهاد هذا الأمير في السودان ولم تذكر وفاته، بيد أن أحداث المغرب ومن بعدها جهاد المرابطين في الأندلس طغت على أحداث الجنوب، فشغلوا بتدوين في الأندلس لأنها كانت على ما يبدو وأكثر أهمية في نظرهم فعنوا بذكر تفاصيلها وغفلوا عن أحداث السودان"[1].

ولم يستطع المرابطون القضاء على أقاليمها، وبدأ الضعف يدب إليها بعد ضربة المرابطين القضاء نهائيا على مملكة غانة التي حالت دون وصولهم إلى الجنوب، غير أن سيطرة غانة على أقاليمها بدأ تضعف بعد ضربة المرابطين حيث يقول ابن خلدون أن أهل غانة ضعف ملكهم وتلاشى أمرهم واستفحل أمر الملثمين المجاورين لهم من جانب الشمال مما يلي البربر وعبر إلى السودان، واستباحوا حماهم وبلاده وحملوا الكثير منهم علا الإسلام. ولم يدم وجود المرابطين بغانة إلا أعواما قليلة لأنهم تنازعوا على الغنائم، فاستطاعت غانة أن تنهض بنفسها وتسترد قوتها حيث يقول عبد الرحمان الماحي: "سرعان ما قامت ثروات ليس ضد الإسلام، وإنما تستهدف تحقيق إدارة غانية"[2]، وجاءت هذه الثورات بعد أن ضعف سلطان المرابطين على غانة بعد استشهاد أبي بكر بن عمر اللمتوني ولكن الإسلام ظل ينتشر في تلك النواحي تدريجيا.

5- مسألة الغزو المرابطي لمملكة غانة:

أثارت هذه المسألة وما زالت حبر الكثير من الباحثين حول دور المرابطين في إسقاط مملكة غانة ما بين مؤيد ومعارض، وذلك بسبب التضارب الذي وجد بين المصادر العربية فهي الوحيدة التي تقدم لنا نصوصا تاريخية في هذا الباب، والكثير من الدراسات العربية متأثرة بالمدرسة الفرنسية التي تؤكد على أن التواجد المرابطي هو غزو للملكة غانة وهو السبب وراء سقوطها من دون أن تشكك في الرواية الفرنسية، باستثناء دراستين تاريخيتين نقضتا هذه النظرية الاستعمارية، وهما دراسة أحمد الشكري ودراسة عز الدين عمر موسى، ومن المعارضين الغربيين لمسألة الغزو نجد كلا من دافيد كونراد وأومفري فيشر اللذان أصدرا سنة 1982م دراسة استنطقا فيها النصوص العربية، وأكدا فيها على وجهة نظرهما في نفي وقوع الغزو المرابطي لغانة، وأتماها بدراسة أخرى في السنة الموالية 1983م تستند على الروايات الشفوية المحلية، والتي خلصا فيها إلى أن عملية التحول إلى الإسلام في مملكة غانة كانت بطريقة سلمية بفضل الفاعلية الحضارية للتجار المسلمين، أما الدور العسكري في التحول فهو سوداني (السلالة الحاكمة) وليس بربري.

واعتمد المؤيدون لمسألة الغزو كالمؤرخة شريل بوركلتر (Sherly L. Burkhalter) في الرد على فيشر وكونراد على استنطاق نفس النصوص التاريخية خاصة نص الزهري (الذي قام بالغزو هو يحي بن أبي بكر بن عمر اللمتوني وليس والده، وأنه انتهى إلى

---

[1]- عصمت دندش عبد اللطيف، **دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا (430-515هـ/1038-1121م)**، بيروت، دار الغرب الإسلامي للنشر والتوزيع، 1988، ص 112.

[2]- عمر عبد الرحمان الماحي، **الدعوة الإسلامية في إفريقيا الواقع والمستقبل**، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، ط1، 1992م، ص 87.

تشكيل سلطة مسوفية حاضرتها غانة) "**وأهل البلاد كانوا يتمسكون فيما سبق بالكفر، إلى عام '496 (وفي نسخ أخرى 469) وذلك عند خروج يحي بن أبي بكر أمير مسوفة، وأسلموا في مدة لمتونة وحسن إسلامهم**" ثم اعتمدت2 على نصي ابن أبي زرع الفاسي "**انصرف (أبو بكر بن عمر) إلى الصحراء فأقام بها مدة يجاهد الكفرة من السودان غلى أن استشهد رحمه الله في بعض غزواته، رمي بسهم فمات رحمه الله، وذلك في شهر شعبان 480 بعد أن استقام له أمر الصحراء إلى جبل الذهب من بلاد السودان**"، ونص ابن خلدون الذين يقول: "**فارتحل أبو بكر للصحراء...ورفع ما كان بينهم من خرق الفتنة، وفتح بابا من جهاد السودان، فاستولى على نحو تسعين مرحلة من بلادهم**" ويضيف في موضع آخر "**...وعبروا على السودان واستباحوا حماهم وبلادهم و اقتضوا منهم الإتاوات والجزى، وحملوا كثيرا منهم على الإسلام فدانوا به**".

لكن نص ابن خلدون الأول هو نقل لما ذكره ابن أبي زرع، والثاني وقع فيه تحوير فلفظ "**عبروا** " قصد به أن هذا الإخضاع كان سهلا، وأخذ الجزية معناه أن من لم يدخل الإسلام دفع الجزية عكس من أسلموا وهو مذهب المرابطين، ونص الزهري يتحدث عن الخروج وليس الغزو، كما هناك لبس بنسبة شخصية لمتونية إلى مسوفة، وغياب أخبار عن دور يحي بن أبي بكر قبل هذه الحملة، أما نص ابن أبي الزرع لم يتحدث بشكل مباشر عن مملكة غانة وإسقاطها، بل عن توسعات على حساب السودانيين، وحتى التوسعات هذه مبالغ فيها فكيف تصل إلى جبال الذهب؟ أما نص ابن خلدون فهو إعادة إخراج لرواية ابن أبي الزرع، ثم واصل فيشر الدفاع عن رأيه وتدعم هذا بدراسة الباحث أحمد الشكري الذي أبرز دور دولافوس (Delafosse) في ترسيخ رأي المدرسة الفرنسية ذات الخلفيات الاستعمارية في مسألة الغزو، كما استدل الرافضون لمسألة الغزو بصمت الإدريسي وهو أعلم الناس ببلاد السودان، وحتى الأثريون اختلفوا في قراءة دلائل ما تم العثور عليه في مدينة كومبي صالح، فثيموتي إنصول (T. Insoll) يرى بأن دراسة فيشر وكونراد قدمت أدلة مقنعة في نفي الغزو، ويرى بأن الواقع الأثري لا يدعم فرضية الغزو، وآثار تدمير في المدينة لعلها ترجع لتجاوز تأثير الإباضية لأن المجتمع الآن صار سنيا. وكان لثيموتي إنصول (T.Insoll) رأي وسط إذ اقترح أن يكون جزء من المسلمين الموجودين بمدينة غانة بما فيهم فرع من العائلة الحاكمة قد تحالف مع المرابطين للإطاحة بالسلطة الوثنية، وتوليهم للسلطة تحت وصاية مرابطية، لذا تحالفوا معهم ضد السلطة الوثنية في غانة[1].

6- التأثير المرابطي على بلاد السودان:

كان لدعوة عبد الله بن ياسين ثم للعمليات العسكرية التي قام بها في الصحراء تأثير كبير على التحولات التي مست السودان الغربي، فكان للمرابطين بالتالي دور كبير في نشر الإسلام ونشر المذهب المالكي بالمنطقة خلال القرن الخامس الهجري (11م)، فأصبحت غانة ملكا ورعية مسلمين خلافا لما هو متواتر في بعض المراجع أن المرابطين نشروا الإسلام عن طريق السيف متناسين أهمية الرباط الذي أنشئه عبد الله بن ياسين الجزولي، والرباط الذي بناه يوسف بن تاشفين في جنوب السنغال، وبفضلها انتشر الإسلام في المنطقة، وبعثت الثقافة الحضارية العربية بغرب إفريقيا، فقد أنفد المرابطون دعاتهم في بلاد السودان الغربي، واستعانت بهم قبائل الفلاني والماندنجو والتكرور لتعليمهم مبادئ الشريعة الإسلامية. ولقد وفق المرابط2ن بين الحركة الجهادية، والدعوة السلمية من خلال ربطاتهم المنتشرة عبر الصحراء ويعود لهم الفضل في نشر المذهب المالكي في السودان الغربي.

[1]- حسين بوبيدي، **دولة المرابطين في الصحراء الكبرى (2): قضية الغزو المرابطي لغانة**، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة عبد الحميد مهري، قسنطينة 2، 2021/2020، منصة التعليم عن بعد، ص ص 2-3، الرابط الالكتروني:

https://elearning.univ-constantine2.dz/elearning/course/view.php?id=727

كما ذكر ابن سعيد المغربي أنه وبفضل توسعات المرابطين في مجالات التكرور فقد تحالفوا مع العائلة الحاكمة في المنطقة، وكل المدن الواقعة على شاطئ النيل (النيجر) من بلاد قد دخلها الإسلام.

سمحت الحركة المرابطية بانسياب القبائل الصنهاجية داخل البلاد السودانية، وبالتالي سيحدث انصهار بين المجموعتين وتغيير اجتماعي، وسيؤثر حتما على الجانب الاقتصادي من حيث تأمين الطرق التجارية الغربية وزيادة في تجارة الذهب، وبالتالي استقرار أكثر للمغاربة بالبلاد السودانية، مما سيساهم في ترسيخ أسلمة المنطقة.

ويمكن القول بأن مجالات النيجر الأعلى والسنغامبيا مازالت تستحضر الرواية الشفوية فيها ذكر أبي بكر بن عمر اللمتوني والشيخ الحضرمي (ت: 489هـ/1096م) الذي رافقه إلى الصحراء، وعلاقته بإسلام الأسر الحاكمة الأولى. كما عمل المرابطون على تعزيز الإسلام أيضا بين القبائل الصنهاجية الموجودة بالمناطق الشرقية، فقد وجهوا حملات لفتح مدينتي تادمكة وسلا فأسلم أهلها الذين كان البعض منهم على الوثنية، وعملوا على مواجهة زناتة البربرية بالمدينة لأجل حملهم على توحيد المرجعية المذهبية.

كما عرف شرق المجال السوداني تغييرات عميقة، فقد تعزز الإسلام من مكانه في مدينتي غاو وغاو ساني، وظهرت فيها المؤثرات المغربية جلية، فشواهد القبور الملكية بمقبرة غاو ساني تظهر سلالة حاكمة جديدة حكمت المدينة التجارية منذ نهاية النصف الثاني من القرن 5هـ/11م، يظهر من خلال شواهد القبور أسماءهم وكناهم العربية بدلالاتها الدينية[1].

ومن الناحية السياسية عمل المرابطون على توحيد المناطق الساحلية والصحراوية لتنصهر في وحدة متماسكة بين الشمال والجنوب من الأندلس إلى بلاد السودان الغربي[2].

ونشر الإسلام من قبل المرابطين لم يقتصر فقط على المجموعات السودانية في المناطق الغربية والوسطى، بل امتد بشكل مباشر إلى القبائل الصنهاجية الموجودة بالمناطق الشرقية، فقد استهدف المرابطون مدينتي تادمكة وسلا وحملوا أهلها على الإسلام وتم لهم ذلك، كما انتشر فيما بعد بين مختلف القبائل الوثنية هناك. أما رؤساء تادمكة منذ عهد ابن حوقل وصفوا بالفقه وحسن السياسة والعلم، وكانت قصبة تادمكة زكرام التي يسكنها الزناتيون مدينة مسلمة إباضية، حملهم المرابطون السنة من أجل على توحيد المرجعية المذهبية[3].

[1]- حسين بوبيدي، **دولة المرابطين في الصحراء الكبرى (1): قضية الغزو المرابطي لغانة**، ص ص 3-4.

[2]- مامادو كان، المرجع السابق، ص 30.

[3]- حسين بوبيدي، المرجع السابق، ص 5.

المحور الخامس

العلاقات السياسية

المحاضرة السابعة: العلاقات السياسية بين بلاد الغرب الإسلامي والسودان الغربي -دراسة نماذج-

1- العلاقات على العهد الرستمي:

لقد ساعد استقرار أتباع المذهب الإباضي على أطراف الصحراء في واحات فزان وجبل نفوسة وغدامس ووارجلان منذ القرن 2هـ/8م في سيطرتهم على تجارة الصحراء[1]، لهذا تعتبر الدولة الرستمية من أول دول المغرب الأوسط التي أقامت علاقات سياسية واقتصادية مع إفريقيا جنوب الصحراء، إذ سيطرت على معظم منافذ الطرق المؤدية إلى بلاد السودان، كما أنها امتلكت العديد من القواعد التجارية الصحراوية[2]، لذا ارتبطت الدولة الرستمية بعلاقات دبلوماسية مع بعض الوحدات السياسية التي قامت في بلاد السودان خاصة مع مملكة كوكو (جاو) وهو ما ذكره مؤرخو الإباضية كالوسياني في عهد الحاكم الثاني عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم (171-208هـ/788-823م).

ظهرت مملكة كوكو كمركز تجاري وقوة سياسية في بلاد السودان، ونمت خلال القرن 3هـ/9م، فحظيت باهتمام الرستميين لذا أقاموا علاقات سياسية وتجارية معها، فقد مكنها نفوذها السياسي من الإشراف على المسلكين التجاريين الشرقي والأوسط، وكانت كوكو معاصرة للدولة الرستمية التي ضمت ضمن حدودها الأجزاء الجنوبية للمغرب الأوسط والأدنى، لذا كانت أكثر دول المغرب الإسلامياحتكاكا ببلاد السودان، نتيجة لموقعها الجغرافي، ولكثرة المسالك والسبل بينهما[3]، وظهرت معالم هذه العلاقة في عهد الإمام افلح بن عبد الوهاب (208-258هـ) الذي أرسل محمد بن عرفة في سفارة إلى ملك كوكو ومعه هدايا وقد أعجب ملك كوكو بهذا السفير ومدحه[4].

وتفكير أفلح في السفر كان قبل وفاة أبيه عام208هـ/823م، ومن المحتمل أن تكون هناك وفود رسمية أوفدها الحاكم الرستمى الثاني إلى مدينة كوكو، وهذا ما شجع ابنه أفلح على طلب السفر من أبيه على رأس وفد من الدولة، لذلك يعتقد أن الصلات الدبلوماسية ترجع إلى الربع الأخير من القرن 2هـ/8م؛ لأن تفكير أفلح بن عبد الوهاب في السفر إلى تلك البلاد بالرغم من أهوال الرحلة ومخاطرها، يؤكد على قوة العلاقة بين الطرفين وأهميتها للطرف الرستمي. وقد تكون الأهمية سياسية هدفها تنمية العلاقة بين مدينة كوكو و غيرها من مدن السودان الغربى، أو اقتصادية بالحصول على تسهيلات للقوافل التجارية الإباضية المتجهة إلى تلك البلاد، بالإضافة إلي الحصول علي الذهب الذي يعد السلعة الأهم بين السلع السودانية، أو دينية بأخذ موافقة حكام المدن السودانية ليعمل دعاة المذهب الإباضى على نشر الإسلام وتعاليم المذهب، وربما صرف الإمام عبد الوهاب ابنه أفلح عن السفر إلى مدينة كوكو خوفا عليه من تبعات السفر إلى تلك المدينة في ذلك الوقت، إذ علمنا أنه كان يعد ابنه للحكم.

تاريخ السفارة الرستمية إلى مملكة كوكو:

حين تولى الإمام أفلح بن عبد الوهاب الحكم (208-258هـ/823-871م) سعى إلى دعم العلاقة مع بلاد السودان، فأوفد سفارة رسمية يترأسها محمد بن عرفة الذي تولى مناصب رفيعة، حاملا معه هدية إلى ملك السودان، فسر الملك من الوفد

---

[1]- محمد ناصر، **دورالاباضية في نشرالإسلام بغرب إفريقيا**، سلطنة عمان، مكتبةالضامري، ص 8.

[2]- مسعود خالدي، "العلاقات التجارية بين دول المغرب الأوسط وممالك السودان الغربي في العصر الوسيط"، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، مجلد 6، عدد 3، ديسمبر 2020، ص 44.

[3]- علاوي عبد السلام ويمينة بن صغير حضري، علاوي عبد السلام ويمينة بن صغير حضري، "دور العلاقات السياسية للدولة الرستمية مع مملكة كوكو في تنشيط الحركة التجارية: سفارة محمد بن عرفة أنموذجا"، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، المجلد 14، العدد 3، 201، ص 402 ، 406.

[4]- ابن الصغير، المصدر السابق، ص31.

وهيئته وهديته، ولقد أورد ابن الصغير العديد من التفاصيل بشأن هذه السفارة[1]، لكنه لم يذكر بعض المعلومات كالبلد الذي زاره ابن عرفة مثلا، وهنا نربط بين ما أورده الوسياني من عزم أفلح السفر إلي كوكو في عهد أبيه، وبين ما أورده ابن الصغير من أن أفلح أرسل سفارة برئاسة محمد بن عرفة إلي بلاد السودان، فالوجهة التي حددها الوسياني وهي مدينة كوكو. وتعد سفارة محمد بن عرفة أقدم سفارة معروفة في تاريخ الدبلوماسية بين المغرب الأوسط وأفريقيا جنوب الصحراء، وقد اهتم بها حاكم الدولة الرستمية بنفسه ولذلك أوفد لهذه المهمة شخصية مرموقة في دولته، وكانت السفارة ناجحة مما جعل ملك كوكو يعبر عنها بما أضفاه علي الموفد إليه محمد بن عرفة من عبارات الإعجاب والتقدير.

إذا ليس السهولة ضبط تاريخ هذه السفارة وذلاك اختلاف المؤرخين في الفترة التي حكم فيه أفلح بن عبد الوهاب ، وكذلك لعدم تصريح المصادر باسم الملك الذي وجهت له السفارة، ولو اعتمد على ما ذكره عبد الكريم جودت واعتبار أن تكون هذه الزيارة محصورة ما بين 180 230هـ/797/ 845م، فهي توافق عهد عظمة مملكة غانة، فتلك السفارة إذا وجهت إليها، يعني أن السفارة لم تقصد مملكة كوكو، والمعروف أن مملكة غانة كانت في أوج عظمتها أوج في أواخر القرن 2هـ/8م ثم ضعفت مع بداية القرن 3هـ/9م وانحصر نفوذها عن معظم الممالك التي كانت تحت سيطرتها منها مملكة كوكو التي استقلت عنها، كما أن الإمام أفلح لم يحكم قبل 208هـ/824م، مما يعني أن السفارة قبل هذا التاريخ مستبعدة، ومن هذا المنطلق تكون هذه الزيارة ما بين 208 230هـ/824-845م، ويرجح إبراهيم بحاز أنها كانت بعد القضاء على فتنة خلف بن السمح، واستتباب الأوضاع في الدولة الرستمية[2].

دو افع الإمام أفلح لإنفاذ سفارة سياسية

سعت الدولة الرستمية إلى انتهاج سياسة خارجية قائمة على الارتقاء بالعلاقات مع دول الجوار إلى مستوى أرفع، وأن يكون تمثيلها في أعلى مستوى وذلك عن طريق الوفود والسفارات، ويتضح هذا في محاولة سفر أفلح وهو ابن الإمام والمرشح للإمامة من بعده، فلما تولى زمام الحكم بادر بإرسال شخصية مهمة وهي محمد بن عرفة على رأس السفارة، إن إضفاء الطابع السياسي على هذه السفارة لم يكن غرضه خدمة لتجارة الذهب وحدها، فلو كان هاذا صحيحا لكان بإمكان الإمام أفلح أن يكتفي بما يجلبه التجار من ذهب غانة فقط، وبالتالي يمكن القول أن بروز مملكة كوكو كقوة سياسية رغبت الإمام أفلح في ربط عالقات سياسية معها، وأن يكون للدبلوماسية الرستمية حضور أكبر في بلاد السودان الغربي، إذا هذه الزيار ة جاءت في إطار توسيع دائرة النشاط الدبلوماسي الرستمي في المنطقة، فهو الذي سبق غيره من الائمة بإرسال سفارة رسمية إلى بلاد السودان الغربي، وهذا دليل على رغبته في السيطرة على طريق السودان، فعجل بإنفاذ سفارة أحمد بن عرفة لربط علاقات سياسية ودية تخدم مصالح الدولة، فقاد رأى الرستميون في هذه المملكة سوقا لتوزيع بضائعهم وسلعهم، والحصول في المقابل على الذهب والعبيد، فقد كان أفلح يعلم جيدا رواج تجارة الذهب وما تدره من أرباح[3].

2- <u>العلاقات على العهد الزيري</u>:

ارتبطت الدولة الزيرية الصنهاجية (362-543هـ/973-1148م) بعلاقات دبلوماسية مع بلاد السودان، ويشهد علي ذلك وصول هدية من تلك البلاد عام 382هـ/922م في عهد الحاكم الثاني للدولة الزيرية المنصور بن بلكين (373 -385هـ/ 982-994م). وهناك ندرة في المعلومات التي قدمها ابن عذاري عن علاقة بني زيري مع بلاد السودان، فلا نعرف من أي مدينة أو أي بلد من بلاد

[1]- ابن الصغير المالكي، المصدر السابق، ص 71.

[2]- علاوي عبد السلام ويمينة بن صغير حضري، المرجع السابق، ص ص 407-408.

[3]- المرجع نفسه، ص ص 409-410.

السودان وصلت الهدية ؟ ولا متى بدأت العلاقة بين إفريقية وتلك البلاد، فهل بدأت مع قيام الدولة الزيرية عام 362هـ/973م ؟ أما أن الزيريين ورثة الفاطميين في حكم إفريقية وبلاد الزاب ورثوا أيضا العلاقة بين الفاطميين وبلاد السودان خاصة أن الفاطميين ارتبطوا بعلاقة تجارية وثيقة مع السودان؟

بالنسبة للتساؤل الثاني العلاقة ترجع إلي فترة السيطرة الفاطمية علي بلاد المغرب، فقد كان للفاطميين نشاط تجاري مع بلاد السودان عبر الصحراء لضمان الحصول على الذهب السوداني، ويشهد على هذا النشاط الفاطمي التجاري عبر الصحراء نتائج الحفريات الآثارية في مدينة أودغست. واستمرت علاقة بلاد السودان مع إفريقية في العهد الزيري، إذ وصلت هدية أخري سنة 423هـ/1032م في عهد المعز بن باديس (406-454هـ/1016-1062م) ذكرها ابن عذاري بقوله: "هدية جليلة فيها رقيق كثير وأنواع من الحيوان"[1].

3- <u>العلاقات على العهد الحفصي</u>:

ارتبطت إمارة كانم السودانية بعلاقات وثيقة مع الحفصيين الذين كانوا يبسطون نفوذهم على قسم مهم من المغرب الأوسط آنذاك، وتبادل الطرفان السفارات والهدايا من أجل المحافظة على المكاسب التجارية، واتخذت اتجاهها موقف الحياد في أثناء حروبهم الداخلية، ومن المحتمل أن الدولتين دخلتا في حلف؛ لأن الحاكم الكانمي دونمه دبلامي أخمد الثورة التي قام بها أحد أبناء قراقوش على السلطان المستنصر الحفصي فقتل الملك الكانمي الثائر ومن معه عندما التجأ إلى فزان. ومن مظاهر توطد العلاقات بين الدولتين إرسال دونمه دبلامي بسفارة إلى السلطان المستنتصر الحفصي في عام 655 هـ/1257م تحمل هدية عبارة عن زرافة، إذ يقول ابن خلدون: "في سنة خمس وخمسين وستمائة وصلت هدية ملك كانم من ملوك السودان وهو صاحب برنو مواطنه قبلة طرابلس، وكان فيها الزرافة وهو الحيوان الغريب الخلق المنافر الحلي والشيات، فكان لها بتونس مشهد عظيم برز إليها الجفلي من أهل البلد حتى غص بها الفضاء وطال إعجابهم بهذا الحيوان وتباين نعوته وأخذها من كل حيوان بشبه..."، تبين هذه السفارة متانة العلاقات بين الدولتين،وبيعة بلاد السودان الغربى للسلطان الحفصى محمد المستنصر[2].

4- <u>العلاقات على العهد الموحدي (524-668هـ/1130-1269م)</u>:

إن عدم وجود حواجز طبيعية بين المنطقتين ساهم بكل كبير في تطير العلاقات بين المغرب الأقصى وبلاد السودان الغربي، مما ترتب عليه قيام علاقات سياسية وتجارية بينهما بحكم الجوار، وكان الغالب على هذه العلاقات طابع الود، إذ تبادل الطرفان الهدايا والتحف النادرة والطرف العجيبة والحيوانات الغريبة كالزرافة التي أهداها أحد ملوك السودان إلى الخليفة الموحدي أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن (558-580هـ/1162-1184م)[3]، وظلت الهدايا ترد على البلاط الموحدي مع وفود، كما أهدى للخليفة المنصور الموحدي (580-595هـ/118-1198م) حيوانات مدربة منها أسد وغراب، كما أهداه وفد آخر فيلا.

ومرت العلاقات السياسية بين الموحدين ومملكة مالي بفترات صعبة نتيجة انشغال الموحدين في ضبط المناطق الحساسة بعد هزيمة موقعة حصن العقاب بالأندلس 609هـ/1212م، وثورة بني غانية، فشغلها ذلك على رسالتها الروحية تجاه بلاد السودان الغربي. كما عرف الموحدون أيضا زحف القبائل الهلالية على طول الضفة الشمالية للصحراء الموازية لبلاد المغرب،

---

[1]- سيد عبد الله مراد، "<u>الصلات بين بلاد المغرب والسودان الغربي خلال القرن 2-6هـ/8-12م</u>"، الموقع الاكتروني:

https://subject1962.blogspot.com/2016/08/2-6-8-12.html

[2]- ريحاب محمود إبراهيم محمد حسانين، "العلاقات الخارجية للسلطان المستنصر الحفصي (647-675هـ/1249-1277م)"، مجلة الآداب جامعة بور سعيد، مصر، العدد 11، يناير 217م، ص 136.

[3]- فريد المهندس، المرجع السابق، ص 31.

مما قطع الطريق عليهم نحو الصحراء وما وراءها من بلاد السودان، وبالرغم من ذلك عمل الموحدون جاهدين على تأمين الطرق التجارية، ويظهر ذلك من خلال حزم الحكام تجاه قطاع الطرق حتى تظل التجارة مزدهرة بينهم وبين بلاد السودان.

ونظرا للمشاكل التي شغلت الموحدين انشغلوا عن السودان الغربي، فلم يكن لهم مطمع سياسي في غزو المنطقة، أو الحاقها بدولتهم، حتى نية نشر الاسلام أو الجهاد كانت ضعيفة لديهم، لكن بالمقابل رغبوا في تنشيط التجارة ولم يدخروا جهدا في توفير أسباب الأمن كحماية القوافل من هجمات الأعراب، وتجهيز الأسواق على أبواب الصحراء، فكان لازدهار التجارة أثر ثقافي على السودان الغربي، تمثل في انتشار اللغة العربية، كما شارك السودانيون كجند في الجيش الموحدي، فشكلوا فريقا من الحرس الهلافي السوداني، الذي كان يعتمد عليه الخليفة الموحدي لحماية القبة الحمراء قصره المتنقل[1].

5- <u>العلاقات على العهد الزياني</u>:

ارتبط سلاطين بني زيان أيضا بعلاقات ودية مع سلاطين كانم وبرنو وسنغاي ومالي، وتبادلوا معهم الهدايا والرسائل وكانت العلاقات متصلة عبر الطرق الصحراوية، فقد راسلوا ملوك مالي، كما ارتبط هلال القطلاني حاجب أبي تاشفين الأول، بالصداقة مع منسا موسى سلطاني مالي عندما التقى به في موسم الحج. وتوطدت العلاقات أكثر بين الدولتين نذكر نتيجة ما اصطلح عليه بالوكالة التجارية التي أسسها وقتئذ المقري الجد، والتي نظمت أعمال تجارة السودان، وكان مركزها تلمسان للوقوف على تنظيم التجارة المارة مابين سجلماس- تغازي-ولاته، ولتأمين المستلزمات الضرورية للقوافل كالماء، وكانت هذه الوكالة ينظمها خمسة أخوة يقيم اثنان في تلمسان، واثنان في ولاته والخامس في سجلماسة، وإلى جانب أسرة المقري اشتهرت عائلات تلمسانية أخرى بالتجارة مع بلاد السودان، مثل عائلة العقباني وعائلة المرازقة، التي كانت لها علاقات طيبة مع سلاطين الدولة الزيانية وسلاطين المماليك السودانية الذين شجعوها على ممارسة التجارة في بلادهم، إذ أورد ابن بطوطة في رحلته لتلمسانيين منهم الحاج زيان الذي رافقه والتقائه ببعض التجار التلمسانيين منهم الشيخ الرحال عقبة، والشيخ اللبان التلمساني محمد بن الفقيه، وكان هذا الأخير أحد المقربين إلى مجلس السلطان منسا موسى.

وكان للسفارات دور كبير في استحكام الصلات والعلاقات الدبلوماسية بين الطرفين، والتي كانت لها آثار إيجابية على دول المغرب الإسلامي وبلاد السودان الغربي، وبفضله استطاع سلاطين المغرب الإسلامي من توفير الأمن للقوافل التجارية في السير الحسن لها، مما نشط الجانب الاقتصادي الذي أدى إلى تنوع السلع والمبادلات التجارية، ومن جهة أخرى استفاد الطرف السوداني الذي انعكست آثارها عليه خاصة في الجانب الحضاري والثقافي.

6- <u>العلاقات على العهد المريني (668-961هـ/ 1258-1420م)</u>:

ترجع جذور العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان الغربية إلى فترات سحيقة في التاريخ نسبة لقدم الصلات السياسية والاقتصادية بين الجانبين، ويلاحظ بأن ازدهار العلاقات قد بلغ أوجه بين القرنين 7-9هـ/13-14م، تحديدا في عهد السلطان المريني أبو الحسن بن عثمان (732-752هـ/1331-1351م) ونظيره المالي المنسا موسى، وخليفته أخوه المنسا سليمان.

عملت مملكة مالي على توطيد علاقاتها مع جيرانها وخاصة دول المغرب الأقصى، فتبادلت الوفود ورسائل المؤازرة، وتوج ذلك عندما انتصر أبو الحسن المريني على تلمسان وضمها إليه عام 735هـ/1334م[2]، وفي الحقيقة أن المنسا موسى كان أول من اخترق الستار الحديدي للحاجز اللوني الذي كثيرا ما أبعد أهل بلاد السودان الغربي عن العالم المتمدن، وقد بالغ السلطان أبو

[1]- فريد المهندس، المرجع السابق، ص ص 36-40.

[2]- الهادي مبروك الدالي، المرجع السابق، ص 70.

الحسن في استقبال الوفد المالي والاحتفاء به ورد على هذه السفارة بسفارة كبيرة ظهرت فيها أبهة الملك المريني، حيث حملت هذه السفارة هدايا كثيرة إلى السلطان المالي، تضمنت طرفا عظيما من متاع المغرب وماعونه من ذخيرة داره[1]. فشهدت هذه الفترة قيام علاقات قوية بين المغرب ومالي دامت قرابة ثمانين عاما وامتازت بتبادل السفرات وحسن الجوار بين الدولتين، احترمت كل واحدة منهما سيادة الأخرى على أراضيها، وبالسعي الحثيث لتأمين طرق التجارة، وتبادل الهدايا على نحو شجع الكثيرين على السفر وتعرف أبناء القطرين كل منهما على وضعية الآخر ومشاغله وأحواله[2].

بعض السفارات بين المملكتين:

سفارة عام 724 هـ/ 1323 م: أرسل منسا موسى وهو في طريقه لأداء فريضة الحج سنة 724هـ/1323م، رسالة إلى السلطان المريني أبي سعيد عثمان بن يعقوب يخبره فيها بمرور قافلته من الطريق الذي تمر منه قوافل سلاطين المغرب والمحاذي لساحل البحر الأبيض المتوسط، فأصبحت تمبكتو في نهاية القرن 10هـ/16م العاصمة الثانية لدولة سنغاي والمركز العلمي والتجاري الأول فيها.

سفارة عام 737 هـ/1337م: جاءت هذه السفارة بعد الانتصارات التي حققها السلطان أبو الحسن في المغرب الأوسط عندما تمكن من إخضاع دولة بني زيان عام 737 هـ/1337 م، لذلك أوفد منسا موسى سفارة لتقديم التهنئة للسلطان المريني بالنصر الذي حققه على أبي تاشفين، وأراد السلطان موسى أن تكون سفارته معبرة وتوصل كل ما يريد قوله إلى السلطان أبي الحسن، لذا انتدب رجلا من أصل صنهاجي ليكون ترجمانا لها، وحرص منسا موسى على أن يظهر كل معاني حسن الجوار والاحترام للمرينيين، وإظهار البهجة بانتصارهم، كما أن تلك السفارة وذلك الاستقبال الذي حظيت به من قبل أبي الحسن أقنعت منسا موسى بأن السلطان المريني لم تكن لديه رغبة في ضم الأراضي المالية إلى أملاكه.

سفارة عام 741 هـ/1340م: أرسل السلطان أبو الحسن المريني بسفارة إلى المنسا مغا يعزيه فيها في وفاة المنسا موسى، ويعبر أيضا على رغبته لاستمرار العلاقات الودية بينهم، لكنها وصلت في فترة حكم المنسا سليمان.

سفارة عام 748هـ/ 1348م: بعد استيلاء أبي الحسن على تلمسان ثم تونس عام 748 هـ/ 1348م انتهز المنسا سليمان الفرصة وأرسل سفارة يهنئ السلطان أبي الحسن المريني بمناسبة فتحه الجديد، إلا أن تلك السفارة تعرضت للسلب والاعتداء فذهبت السفارة إلى تونس لملاقاة أبي الحسن دون هدايا برعاية أمير الزواودة يعقوب بن علي بعد أن دخلت مدينة بسكرة قبل وصولها إلى تونس، وكان من بين أفراد تلك السفارة الحاج موسى الونجراتي الذي لقيه الرحالة ابن بطوطة خلال وجوده في دولة مالي الإسلامية.

سفارة عام 762هـ/ 1360 م: بعد وفاة المنسا سليمان تولى الحكم منسا ماري جاطة الثاني (762- 776 /- 1360 1374م) والذي أرسل بسفارة محملة بالهدايا إلى السلطان، والتي ذكر ابن خلدون أنها تتمثل في حيوان الزرافة، وتم استقبال هذا الوفد من طرف السلطان المريني أحسن استقبال.

سفارة ابن بطوطة سفارة عام 753هـ/ 1252م:

كانت هذه السفارة مرحلة مهمة في حياة الرحالة ابن بطوطة في عهد السلطان أبي عنان المريني، بدأت المرحلة بخروجه يوم الخميس الثاني من شهر رجب عام 725هـ/1355م[3]، ووصل إلى مالي في 14 لجمادى الأولى 753هـ/1352م، هنا اختلف

---

[1]- عيسى الحريري، **تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني (610-869هـ/1213-1465م)**، الكويت، دار القلم، ط1، 1985م، ص 22.

[2]- محمد الغربي، المرجع السابق، ج1، ص 51.

[3]- حسن الشاهدي، **أدب الرحلة في العصر المارين**ي، ج 1، الرباط، دار عكاظ، 1990م، ص 252

المؤرخون حول الهدف من رحلته هل هي رحلة استكشافية لمعرفة البلادباعتباره موفدا دبلوماسيا من طرف أبي العنان المريني ؟ أما أنها سفارة تجسسية بقصد دراسة الطرق التجارية التي تربط البلدين، ومعرفة حجم تجارة الذهب المتبادلة بين مالي ومصر وتحويل مسارها نحو الدولة المرينية ما أمكن، مما وتر الأجواء بين مالي والمرينيين؟

يرى أبو القاسم الزياني صاحب الترجمانة الكبرى بأنها مجرد رحلة كغيرها من الرحلات، حيث قال أنه سافر بعد وصوله إلى فاس ولم يجتمع بالسلطان أبي نان وتوجه إلى الصحراء ثم السودان، ولما بلغ الخبر السلطان كتب له واستقدمه وعاتبه على عدم الاجتماع به لما قدم من الأندلس إلى فاس[1]، كذلك حسن الشاهدي يرى أن هذه الرحلة لا تختلف عن سابقتها من الرحلات، ولكنها خصصت حيزا هاما للعلماء الذين صادفهم الرحالة في طريقه، فدافعها يتمثل في نزعة ابن بطوطة الاستكشافية، ورغبته في الإطلاع على عوالم وأراضي وبلدان مختلفة[2]. وحتى محمد بن أحمد بن شقرون يرى بأنها مجرد رحلة استكشافية لبلاد السودان الغربي، حيث قال: "وما إن انتهى من رحلته حتى هب أبو عنان وبعث إليه وهو لا يزال في بلاد إفريقية، فقفل راجعا منفذا أوامر ملكه، مطيعا، ممتثلا. فكانت الغاية هي الاهتمام بتدوين الرحلة وتنظيمها كي لا تضيع فائدتها"[3].

أما المؤرخ كراتشوفسكي ذكر بأن رحلته كانت تجسسية، خلقت أجواء مشحونة بالتوتر بين مالي والمرينيين، وأساءت إلى علاقات البلدين، وقال أيضا بأن ابن بطوطة قد رحل إلى مالي بهدف دراسة الطرق التجارية بين البلدين، ومعرفة حجم الذهب المتبادل بين مصر والسودان من أجل تحويلها نحو الدولة المرينية، ودلل على ذلك بقوله أن ابن بطوطة لدى عودته من مالي اتخذ طريقا غير الذي سار عليه في الذهاب[4].

أثر العلاقات السياسية على الدولة المرينية ومملكة مالي:

لعل خير ما يترجم المستوى الرفيع الذي بلغته العلاقات المرينية المالية، إنما يكمن في الحفل الديني الذي صنعه المنسا سليمان بعاصمة ملكه برسم التعزية في فقدان السلطان أبي الحسن المريني، ووافق إقامة الحفل الديني وجود ابن بطوطة بالعاصمة نياني في أحد شهور عام 1353م، فدعاه السلطان المالي لحضور وقائع التعزية، فتأثر ابن بطوطة غاية التأثر بهذه المبادرة، فسجلها ضمن ما سجله عن مملكة مالي المسلمة، والغالب على الظن أن الشاعر الأندلسي أبا إسحاق الساحلي الذي تعرف عليه منسا موسى بمكة أثناء حجته المشهورة عام 1324م، ثم استقدمه معه لمالي في السنة الموالية بغاية الاستفادة من علمه وخبرته الهندسية في العمارة، كان له دور لا يستهان به في توطيد العلاقات بين البلاطين المريني والمالي، ذلك أن الساحلي أثناء إقامته واستقراره بعاصمة مالي، كان يتردد على المغرب، بل إنه دخل يوما على السلطان أبي الحسن المريني، وأنشده قصيدة شعرية، حفزه فيها على ضم تلمسان.

وصاحب العلاقات السياسية الودية انتقال بعض المؤثرات والتنظيمات الإدارية المرينية إلى دولة مالي، ويظهر التأثير المريني ديبلوماسيا على بلاط مملكة مالي واضحا في استخدام السلطان المالي الخط المغربي في رسائله إلى الملوك، واعتماد اللغة العربية كلغة الرسائل السلطانية الرسمية، وفي ذلك يقول القلقشندي أن السلطان لا يكتب شيئا في الغالب بل يوكل كل الأمر

---

[1]- أبو القاسم الزياني، **الترجمانة الكبرى في أخبار المعمورة**، تحقيق عبد الكريم الفيلالي، دار المعرفة، الرباط، المغرب، 1412هـ/1991م، ص 58.

[2]- حسن الشاهدي، المرجع السابق، ص 273.

[3]- محمد بن أحمد بن شقرون، **مظاهر الثقافة المغربية**، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، 1406هـ/1985، ص 75.

[4]- إغناطيوس يوليانو فيس كراتشكوفسكي، **تاريخ الأدب الجغرافي العربي**،ج1، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، جامعة الدولة العربية، القاهرة، مصر، 1963م، ص42.

إلى صاحب وظيفته من هؤلاء فيفصله، وكتاباتهم بالخط العربي على طريقة المغاربة[1]، كما أسهم هؤلاء المغاربة من الفقهاء والعلماء بتطور كبير في رسم السياسة العامة لمملكة مالي الإسلامية، فقد شغل البعض منهم وظائف وخططا دينية كبرى جعلتهم يساهمون بشكل كبير في تنظيم وتطوير الجهاز الإداري والسياسي لملكة مالي الإسلامية، كما كانوا يسعون إلى نشر الأمن بينهم وتسخيرهم لرسم سياسة المملكة، حيث أن التوسع العظيم في تجارة مالي ونشاطها زمن منسى موسى بصفة خاصة يعزى إلى نشاط هذا السلطان وسعيه الدائب في دعم العلاقات الخارجية وتنميتها ويعتبر منسى موسى أول من حطم الستار الحديدي وهو حاجز اللون والتفرقة العنصرية فيما نسميه حديثا حتى وصف هذا السلطان بأنه صديق البيض[2].

من هذه العلاقة الوطيدة بين بلاد السودان الغربية وبلاد المغرب نبعت العلاقات القوية بين الدولة المرينية ودولة مالي في بلاد السودان الغربي، فوصلت هذه العلاقات إلى درجة كبيرة من الازدهار والنمو لم تصل إليها من قبل في العهود السابقة، حيث أعطى انتشار الإسلام في بلاد السودان الغربي وخاصة دولة مالي مركزا ثابتا إزاء الدولة المرينية وتجارتها[3]، ويظهر تأثير المغرب دبلوماسيا حسب قول القلقشندي "يظهر واضحا في استخدام سلطان مالي الخط المغربي في رسائله إلى الملوك واعتماد اللغة العربية كلغة الرسائل السلطانية الرسمية"[4].

[1]- القلقشندي، المصدر السابق، ج 2، ص 298.

[2]- فريد المهندس، المرجع السابق، ص 132.

[3]- عيسى الحريري، المرجع السابق، ص 222.

[4]- القلقشندي، المصدر السابق، ج5، ص 298.

المحور السادس

العلاقات الاقتصادية

المحاضرة الثامنة: العلاقات الاقتصادية بين الغرب الإسلامي والسودان الغربي
-دراسة نماذج-

كان للصلات التجارية بين بلاد المغرب والسودان الغربي خلال العصر الوسيط دور بارز في توسيع شبكة الاتصالات بين المنطقتين، وترجع هذه الصلات إلى ما قبل الفتح الإسلامي لبلاد المغرب، وعلي الرغم من أن طابع وحجم الاتصالات التجارية قبل الإسلام يمثل إشكالية، إلا أن وجود اتصالات متنوعة عبر الصحراء الكبرى هو أمر مثبت من خلال سلسلة من النقوش الصخرية تظهر بها عربات تجرها الخيول، وتتبع هذه النقوش طريقا يبدأ من وادي درعه مرورا بأدرار الموريتانية لينتهي في الدلتا الداخلية لنهر النيجر، كما يوجد طريق آخر تشير إليه النقوش الصخرية يعبر الصحراء الكبرى من جنوب تونس وخليج سرت ويمر بجبال الأهجار ليصل إلي نهر النيجر نحو مدينة جاو التي تعد أقدم حواضر السودان، وعلى هذه المحاور التجارية كان التجار المسلمون الأوائل يتوجهون لعرض تجارتهم في بلاد السودان، وبنهاية تلك الطرق وجدت مراكز السودانية الأولى كغانة، وجاو، وتكرور، ومالي.

والسؤال المطروح: متي بدأت القوافل تعبر الصحراء؟ وبالرجوع إلي أقدم المصادر الجغرافية نجدها ترجع إلي أواخر القرن 3هـ/9م، فأول من كتب في هذا الشأن اليعقوبي يصف طريق القوافل من سجلماسة إلي السودان ويقدر المسافة بخمسين يوما، ثم نجد مؤلفا آخر عاش في بلاط الفاطميين هو المهلبي الذى ألف فيما بين سنتي 366و385هـ/975 و995م كتابا في الجغرافية وقد فقد كتابه، ولحسن الحظ أن ياقوت الحموي نقل عنه فقره تتعلق بمدينة أودغست، يقول: قال المهلبي "أودغست مدينه بين جبلين في قلب البر الجنوبي بينها وبين مدينة سجلماسة، نيف وأربعون مرحلة في رمال ومفاوز علي مياه معروفة، وبها أسواق جليلة، وهي مصر من الأمصار جليل، والسفر إليها متصل من كل بلد، وأهلها مسلمون يقرأون القرآن ويتفقهون، ولهم مساجد وجماعات".

وما يدعم قدم الصلات التجارية بين المنطقتين بعض الإشارات المصدرية التي ترجع إلى أوائل 2هـ/8م،فقد ذكر البكري أن عبد الرحمن بن حبيب والي المغرب (130-138هـ/747-755م) اهتم بطريق القوافل فأمر بحفر ثلاثة آبار على طريق القوافل الذي يربط بين مدينة تامدلت ومدينة أودغست، وهذا يعني أن ما قام به هذا الوالي هو إدخال تحسينات علي طريق القوافل فلا يعني بدايات التبادل التجاري بين المنطقتين، بل يعني أن طريق القوافل كان معروفا قبل تولي هذا الوالي الحكم، وكانت القوافل ترتاده، وكانت تعاني مصاعب قلة المياه، لذلك حفر تلك الآبار الثلاثة لتسهيل تسويق منتجات المغرب في بلاد السودان مقابل استيراد الذهب والرقيق من تلك البلاد، أي أن هذه القرائن تؤكد بأن بدايات التبادل التجاري بين المنطقتين تعود إلي أوائل القرن 2هـ أي قبل أن يكتب اليعقوبي في القرن 3هـ واصفا الطريق بين سجلماسة وبلاد السودان[1].

1- العلاقات على العهد الرستمي:

كانت الدولة الرستمية تسيطر على معظم منافذ الطريق المؤدية الى السودان، كما أنها امتلكت عددا من القواعد الصحراوية التي تقع على الطرق وتعتبر منطلقات للتجارة مع بلاد السودان، نذكر منها:

1- قاعدة وارجلان التجارية التي ترتبط ببلاد السودان ارتباطا وثيقا.
2- قاعدة غدامس وهي تقع الى الجنوب من طريق التجارة الى بلاد الكانم من بلاد السودان.

[1]- سيد عبد الله مراد، المرجع السابق، ص 1.

3- قاعدة سجلماسة التي تعد نقطة انطلاق حقيقة لعدد كبير من القوافل عبر الصحراء الى بلاد السودان, وهي تعتبر مدخلا لغانة.

4- قاعدة زويلة وهي مدينة تمثل اول حد بلاد السودان حيث تخرج القوافل من مدن جبل نفوسة وتتجه جنوبا نحو زويلة, وهو طريق شاق يمر خلال الجبال والصحاري التي لا توجد فيها مياه[1].

ومن بين السلع والمنتجات التي حملتها القوافل الرستمية إلى بلاد السودان، المنسوجات الصوفية والقطنية والكتانية والأواني الزجاجية، والخزف والملح لندرته عندهم فيبيعونه هناك بأسعار مرتفعة للغاية، ويعودون محملين بالذهب والعاج وريش النعام وجلود الحيوانات، وكان أهل وارجلان يقودون هذه القوافل التجارية الى بلاد السودان. وقد ظهرت آثار الاتصال بين التجار الرستميين وأهالي هذه البلاد واضحة في سلوكهم وطرق معيشتهم، فقد حمل هؤلاء التجار هذه الألوان الحضارية، فضلا عن حملهم الإسلام إلى هذه الجهات، فكثيرا ما كان يرافق القوافل التجارية عدد من الفقهاء المسلمين الذين خالطوا أهل البلاد وتركوا فيهم آثار وبصمات بعيدة المدى، كما ترك التجار المسلمون في نفوس الأهالي من الأمانة وحسن المعاشرة اثأرا عظيمة تفوق بكثير الذهب الذي كانوا يحصلون عليه، وعلى العموم فقد كان لهذه الجهود التي بذلها الفقهاء الدور الكبير في تأسيس دولة مالي الإسلامية, التي كان أغلب سكانها من المسلمين، وكتحصيل حاصل فقد انتشرت اللغة العربية بين الكثيرين من سكان البلاد، وهو شيء يصاحب انتشار الإسلام كونها لغة القرآن الكريم.

ولقد ساهم التجار السنيون والتجار الاباضيين في التجارة العابرة للصحراء، وأدي استقرار الاباضية علي أطراف الصحراء في واحات فزان وجبل نفوسة وغدامس ووارجلان منذ القرن الثاني الهجري إلي ارتباطهم القوي بتجارة الصحراء ثم توسعت تجارتهم عبر الصحراء بقيام الدولة الرستمية في تيهرت عام 160هـ/766م، فقد أشرف الحكام الرستميون على التجارة الصحراوية، واهتموا بحفر الآبار للقوافل في الصحراء وإرسال الجنود لتأمين التجار. كما كان للخوارج الصفرية بدور مهم في هذه التجارة، فسجلماسة كانت تتجمع فيها القوافل التجارية القادمة من المشرق بالإضافة إلي أمصار المغرب، فهي مركز تجاري نشط مع بلاد السودان الغربي، تتجمع فيه سلع الشمال مع سلع الجنوب خاصة الذهب والرقيق[2].

وكان للتجار الرستميين يدخلون في مناقشات دينية عقائدية مع السكان المحليين من أجل إدخال الوثنيين للإسلام، وتحتفظ لنا كتب السير بأسماء مجموعة من التجار والفقهاء الذين قاموا بنشر الدعوة الإسلامية ببلاد السودان، أمثال أبو نوح الصغير، وأبو نوح سعيد بن يخلف المزاتي (عاش ما بين 250-300هـ)، وأبة القاسم الفرسطائي من أصحاب القرن الثالث الهجري، والعالم الإباضي أبو صالح الياجراتي من أهل القرن الرابع الهجري. ومن التجار التاجر فلحون بن إسحاق بن واسين الذي زار غانة وبها توفي، والتاجر تملي الوسياني الذي سافر إلى تادمكة واشتغل بالتجارة[3].

إن العلاقات بين الدولة الرستمية وبلاد السودان كانت علاقات تجارية وثقافية ذات طابع سياسي قائمة على المصالح المشتركة بينهما، واستمرت حتى بعد سقوط الرستميين على يد الفاطميين سنة 296هـ/909م, حيث فر العديد من الرستميين وأنصارهم من سكان تيهرت إلى عدة مدن مثل وراجلان وتادمكة وغانة وبلاد التكرور وكانم وأودغست وغيرها من بلاد السودان، أين أسسوا لهم أحياءا كاملة، وأحيانا مدن وقرى نشروا فيها ثقافتهم، ويذكر البكري أن مدينة أودغست كانت تسكنها بطونا من

---

[1]– فراس سليم حياوي ومحمد عبيس حميد، "الدولة الرستمية وعلاقاتها الخارجية (160- 296هـ/ 776– 908م)"، مجلة كلية التربية الأساسية، جامعة بابل، العراق، العدد 10، كانون الثاني 2013، ص 176.

[2]- الإدريسي، المصدر السابق، ص 18.

[3]- مسعود خالدي، المرجع السابق، ص 45.

قبائل هاجرت من المغرب الأوسط والأذى منها نفوسة ولواتة وزناتة[1]. وما يؤكد استمرار العلاقات بين الطرفين أن الثائر أبو يزيد مخلد بن كيداد ضد الدولة الفاطمية سنة 332 هـ/944م، كان قد ولد في مدينة تادمكة، رافق والده في رحلاته من أجل التجارة إلى مدينة جاو، ثم رجع بعدها إلى بلدته قسطيلية (توزر) في جنوب تونس، وبعد فشل هذه الحركة فر العديد من أنصاره الى السودان هربا من اضطهاد الفاطميين حيث عاشوا هناك[2].

2- العلاقات على العهد الفاطمي:

بعدما أسس الفاطميون دولتهم بالمغرب الاسلامي، أعطى حكامها أهمية قصوى للملادلات التجارية عبر الصحراء، نظرا للعوائد المالية المعتبرة التي كانوا يجنونها من وراء التجارة خاصة تجارة الذهب، لذا أبقوا الحكام المدراريين على حكم بلادهم باسم الفاطميين، لأن سجلماسة كانت تعد مركزا هاما للتجارة عبر الصحراء، لذلك سيطر عليها الفاطميون نظرا لأهميتها في التحكم في التجارة الصحراوية وخاصة تجارة الذهب، لذا حاولوا السيطرة على مسالك التجارة الصحراوية رغم المنافسة الشديدة مع أمويي الأندس المؤيدة من القبائل الزناتية، لذا شجع الحكام الفاطميون التجارة مع السودان كالخليفة المنصور الفاطمي[3].

لذلك تصدي الفاطميون للثورات التي اندلعت في مدينة سجلماسة ضد الوجود الفاطمي الشيعي، منذ الاستيلاء علي المدينة عام 297هـ/ 909م حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلي القاهرة عام 362هـ/973م، ويعد العامل الاقتصادي العامل الرئيس لاشتعال تلك الثورات ضد الفاطميين، فقد احتكروا تجارة الصادر والوارد مع بلاد السودان الغربي، لذلك قاد تلك الثورات قدماء المنتفعين بتجارة القوافل الكبرى التي غدت تحت سيطرة الفاطميين، وليس أدل على كبر حجم التجارة بين مدينة سجلماسة ومدينة أودغست في العهد الفاطمي ما ذكره ابن حوقل حين زار أودغست وقال: "لقد رأيت بأودغست صكا فيه ذكر حق لأحد تجار سجلماسة علي رجل من تجار أودغست يدعى محمد بن أبي سعدون باثنين وأربعين ألف دينار، وشهد عليه اثنان من الشهود"[4]. لذا بذل الفاطميون جهودا معتبرة من أجل تنظيم تجارة الذهب عبر الصحراء، وهو ما تؤكده نتائج الحفائر التي تمت في تغدأوست أي أودغست القديمة، فقد عثر علي أوزان زجاجية تعود كلها إلي الفاطميين. وكان تاريخ وصولها إلي تغداوست متفقا مع تاريخ بلوغ مدينة أودغست أوج نشاطها التجاري وذروة نموها الحضري خلال القرن 4هـ/10م اعتما دا على ما كتبه المهلبي في هذا القرن عن المدينة وازدهار نموها الحضري والاقتصادي[5].

3- العلاقات على العهد الموحدي (524-668هـ/1130-1269م):

استمرت العلاقات التجارية بين بلاد المغرب وبلاد السودان الغربى خلال القرن 6هـ/12م مع الموحدين، وكانت حركة التبادل بين المنطقتين نشطة، واستخدمت القوافل التجارية نفس المسالك المستخدمة من قبل، مثلا الطريق الرابط بين سجلماسة وغانة، والذي له الأول يبدأ في جنوب المغرب بمدينة أغمات التى كان ينزل بها أعيان التجار للتجهز منها لاجتياز الصحراء إلى غانة[6]، والثانى فيبدأ من وادى درعة الى بلاد السودان وغانة، ونعثر في كتاب التشوف على ترجمة تبين ارتباط مدينة

---

[1]- البكري, المغرب, ص150-159.

[2]– فراس سليم حياوي ومحمد عبيس حميد، المرجع السابق، ص 178.

[3]- مسعود خالدي، المرجع السابق، ص 49.

[4]- ابن حوقل، المصدر السابق، ص 99.

[5]- سيد عبد الله مراد، المرجع السابق، ص 1.

[6]- المرجع نفسه، ص 1.

فاس وسائر مدن المغرب الأقصى بالتجارة مع بلاد السودان وصاحب الترجمة هو أبو الربيع سليمان بن عبد الرحمن الصنهاجى التلمسانى الذى استقر فى مدينة فاس وبها توفى عام 579 هـ /1179م، والذى أعطى أحد التجار المتجهين إلي بلاد السودان عددا من الأردية ليبيعها له في تلك البلاد ، لكن التاجر توفى هناك، فوصلت تركته إلى مدينة فاس وبها صرة تبر قد كتب عليها للفقيه أبي الربيع(61)، كانت ثمنا للأردية التى يبدو إنة باعها في بلاد السودان.

استمرت العلاقات المغربية السودانية على عهد الموحدين، فعدم وجود حواجز طبيعية يصعب اختراقها، ساهم بشكل كبير في تطوير العلاقات بين الطرفين، مما ترتب عليه قيام علاقات سياسية وتجارية بينهما بحكم الجوار، ويشهد على ذلك الرسالة التي أرسلها والي سجلماسة إلى ملك غانة ينكر عليه فيها احتجازه لعدد من التجار المغاربة، وبشأن تيسير ظروف التجارة ما بين المملكتين، ونصها كما احتفظ به المؤرخ التلمساني أحمد المقري: "نحن نتجاور بالإحسان وإن تخالفنا في الأديان، ونتفق على الس2يرة المرضية، ونتألف على الرفق بالرعية، ومعلوم أن العدل من لوازم الملوك في حكم السياسة الفاضلة، والجور لا تعانيه إلا النفوس الشريرة الجاهلة، فقد بلغنا احتباس مساكين التجار ومنعهم من التصرف فيما هم بصدده، وتردد الجلابة إلى البلد مفيد لسكانها ومعين على التمكن من استيطانها، ولو شئنا لاحتبسنا من في جهتنا من أهل تلك الناحية، لكن لا نتصوب فعله، ولا ينبغي لنا أن ننهي عن خلق ونأتي مثله والسلام". ولعل في هذه العلاقات الطيبة التي جمعت المغرب ببلاد السودان وقتئذ، ما حفز البلاط الموحدي على استقطاب أحد أدباء مملكة كانم الأديب أبي إسحاق إبراهيم بن يعقوب الكانمي، الذي دخل يوما على الخليفة الموحدي يعقوب المنصور، فأنشده مادحا:

أَزَالَ حِجَابَه عنّي وعَيْنِي **** تراه من المَهَابَةِ في حِجَابِ

وقَرَّبَني تَفَضُّلُه ولكن **** بَعُدْتُ مَهَابَةً عند اقْتِرابي

كما تبادل الطرفان الكثير من الهدايا والتحف النادرة والطرف العجيبة والحيوانات الغريبة كالزرافة مثلا، التي أهداها أحد ملوك السودان إلى الخليفة الموحدي أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن (558-580هـ/1162-1184م)، والأسد والغراب والفيل الذين أهدوا للخليفة المنصور الموحدي (580-595هـ/1184-1198م).

ولم يدخروا جهدا في ذلك، فقد عملوا على تأمين الطرق التجارية، وذلك بالضرب بيد من حديد على قطاع الطرق حتى يتيسر للقوافل التجارية الذهاب والإياب دون عقبات، حتى تظل التجارة مزدهرة بين الطرفين، ولم يدخروا جهدا في توفير أسباب الأمن، فتحولت المدن الواقعة على بداية هذه الطرق إلى مراكز تجارية يؤمها التجار، من بينها سجلماسة التي أصبح لتجارها السيطرة الكاملة على أسواق السودان ومتاجره.

4- العلاقات على العهد الحفصي (1228-1574م):

ارتبطت بجاية الحفصية ببلاد السودان عن طريق ثلاث اتجاهات أولا الطرق الشرقي، ثانيا الطريق الغربي وثالثا الطريق الوسطى، وهذه الطرق ارتبطت بالمسالك الصحراوية وتتصل بالمحطات التجارية واقعة بين الصحراء وبلاد المغرب، وقد أمنت شبكة الطرقات داخل بلاد المغرب اتصال الدولة الحفصية بكامل المناطق وربطتها بالطرق الصحراوية، إذ وجدت ثلاثة محاور رئيسية مؤدية إلى أربعة محطات كبرى في مدخل الصحراء، وهي غدامس وورجلان وسجلماسة وأغمات، فكانت هذه المحطات مداخل رئيسية للصحراء.

أ- الطريق الشرقي: تنطلق القافلة من طرابلس الغرب باتجاه جبال نفوسة مرورا بغدامس ثم غات (منطقة واحات فزان) مرورا بمنعطفات نهر النيجر، متوجهة نحو تادمكة نحو جاو ثم أودغست ومنها إلى بلاد السودان الغربي.

ب- **الطريق الغربي:** تنطلق القافلة هنا موانئ سكيكدة أو بجاية مرورا بقسنطينة ثم بسكرة ثم وارجلان من أجل تجارة الذهب، ومن وارجلان يتفرع إلى ثلاثة طرق.

ج- **الطريق الوسطى:** يتوسط الطريقين السابقين ينطلق من تونس أو القيروان مرورا ببلاد الجريد، وصولا إلى غدامس أو وارجلان ليتصل بأحد الطريقين الشرقي أو الغربي كي يكمل طريقه نحو بلاد السودان الغربي[1].

ومن بين أهم المراكز التجارية الحفصية القيروان، طرابلس، قسنطينة، بجاية، وارجلان، غدامس وفزان، أمل المراكز السودانية المالية والسنغائية فيما بعد نذكر تنبكت، ولاته، غاو، أودغشت، جني. وكان من الطبيعي تأثير البيئة الجغرافية في طبيعة السلع المتبادلة مع دولة الكانم، إذ يقول ابن سعيد: "والثياب تحمل له من الحضرة التونسية"، إلى جانب الملح والخيول التي وغيرها من الأسلحة وفي المقابل عرفت تجارة العبيد والذهب رواجا كبيرا بين الدولتين مثلما كان التجار مع جارتها المرينية، واستمرت هذه العلاقات الجيدة طيلة حكم الحفصيين ومن نتائج هذه السفارات نشر الإسلام في المنطقة كما برز تأثر حكام الكانم بجيرانهم الحفصيين في الشمال فقد اتخذ الماي دونمه بن دابال لقب أمير المؤمنين ومنذ ذلك التاريخ أصبح الحكام من بعده يتسمون بهذا اللقب، ومعروف أن هذا اللقب لا يتسمى به إلا الخلفاء ولذا فقد ادعى حكام كانم الخلافة وجعلوا من أنفسهم امتدادا للخلافة الأموية.

وستكون بجاية حلقة هامة في الدورة التجارية مع بلاد السودان، إذا كنت موانئها تصدر العبيد والذهب السوداني والشب وريش النعام الأبض والأسود والعاج والمسك والعنبر الرمادي المستعمل في صياغة الحلي للتجار الأوربيين، مقابل الفلفل والتوابل وجوز الهند والفضة في شكلها المعدني أو النقدي، وهكذا كانت بجاية الحفصية حلقة وصلة مهمة في التجارة مع السودان، وميناء بحريا رئيسيا للتجارة، وكانت كذلك القلعة محطة هامة على طريق الجنوب خلال القرن 6هـ/12م حسب الإدريسي، وستفقد هذه الأهمية قبل مهاية القرن 7هـ/13م، وعدها ابن خلدون ضمن المدن التي تدهورت أو تخربت خلال القرن 8هـ/14م بسبب زوال الدولة المؤسسة لها[2].

5- العلاقات على العهد الزياني:

ارتبط سلاطين بني زيان أيضا بعلاقات ودية مع سلاطين كانم وبرنو وسنغاي ومالي، وتبادلوا معهم الهدايا والرسائل وكانت العلاقات متصلة عبر الطرق الصحراوية، فقد راسلوا ملوك مالي، كما ارتبط هلال القطلاني حاجب أبي تاشفين الأول، بالصداقة مع المنسا موسى عندما التقى به في موسم الحج. وتوطدت العلاقات أكثر بين الدولتين نذكر نتيجة ما اصطلح عليه بالوكالة التجارية التي أسسها وقتئذ المقري الجد، عملت هذه الوكالات التجارية بالتنسيق فيما بينها لتسيير القوافل التجارية إلى بلاد السودان الغربي، وقيامها بالوساطة التجارية بين التجار وموكليهم، والإشراف على عقد الصفقات، وتجهيز البضائع وتعيين قائد القافلة، وكانت أولى الوكالات التجارية التي نظمت التجارة بين المغرب الأوسط وبلاد السودان هي شبكة الخوارج الاباضية خلال العهد الرستمي التي ربطت تيهرت بمملكة غانة، ومن أهم الأسر التلمسانية في العهد الزياني التي أسست مثل هذه الوكالات هي أسرة المقري ذرية عبد الرحمن بن أبي بكر علي[3]، عملت وكالتهم على تنظيم أعمال تجارة السودان، كتب المقري في النفح

---

[1]- عبد القادر بن محجوبة وحمادي بن موسى، "الطرق التجارية والعلاقات الاقتصادية بين تونس والسودان الغربي خلال عهد الدولة الحفصية 1228-1574م"، المجلة التاريخية الجزائرية، جامعة المسيلة، المجلد 5، العدد 1، 2021، ص ص 286-287.

[2]- صالح بعيزيق، **بجاية في العهد الحفصي: دراسة اقتصادية واجتماعية**، تونس، منشورات كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، 2006، ص 151، 169.

[3]- فرد المهندس، المرجع السابق، ص 165.

"فمهدوا طريق الصحراء بحفر الآبار، وتأمين التجار، واتخذوا الطبل للرحيل، وراية تقدم عند المسير..."وكان مركز الوكالة (الشركة) التجارية تلمسان للوقوف على تنظيم التجارة المارة مابين سجلماسة- تغازي-ولاته، ولتأمين المستلزمات الضرورية للقوافل كالماء، ونظم الوكالة خمسة أخوة يقيم اثنان منهما في تلمسان وهما أبو بكر ومحمد، واثنان هما الشقيقان الأصغران عبد الواحد وعلي في ولاته والخامس عبد وهو الأخ الأكبر الرحمن بسجلماسة، ويرى المؤرخ دوفيس (DEVISSE) أن شركة المقري مثلت نموذجا محكما لتنظيم تجارة القوافل، فقد كان لممثلي الشركة روابط طيبة مع الحكام والملوك والوجهاء السودانيين ضمانا لحسن سير تجارتهم، لكنها تضررت حسب رايموند موني (R. MAUNY) إثر وصول الحملات العسكرية لقبائل المانديغ نحو ولاته نهاية القرن 7ه/13م، لكنها استعادت نشاطها وتوازنها في ظل مملكة مالي خلال القرن 8ه/14م، في حين يرى دوفيس أن خضوع ولاته لمملكة مالي مثل ضربة قاضية للمصالح التجارية لأبناء المقري لأن تنصيب فربا الحسين نائبا للسلطان المالي على إيولاتن هو محاولة منه لمراقبة حركة التجارة بإيولاتن[1].

وإلى جانب أسرة المقري اشتهرت عائلات تلمسانية أخرى بالتجارة مع بلاد السودان، مثل عائلة العقباني وعائلة المرازقة التي كانت لها علاقات طيبة مع سلاطين الدولة الزيانية وسلاطين المماليك السودانية الذين شجعوها على ممارسة التجارة في بلادهم، إذ أورد ابن بطوطة في رحلته لتلمسانيين منهم الحاج زيان الذي رافقه والتقائه ببعض التجار التلمسانيين منهم الشيخ الرحال عقبة، والشيخ اللبان التلمساني محمد بن الفقيه، وكان هذا الأخير أحد المقربين إلى مجلس السلطان منسا موسى.

ولقد برزت الحاضرة تلمسان كمركز تجاري مهم في ربط الصحراء وبلاد السودان الغربي والمغرب الأوسط والأندلس ببعضهم البعض نظرا لموقعها الجغرافي المتميز، فأصبحت من أكبر الاسواق نظرا لتوفرها على مختلف السلع الزراعية والحيوانية والصناعية المحلية، بالاضافة لحركة التصدير والاستيراد النشطة التي عرفتها، فكانت ملتقى للتجار وللقوافل التجارية، وكل الطرق التجارية الأوربية تمر عبرها نحو الصحراء وبلاد السودان، ولعل من بين أهم هذه المسالك التجارية طريق تلمسان سجلماسة، ومن سجلماسة تتجه القوافل نحو ولاته ومنا إلى تمبكت فأودغشت أو منطقة الحوض الأوسط لنهر النيجر، خاصة وأن سجلماسة في معظم النصف الثاني من القرن 7ه/13م تبعت سياسيا للزيانيين، واستثمرت تلمسان ميناء هنين في ربط تجا8رتها مع الأوربيين. وبعد تراجع دور سجلماسة في النصف الثاني من القرن 8ه/14م صار إقليم توات ومنطقته الرقية تمنطيط مركز عبور بالغ الأهمية للتجار القادمين من المغرب بالخصوص من تلمسان والمتجهين نحو مالي والعكس، وعمل عرب المعقل على توفير الحماية للقوافل المارة به.

ومن بين أهم السلع التي صدرتها تلمان المنسوجات الوفية الرفيعة، إذ كانت مطلب الملوك والأمراء، وكانت أسرة عبد الله بن النجار من أشهر وأهم الأسر التي اشتغلت بهذه التجارة، فكان التجار يقصدون معاملها من ك مكان، لكن مع \خول التجارة المصرية خاصة النسيجية وبروز الصناعة النسيجية في ماي نفسها حدثت منافسة شديدة وقوية شكلت تهديدا للتجارة النسيجية التلمسانية وكقلصت من حجمها، كما أن التجارة الزيانية على العموم تراجعت مع النصف الثاني من القرن 8ه/14م نظرا للظروف الأمنية التي مرت بها الدولة فمنذ اعتلاء أبي حمو موسى الثاني الحكم سنة 760ه كانت الدولة الزيانية تحت ضغط المرينيين والحفصيين، مما قلص من حجم التجارة الزيانية، وانتهى الأمر بقتل أبي حمو على يد ابنه أبي تاشفين سنة 791ه بدعم مريني، فأصبح تابعا لهم للتحول التبعية بعدها للحفصيين منذ سنة 827ه/1423م[2].

---

[1]- أحمد مولود ولد أيده الهلال، المرجع السابق، ص 213.

[2]- عبد الجليل قربان، "الواقع والآثار في العلاقات التجارية بين تلمسان والسودان الغربي خلال العهد الزياني (633-969ه/1235-1554م)"، مجلة العلوم الاجتماعية والانسانية، جامعة المسيلة، العدد 13، ديسمبر 2017، ص 370، 376، 378.

وقد ساهمت التجارة مع بلاد السودان في إثراء تلمسان والتلمسانيين، إلى الحد الذي أصبح فيه أمراؤها قادرين على منح قروض لغيرهم، وهذا ما يفسر مراسلة الملك أبو تاشفين إلى جاك الثاني ملك أراغون والبروفانس يقول فيها: "إذا قبلتم بشروطنا فسينشر السلام بينكم وبيننا، وإذا كنتم في حاجة إلى الذهب فإننا نقرضكم ما نستطيع"، لأن الإمتيازات التي حصلوا عليها قد ساعدت على تنمية رؤوس أموالهم، فقد ذكر المقري عن شركة أجداده أنهم استثمروا أموالهم في التجارة الصحراوية، "حتى خرجت أموالهم عن الحد وكادت تفوت الحصر والعد"، وكتب الجنوي أنطونيو مالفانتي (Antonio Malfante) أن مضيفه سنة 1447م بـ تامنطيط، كان تاجرا مغربيا غنيا عاش في بلاد السودان لمدة 14 سنة، وصرح له هذا الأخير بأنه جمع ثروة تصل إلى (مائة ألف) دينار، أي حوالي 425 كلغ من الذهب[1].

6- العلاقات على العهد المريني (668-961هـ/ 1258-1420م):

حرص المرنيون على السيطرة على المدن والمراكز التجارية الواقعة بينهم وبين بلاد السودان الغربي خاصة سجلماسة، فتحكموا في أهم الطرق لتجارة الذهب، وقاموا بدور الوسيط بين المصدرين للذهب من مملكة مالي، والمستوردين له من تجار أوربا، لذا عملوا على حماية القوافل التجارية، وتأمين الطرق، والضرب بيد من حديد على أيدي قطاع الطرق واللصوص فحرصت الدولة المرينية على إنشاء تواصل دبلوماسي وتجاري وثقافي، عن طريق تبادل السفارات والهدايا مع حكام مملكة مالي الإسلامية، والتي بلغت أوجها في عهد الحاكمين أبو الحسن بن عثمان المريني (732-752هـ/ 1331-1351م) والحاكم المالي المنسا موسى[2].

المسالك التجارية بين الدولتين:

كانت مالي مركزا تجاريا مهما لتسويق السلع والبضائع والمنتجات القادمة من المغرب المريني عبر الصحراء، فإليها تنتهي رحلة القوافل التجارية الصحراوية ثم يقوم بعدها تجار مالي بترويجها وإيصالها إلى داخل مدن السودان الغربي والأوسط، ومن أعم السلع التي صدرتها الدولة المرينية ملح الصحراء والمنتجات القادمة من حوض البحر الأبيض المتوسط وأوربا من نسيج وأسلحة وخيول وكتب ومصنوعات زجاجية مقابل الذهب والرقيق السوداني.

لهذا ارتبطت الدولة المرينية بمملكة مالي بمجموعة من الطرق التجارية التي كانت تخرج من بلاد المغرب الأقصى نحو مصب نهر السنغال أو من جنوب مراكش نحو مصب نهر السنغال أيضا، ومنحنى نهر النيجر والمناطق الواقعة جنوبا، لذا اتفق حكام الدولتين على تأمين طرق التجارة بينهما، وأصبحت سجلماسة محطة رئيسية لتجميع الذهب وتوزيعه، لذا احتركت الدولة المرينية تصديره، وحرصت على السيطرة على المدن والمراكز التجارية الواقعة بينها وبين السودان الغربي، وقامت بدور الوسيط بين المصدرينللذهب والمستوردين له من تجار أوربا، ولقد وصلت أهمية الذهب السوداني إلى درجة أن نمو وسقوط الدول المغربية كان يتوقف على حجم التجارة العابرة للصحراء إلى المغرب، مما أعطى الدبلوماسية المرينية دافعا قويا للتحرك الخارجي، لذا حرصوا على تبادل السفارات والهدايا مع مملكة مالي الإسلامية، ومن بين المسالك التجارية التي ربطت بين المملكتين نذكر:

أ- الطريق الساحلي: يعتبر من بين أقدم الطرق التجارية استعمالا، ينطلق من درعة نحو نول لمطة في جنوب السوس الأقصى على الساحل الأطلسي للمغرب الأقصى، ليتجه جنوبا نحو مملحة أوليل قرب مصب نهر السنغال في منطقة الترارزة بموريتانيا الحالية، والتي قال عنها بن حوقل "أوليل معدن الملح ببلاد المغرب بينها وبين أودغست شهر، ومن أوليل إلى سجلماسة

[1]- أبو بكر مخلوفي، "العلاقات التجارية لممالك شمال إفريقيا خلال القرن 15م"، ص 1، الموقع الالكتروني:
https://almojaded.com/2020/03/23/13/

[2]- فريد المهندس، المرجع السابق، ص 95.

راجعا إلى الإسلام شهر وكسر، ومن سجلماسة إلى لمطة معدن الدرق اللمطية عشرين يوما، ومن أوليل إلى لمطة خمسة وعشرون يوما ودون لمطة من بلاد المغرب تامدلت وعلى جنوبها أودغست"[1]، ويبلغ طول مسافة هذا الطريق 1.600 كلم كانت القوافل تقطعه بعد مسيرة شهرين[2]، أما بالنسبة لجزيرة أوليل فهي في البحر وعلى مقربة من الساحل وبها الملاحة المشهورة ولا يعلم في بلاد السودان ملاحة غيرها ومنها يحمل الملح إلى جميع بلاد السودان[3].

ومشكلة الطريق الساحلي هي قلة الآبار وندرة المراكز الحضرية على طوله، وإن كانت محاذاته لساحل المحيط الأطلسي قد ساعدت في تلطيف درجات الحرارة في المناطق التي يعبرها، كما أن القوافل التجارية تسير في أرض صلبة عبارة عن صخر يصعب حفره بالمعاول، إلى درجة أنه في حال وفاة شخص ما من التجار أو أفراد القافلة، فإنه لا يدفن بسبب صعوبة حفر القبر، فكانوا يكتفون في هذه الحالة بستره بالحطام والحشائش أو يقذفونه في البحر، وعلى الرغم من قلة المياه وعدم وجود آبار على طول هذا الطريق، وتأثير ملوحة المحيط على المناطق التي يخترقها، فإن البكري يذكر بأن مستخدميه كانوا يحصلون على الماء العذب متتبعين طرقا لم يحددها، يعتقد بأنها كانت بإيحاء من الأدلاء العارفين لأسرار المنطقة[4].

ب- طريق سجلماسة-تغازة–السودان: يبدأ من سجلماسة ليتجه جنوبا نحو مناجم الملح بتغازة، ويعتبر هذا الطريق أهم محور في التجارة الصحراوية، نظرا لقصره ووجود ملاحات تغازة المهمة، ولأنه يؤدي إلى مناجم الذهب في السنغال والنيجر الأعلى، فقد كانت تغازة مركزا تجاريا مهما لتجارة الذهب الذي تتم مبادلته بالملح[5].

ج- طريق فاس-سلجماسة-توات-تنبكت: ينطلق هذا الطريق من فاس باتجاه جلماسة في ثلاث عشرة مرحلة، وتعتبر مدينة فاس محطة رئيسية للقوافل المتجهة نحو الصحراء، وهو من الطرق التي يوجد فيها عدد من الآبار، وقد أوضح الوزان شكل الآبار، بأنها مكسوة بجلود الإبل ومبنية بعظامها، وذكر أن التجار يسافرون على هذا الطريق في فصل الشتاء فقط، نظرا لأن هناك رياح تهب على المنطقة، وتحمل معها الأتربة التي تغطي آبار المياه، وبذلك يموت المسافر في هذا الطريق عطشا، لأنه لا يستطيع أن يهتدي إلى مكان البئر[6].

د- طريق سجلماسة-أودغست: ينطلق هذا الطريق من سجلماسة إلى أودغست مسافة شهرين فتقع منحرفة محاذاة عن السوس الأقصى، ومن أودغست إلى تامدلت مسافة أربعين مرحلة، ومن تامدلت إلى سجلماسة إحدى عشر مرحلة، وبين أودغست ومدينة القيروان مائة مرحلة وعشر مراحل[7].

هـ- طريق واد درعة-الصحراء- بلاد السودان: ينطلق هذا الطريق من المنطقة المحيطة بوادي درعة، ومنه يتجه إلى وادي تارجا (الساقية الحمراء)، ويصل طول مسافة هذا الطريق ما بين أربعين إلى خمسين يوما، وكان هذا الطريق مستغلا عند بداية الفتح العربي الإسلامي لشمال إفريقيا، واستفاد هذا الطريق من مروره بمملحة تغازة، وبالرغم من أهمية الطريق إلا أن مشكلته هي ندرة المياه، فكانت القوافل تسير في المجابة الكبرى مدة ثمانية أيام دون أن تجد قطرة ماء، فلم يوجد على طول

[1]- ابن حوقل، المصدر السابق، ص 91.
[2]- ولد الحسين الناني، المرجع السابق، ص 271.
[3]- البكري، المصدر السابق، ص 17.
[4]- فريد المهندس، المرجع السابق، ص ص 160-161.
[5]- الناني ولد الحسين، المرجع السابق، ص 162.
[6]- فريد المهندس، المرجع السابق، ص 163.
[7]- البكري، المصدر السابق، ص 159.

الطريق من درعة لغاية الصحراء سوى أربع آبار، هي تزامت، بئر الجمالين، نالي وبئر ينتسر، والمسافة من درعة غلى الصحراء عند قرية مدوكن الصنهاجية قدرت بـ 550 كم، ومن هذه القرية يواصل الطريق سيره لغانة[1].

ونظرا لأهمية التجارة الصحراوية نتيجة العائدات المالية الضخمة الناتجة عنها، نرصد تلك العلاقات العدائية بين المرينيين والزيانيين والحفصيين طيلة العصر الوسيط، فلم يكن هذا الصراع والعداء إلا تنافسا حول احتكار المسالك التجارية المؤدية إلى بلاد السودان، وتركز الصراع حول ثلاثة مراكز تجارية : سجلماسة، تلمسان وتونس، لأنها تشكل منافذ مهمة نحو الجنوب.

7- العلاقات الاقتصادية مع الأندلس:

ارتبطت بلاد الأندلس حالها حال بقية دول المغرب الإسلامي بعلاقات تجارية مع بلاد السودان الغربي، وأدت دور الوسيط التجاري مع الدول الأوربية كجنوة والبندقية وفرنسا والممالك المسيحية الاسبانية كأراغون، وذلك بفضل اتصالها بموانئ بلاد المغرب الإسلامي كهنين وتلمسان ووهران، فعملت على تصدير بعض المنتجات السلع السودانية كالعبيد والذهب لتلك الدول الأوربية، وهذا قبل زوال هذه الوساطة باكتشاف الأوربيين للطرق التجارية نهاية القرن 8هـ814م.

ومن بين أهم المنتجات السودانية التي حرصت الأندلس على استيرادها معدن الذهب الذي استعمل في ضرب العملة، إضافة للعبيد وبعض الحيوانات البرية كالزرافات، وخشب الأبنوس الذي استعمله الأندلسيون في بناء المساجد وتسقيف الجوامع، كما استوردت الأندلس أيضا بيض وريش النعام وتوابل غينيا والصمغ والعاج، وفي نفس الوقت صدرت بعضا من هذه السلع السودانية لجنوة وفلورنسا وأراغون بفضل موانئ مالقة وألمرية. في المقابل صدرت الأندلس البقوليات الجافة والحبوب على رأسها القمح، والفواكه والعنب المجفف والخيول والودع، وتبقى المنسوجات الحريرية والثياب المطروة بالذهب والرخام وبعض الأسلحة كالرماح والتراس والسروج والألج والدروع أهم السلع الأندلسية[2].

[1]- الناني ولد الحسين، المرجع السابق، ص 279.

[2]- رشيد يماني، "صور من التواصل الحضاري بين الأندلس وممالك السودان الغربي"، مجلة القرطاس، تلمسان، العدد 3، جانفي 2017، ص ص 26-27.

المحور السابع

العلاقات الثقافية

المحاضرة التاسعة: الصلات الثقافية بين الغرب الإسلامي والسودان الغربي

إن الصلات الثقافية بين دول المغرب الإسلامي والسودان الغربي هي حصيلة عهود من الزمن، منذ بداية الفتوحات الإسلامية، وحمل عناء هذه العلاقات التجار والفقهاء والعلماء ولجاليات المغاربية نحو بلاد السودان الغربي، الذين عملوا على إرساء قواعد الدين الإسلامي في المنطقة، وتشطوا الصلات الثقافية بين المنطقتين، وكان التلاقح العلمي أحد أبرز ميادين التفاعل الحضاري بين المدن السودانية ومدن المغرب الأوسط كتيهرت ومدن الزاب ووارجلان مثلا، بفضل العلماء والفقهاء والدعاة، الذين كان لبعضهم أثر بين في الحياة العلمية بالسودان، فكانت الحواضر السودانية كتنبكت ترتبط ثقافيا بمختلف حواضر العلم والثقافة في الشمال الإفريقي، كحاضرة المغرب الأوسط تلمسان التي كانت "دارا للعلماء والمحدثين وحملة الرأي على مذهب مالك بن أنس..."؛ فابن بطوطة ذكر بأن أحد أبناء ابن شيخ اللبن التاجر التلمساني "من الطلبة؛ يعلم القرآن بمالي"، ويبقى الإمام عبد الكريم المغيلي من بين علماء المغرب الأوسط الأشد تأثيرا في المنطقة، أخذ عنه بتكدة كل من العاقب بن عبد الله، ومحمد بن أحمد التازختي، واعتُمدت بعض كتبه لدى فقهاء السودان، وكان بتنبكت عدد من علماء المغرب الأوسط كأبي القاسم التواتي الذي تولى الإمامة بمسجد تنبكتو، وكان معيار الونشريسي معتمدا فيما يقرأ ويدرس بتنبكتو والسودان إلى جانب بعض مؤلفات المقري، وبلغ من نضج علماء أهل السودان أن علماء تلمسان كانوا "يشاورونهم في المسائل العلمية والقضائية".

1- دور المغاربة في نشر الثقافة الإسلامية بالسودان الغربي:

أ- دور التجار:

كان للتجار المغاربة (عربا وبربرا) دور مهم في الربط ضفتي الصحراء وبلاد السودان الغربي خاصة في فترة ازدهار مملكة مالي الإسلامية، وكما هو معلوم أن الإسلام دخل إلى مملكة غانة عن طريق التجار، وتعامل التجار الحسن لفت انتباه السودانيين، لذا لم يقتصر دور التجار على التجارة فقط فقد قاموا بتعليمهم اللغة العربية، وبنوا المساجد والمدارس وعلموهم القرآن وأصول الفقه[1]، كما نشروا الإسلام بين قبائل الفولان والهاوسا والماندیجو، واستقروا بعض التجار هناك وتصاهروا معهم حيث قال الحسن الوزان أن "حاكم تمبكتو زوج ابنته إلى تاجر من العرب"[2]. وكان للتجار الرستميين أثر في أهالي كوكو على "سلوكهم وملبسهم وطرق معيشتهم". كما بدت على أهل السودان بعض مظاهر التأثر على مستوى الأعياد والمناسبات الدينية، فقد نقل لنا ابن بطوطة أجواء إحياء منسا سليمان لليلة السابع والعشرين من رمضان، وتوزيع الزكاة أثناءها، وإحيائه لشعيرة صلاتي عيد الفطر والأضحى، بما يفيد انتقال التثيرات المغاربية إلى السودانيين والذين زواوجوها بعاداتهم الإفريقية[3].

وبرز دور التجار المغاربة أيضا في عهد مملكة غانة، حيث قدموا إلى مدينة كومبي صالح وبنوا مدينة خاصة بهم على الطراز المغربي، كما بنوا المساجد وأنشئوا المدارس لتعليم القرآن واللغة العربية، وأصبحت اللغة العربية لغة الثقافة في البلاد، بالإضافة إلى كونها لغة التجار المستخدمة في المبادلات، وبهذ نجح العديد من التجار في الوصول إلى مراكز سامية في المملكة، وبفضلهم كانت الطبقة الأرستقراطية أول من اعتنق الإسلام، فأصبحوا دعاة وباشر الحكام نشر الإسلام بأنفسهم[4]، وقال

---

[1]- حسن علي إبراهيم الشيخلي، **تأثير الإسلام وثقافاته في السودان الغربي منذ القرن الحادي عشر الميلادي حتى نهاية القرن السادس عشر**، أطروحة دكتورة، كلية الدراسات العليا والآداب قسم التاريخ والحضارة الإسلامية، جامعة أم درمان الإسلامية، 2009/2008م، ص 222.

[2]- الحسن الوزان، المصدر السابق، ج 2، ص ص 32-37.

[3]- عبد الباسط المستعين، "التلاقح الحضاري بين حواضر المغرب الأوسط والسودان الغربي والأوسط خلال العصر الإسلامي"، مجلة قراءات تاريخية، العدد 30، شوال-ذي الحجة 1437هـ/أكتوبر-ديسمبر 2016م، ص ص 24-25.

[4]- حسن علي إبراهيم الشيخلي، المرجع السابق، ص 226.

القلقشندي في هذا الصدد أول من أسلم من ملوك مالي هو برمندانة الذي حج بعد إسلامه، فاقتدى به من جاء من بعده من الملوك، بالإضافة إلى ماري جاطة (سوندياتا كايتا) الذي كان من أعظم ملوك مالي والذي حج هو، وساكورة، بالإضافة إلى رحلة حج المنسا موسى التي تعتبر من أشهر رحلات الحج في بلاد السودان الغربي[1].

واصطحب التجار معهم الفقهاء والعلماء فتولى هؤلاء تعليم الناس، وكان للثراء الذين تمتع به التجار دور مهم في تحسين صورة الإسلام في غرب إفريقيا فساعد ذلك في بناء منازل جديدة، كما اتصفوا بالكرم والسخاء، فتقرب منهم الفقراء، والتزموا حدود المكاييل والمقاييس والموازين السليمة، ولم يعاقروا الخمر ولم يأتوا منكرا، وهذا ما جذب السودانيين لهم[2].

وهذا يدل على أن الإسلام بدأ في بلاد السودان الغربي مع الطبقة الرفيعة من الملوك ورجال الدولة، بينما كانت طبقات العامة لم تستوعب تعاليمه بعد، مما جعل ملوك مالي يباشرون الدعوة بأنفسهم، وأصبحت المراكز التجارية مراكز للدعوة الإسلامية، فكان التجار يحضرون معهم الأفكار المتحضرة على الحكومة الإسلامية وتعاليمها، ونتيجة لتبادل الأفكار الدينية وانتشار الإسلام نشطت قوافل الحج إلى الأراضي.

ب- دور العلماء والفقهاء:

توافد على بلاد السودان الغربي الكثير من العلماء المغاربة والأندلسيين بفضل ازدهار المراكز الثقافية السودانية التي ذاع صيتها في المغرب والمشرق، كتمبكتو التي أصبحت مقصدا للعلماء، وهو ما ذكره السعدي بقوله "...مأوى العلماء والعابدين ومألف الأولياء والزاهدين"، وحظي العلماء والفقهاء بمكانة رفيعة منذ عهد المرابطين والموحدين، فقد أجلهم الحكام وقربوهم منهم، وكانت لهم مكانة رفيعة حتى صارت أحكام البلاد صادرة منهم[3]، ومن بين العلماء المغاربة الأوائل الذين تركوا بصمة بارزة في بلاد السودان الفقيه عبد الله بن ياسين الجزولي، وذكر البرتلي توافد العلماء خاصة من توات إلى بلاد التكرور الفقيه أبو القاسم التواتي الذي وصل إلى تنبكت مع جماعة من علماء وشرفاء تافيلالت، فسكن بالقرب من المسجد الأعظم، وكان يستقبل الطلاب في داره، وصلى وراءه الأسكيا محمد حاكم مملكة صنغاي وطلب الدعاء، ومن علماء المغرب الأقصى نذكر العالم الفيجيجي إبراهيم بن أحمد الودغيري (ت 958هـ/1551م) الذي عاش ثلاثين سنة في السودان الغربي نشر خلالها الإسلام إلى أن توفي.

ومن أشهر علماء المغرب الأوسط الذين تركوا بصمة واضحة ببلاد السودان الغربي العالم عبد الكريم المغيلي التلمساني الذي "دخل بلدة تكدة واجتمع بسلطانها، وقرأ عليه أهلها وانتفعوا به....واجتمع بسلطان كانو واستفاد عليه...ثم ارتحل إلى بلاد التكرور فوصل إلى بلاد كاغو واجتمع بسلطانها أسكيا الحاج محمد"، كما وجدت الكثير من العائلات التي سكنت بلاد السودان الغربي كعائلة الفيلالي ويأتي على رأسها الإمام الفقيه محمد بن بكر بن أكداد الفيلالي المتوفي سنة 989هـ/1529م الذي ولي الإمامة في الجامع الكبير في تنبكت وجنى وجاو، وهناك عائلات أخرى كعائلة الهواري في جنى، وعائلة الدليمي من مراكش، وبذل هؤلاء من العلماء جهدا في إثراء ثقافة السودانيين بخوضهم هذه الرحلات الشاقة إلى هذه الأوطان البعيدة، وبذلوا الكثير وسجل لهم التاريخ ذلك.

ومن علماء الأندلس النحوي المقرئ أبو الحسن علي بن أحمد الأناري الذي رحل من الأندلس إلى التكرور، وأقرأ أهلها القرآن، فحصل له مال ثم انتقل إلى القاهرة وتوفي سنة 724هـ، كما نجد العالم إبراهيم الخضر الفاسي الذي كان كاتبا في بلاط السلطان سُن علي، والعالم عبد الرحمن التميمي قدم من الحجاز مع المنسا موسى عندما عاد من الحج عام 725هـ/1325م،

---

[1]- القلقشندي، المصدر السابق، ج 5، ص ص 293-29.

[2]- محمد فاضل وعلي كريديه، المرجع السابق، ص ص 39-40.

[3]- حسن علي حسن، **الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين**، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 1980م، ص 44.

وحسب السعدي فإنه سكن تنبكت وأدركه فقهاء السودان، ولما رأى بأنهم فاقوه علما رحل لفاس وتفقه بها، ثم رجع فتوطن تنبكت. والكاتب الشاعر الساحلي إسحاق بن إبراهيم الذي تولى كتابة ديوان السلطان منا موسة وقبره بمدينة تنبكت وغيرهم من العلماء المغاربة[1]، والعالم الأندلسي عثمان بن موسى الجاني، ومن المغاربة والأندلسيين الذين زاروا حواضر القطرين عبد الله المقري (ت 793هـ) ويحي البرغواطي (ت 768هـ) وابن الجزري الكلبي (ت 757هـ)، واهتم السودانيون بشراء المؤلفات الأندلسية كألفية ابن مالك الجبائي الأندلسي، وتحفة الحاكم لابن عاصي الغرناطي والمرشد المعين لابن عاشر الأندلسي في العقيدة، وغيرها من المصنفات الأندلسية النفيسة[2].

فنال العلماء والفقهاء بذلك مكانة مهمة ليس من السودانيين المسلمين فقط بل من جانب الوثنيين أيضا حيث أسسوا المدارس، واعتبروهم معلمين لأبنائهم، وكانت لهم كلمة مسموعة عند سلاطين مالي، فجعلوهم من الطبقات الاجتماعية الراقية، وقام هؤلاء الدعاة بدورهم بالتعريف هؤلاء الملوك بالإسلام[3]، حيث ذكر ابن بطوطة على أنه دعي لأحد المجالس التي تقام عند السلطان حيث استدعى الأمراء والفقهاء والقاضي والخطيب وذلك في عزاء مولانا الحسن وهذا دليل على المكانة التي حظي بها الفقهاء في الدولة المرينية. كما كان لهم دور مهم في نشر الإسلام فمدينة جيني مثلا دخلها الإسلام في القرن 6هـ/12م على يد علماء وفقهاء البلاد، وقد اقتنع سكان البلاد بالإسلام ثم تحولوا لدعاة لهم يرسخون ثقافته بين القبائل الوثنية والتي جعلتها مقبولة من أبناء جنسه، بحيث سهل ذلك الاتصال والمخاطبة، وفي الكثير من الأحيان تزوج هؤلاء الدعاة من أهل البلاد، وقد أسلم ملك مالي على يد أحد الدعاة الذي قدم لتدريس القرآن فقام بتعليمه القرآن والفرائض والسنة[4].

تأثيرات المغاربة على مجال التعليم:

إن اعتناق الإسلام من طرف السودانيين وجعله الدين الرسمي للبلاد فرض عليهم تعلم شرائعه، خاصة الصلاة التي تقام باللغة العربية، مما أنتج ضرورة تعلم اللغة العربية وإتقانها، فقد أصبحت اللغة الرسمية للمراسلات بين ملوك مالي وغيرهم، وذلك ما ذكره القلقشندي كما قال أن بهذه المملكة وزراء وقضاة وكتاب للدواوين، وكانت كتابتهم على الطريقة المغاربية في الخط وإعجام الحروف وترتيبها، وإذ رجعنا إلى كتب الدراسة عندهم فإننا نجد أغلبها نفس الكتب التي تدرس بفاس وتونس والقاهرة مثل الشفا للقاضي عياض والبسيط والتعريف في علم التصوف للمكودي وغيرها من الكتب[5].

لا شك أن مختلف طرائق رسم الخط العربي المنتشرة في الصحراء وإفريقيا الغربية، تجد جذورها من الرسم الموسوم بالخط المغربي. ويبدو أن سبل انتقاله إلى نيجيريا والحوض الأوسط لنهر النيجر، تم انطلاقا من طرابلس الغرب والقيروان، بينما انتقل لبلدان منطقة السنغامبيا من المغرب الأقصى والأندلس مرورا ببلاد شنقيط. ولم يستقر الرسم المغربي بإفريقيا الغربية على حاله، بل خضع واستجاب للحاجيات الروحية والمادية المحلية، فصبغه النساخ هنالك بتحويرات فنية خاصة ومميزة. ويمكن القول أن أهل المنطقة استعملوا الحرف العربي مع التغييرات التي أدخلوها، للتعبير عن ثقافتهم الأم، فعلى سبيل المثال استعانت لغات ولهجات الولوف والفلان والحوس بالحرف العربي قبل وصول الأوروبيين للمنطقة، وقبل إدخال الألفبائية

[1]- مامادو كان، المرجع السابق، ص ص 227-228..

[2]- رشيد يماني، المرجع السابق، ص ص28-29.

[3]- فريد المهندس، المرجع السابق، ص 347.

[4]- حسن علي إبراهيم الشيخلي ، المرجع السابق، ص217.

[5]- فريد المهندس، المرجع السابق، ص 353.

الرومانية إليها، وبذلك توفر لنا أدب إفريقي خالص مكتوب بالحرف العربي يعرف بالأدب الأعجمي، وهو بحاجة شديدة للدراسة العميقة، مثلما الأمر بالنسبة لموضوع انتشار استعمال الحرف العربي بإفريقيا الغربية والتطورات التي شهدها رسمه.

وإلى جانب دراسة السودانيون للمؤلفات المغربية وروايتهم لها بالسند والاعتماد، فقد وضعوا الشروح والحواشي والتعاليق على بعضها أو اختصروها مثل شرح عبد الله بن محمد البوحسني إضاءة اللجنة للمقري، وشرح متن الأجرومية لكل من عبد الله أند عبد الله بن أحمد الولاتي والقاضي أحمد أندغ محمد بالفتوح القومية وغيرها من الشروحات.

وكان للحكام السودانيين دور مهم في تنشيط الحركة العلمية، فقد حرص حكام مالي مثلا على إيفاد الطلبة السودانيين للمراكز الثقافية المغاربية على نفقتهم الخاصة، وبداية من القرن 9هـ/15م أخذت ظاهرة رحلة العلم السودانية تزداد باتجاه المغرب، ومن أبرز هؤلاء نجد الفقيه الإمام القاضي كاتب موسى من العلماء الذين رحلوا إلى فاس لطلب العلم بأمر من السلطان منسا موسى، والرحلة العلمية لعبد الرحمان التميمي الذي رحل لفاس لدراسة الفقه المالكي ثم عاد لتنبكت، وأخذ أبو بكر التواجيوي عن أحمد الحبيب اللمطي السجلماسي، وأخذ الفقيه عبد الرحمان بن جنب بن القاضي عبد الله الشنجيطي العلم عن عدة أشياخ الذين أدركهم في المغرب الأقصى مثل أبي مدين القاضي الأكبر، والفقيه عبد الرحمان كان قاضيا في نياني عاصمة مالي أيام المنسا سليمان، والشيخ عثمان فقيه غانة الذي لقي ابن خلدون في القاهرة عام 799هـ/1397م، ونقل عنه ابن خلدون أخبار غانة[1]، والفقيه محمد آقيت بن عمر بن علي بن يحيى التكروري التنبكتي عرف بالحاج أحمد وهو جد العلامة أحمد بابا التنبكتي، كان يستنسخ كتبه بنفسه وألف في العديد من العلوم، واشتغل القضاء بتمبكتو وعند رحلته للحج التقى بجلال الدين السيوطي وأخذ عنه[2].

كما برزت العديد من الأسر العلمية السودانية كأسرتي آل لاأقيت وآل بغيغ. وأخذ علماء السودان العلم عن علماء مصر فحضروا حلقات العلم والتدريس بجامع الأزهر، عندما كانوا يذهبون للحج ويمرون على مصر[3]. واعتنى الحكام السودانيون أيضا بالمرافق الاجتماعية والدينية كالجوامع والمساجد، والسهر على القائمين بتسييرها، وتمويل إدارتها، فقد كانت أودغست تشتمل على "عدد كبير من المساجد والمدارس" كما ذكره ابن سعيد المغربي، كما استقدموا العلماء المغاربة فقد استقدم المنسى موسى الفقيه عبد الله البلبالي[4] من مدينة فاس، وولاه إمامة جامع بتنبكت، كما عاصره الفقيه أبو العباس الدكالي الذي تولى القضاء في مالي[5].

ج- دور الجاليات المغاربية:

للمغاربة أثر كبير في نشر الدين الإسلامي،وشكلت هجراتهم روابط بين المغرب الإسلامي وبلاد السودان الغربي، مما أدى إلى تأسيس مراكز تجارية وثقافية كولاته وتنبكت، فهاجرت بعض القبائل من الساحل واستقرت بها، كما تمت هجرات أخرى إلى عاصمة مالي نياني، فاستقروا بها متخذين حيا لهم أسموه حي البيظان، وكانوا قريبين من ملك مالي منسى موسى[6]. وكان للهجرات العربية نحو بلاد السودان أثر مهم في نشر الإسلام، وظلت هذه القبائل تتوسع في زحفها خاصة عند المشاكل السياسية مثل

[1]- أحمد الشكري، المرجع السابق، ص 261.

[2]- الهادي مبروك الدالي، مملكة مالي، ص 111.

[3]- أحمد الشكري، المرجع السابق، ص ص 267-268.

[4]- من شرفاء تبلبالت المنتقلين إلى الصحراء وبلاد السودان ابتداء من القرن السادس الهجري.

[5]- سحر عنتر محمدأحمد مرجان، **فقهاء المالكية و آثارهم في مجتمع السودان الغربي**، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ط1، 1432هـ/2011م، ص 118.

[6]- الحسن الوزان، المرجع السابق، ج 2، ص 36.

قبائل كنتة التي هاجرت من توات وولاته صوب بلاد السودان[1]، والمعروف أن سكان تنبكت كانوا خليطا من العرب الوافدين من غدامس وطرابلس والمغرب الأقصى والطوارق فقد تزاوجوا مع السكان الأصليين،ونقلوا معهم ثقافتهم العربية[2].

د- رحلات الحج:

كان الحج من أهم وسائل الاتصال بين مختلف مناطق العالم الإسلامي، وبالنسبة للأفارقة لم يكن الحج وسيلة لأداء فريضة الحج فقط بل كان مناسبة للاتصال بالمنابع الحضارية الاسلامية، فقد كان الحجاج يعلمون كل ما يحدث في المراكز الحضارية الأخرى والأماكن المقدسة وما يدرس فيها من علوم، فقد استقبلوهم بترحيب وكرم الأمر الذي نال إعجابهم وجعلهم يتعلقون بالإسلام أكثر، وعلى أي حال فإن أثر الحج في تطوير العلاقات مثلا بين الدولة المرينية ومملكة مالي كان ذو أثر كبير، فقد أرسل المنسا موسى وهو في طريقه إلى الحج سنة 724هـ/1424م رسالة للسلطان المريني أبي سعيد عثمان بن يعقوب يخبره بمرور قافلته بالطريق الذي تسلكه قوافل سلاطين المغرب. وكانت فريضة الحج بالنسبة لملوك مالي ذات أهمية بالغة فيها تتم لهم فرصة إقامة علاقات ودية وصدقات مع جيرانهم، بالإضافة إلى أنها تعزز مكانة الملك فيلقب بالحاج وهو الأمر الذي يرفع مكانته بين المسلمين، ويضفي عليه شرعية الحكم[3].

هـ- الأثر الثقافي للسفارات:

من بين النتائج الإيجابية للسفارات أن تمكن منسا موسى بفضل جهوده توطيد العلاقات الثقافية بين مملكته والدولة المرينية، فقد شجع رعيته على طلب العلم، وإبداء الاحترام لعلماء الدين وطلبة العلم ، لذلك أرسل البعثات من بلاده إلى فاس على نفقة الدولة، وكان من يحصل على علومه في المغرب يعود إلى بلاده ليعمل في وظائف متقدمة كالقاضي والإمام أو المعلم في مدارس المدن السودانية، إضافة أنه لا يوجد شك في أن نوع التكوين العلمي الذي كانت فاس المرينية تضمنه لطلابها، يعد من أهم الحوافز التي دفعت السودانيون إلى الارتحال إليها، فقد كان الفقه المالكي بكل فروعه يحظى بالأسبقية على باقي المواد الدراسية، لذا لقي انتشارا واسعا وخير دليل على ذلك شراء عدد كبير من الكتب المالكية من طرف المنسا موسى خلال رحلته للحج، ولما كانت للرحلة العلمية مساهمة فعالة أضحت مالي كذلك مركز استقطاب للعلماء، وفي زيارة ابن بطوطة لاحظ وجود وجد الكثير من الأحياء منها حيا خاصا للعلماء، وكان كبيرا فقهاء مالي هما محمد بن الفقيه الجزولي وشمس الدين النقويش المغربي، ولم تكن تلك الأحياء في أقاليم السودان التي كانت تسمى أحياء "البيضان" مقصورة على الجماعات الوافدة من المغرب الأقصى فحسب، بل كانت تشمل المهاجرين القادمين من تونس وتلمسان.

2- الصلات العلمية بين فقهاء السودان وفقهاء مصر والحجاز:

أ- الصلات العلمية مع مصر:

كانت الصلات الثقافية بين هذين البلدين قوية، حيث أصبحت مصر موطن الفكر الإسلامي في الشرق، بفضل موقعها على طريق الحج ووجود الأزهر الشريف بها الذي يعتبر مركزا لدراسة شتى أنواع العلوم، وترجع هذه الصلات العلمية والثقافية مع مصر إلى زمن مملكة مالي، فقد توافد في عهدها طلاب العلم من السودان الغربي إلى مصر ليتزودوا بالعلم والمعرفة على يد مجموعة كبيرة من علمائها الذين ذاع صيتهم في الفقه المالكي، ومع تكاثر هؤلاء الطلاب أسس لهم رواق في الأزهر عرف برواق

[1]- حسن علي إبراهيم الشيخلي، المرجع السابق، ص 238.

[2]- الهادي مبروك الدالي، **مملكة مالي**، ص 93.

[3]- حسن علي إبراهيم الشيخلي، المرجع السابق، ص ص 248-249.

التكاررة[1]، ومن بين الطلاب الوافدين على مصر فاتح بن عثمان التكروري المتوفي عام 690هـ/1293م، الذي قدم من مراكش إلى مصر، أفخذ الفقه على أيدي علمائها ثم جلس ليعلمه في مسجد فتح بمدينة دمياط. كذلك الشيخ محمد بن أحمد بن عثمان بن عبد الله بن سليمان الحراز العز التكروري المتوفي عام 857هـ/1453م، الذي تعلم في مصر أثناء رحلته إلى الحج، واشترى الكثير من الكتب الفقه المالكي من أجل توفيرها لأهل مملكته والاستفادة من الثقافة المصرية[2].

وتعمقت الصلات أكثر في زمن دولة صنغاي، فنجد في مقدمتها الاتصالات مع الإمام عبد الرحمن السيوطي (849-911هـ/1445-1505م) الذي ذاع صيته العلمي بالرغم من عدم زيارته للسودان الغربي، حيث أن كتبه هي التي حصلت ونقلت إلى السودان الغربي، كما أنه التقى بالأسكيا محمد الكبير أثناء وجوده بالقاهرة أثناء قيامه برحلة الحج، فجلس الأسكيا محمد إليه مستفتيا ومتعلما في مجلسه،مما كان له الأثر الكبير في نشر المفاهيم الإسلامية الصحيحة من خلال تلك الفتاوى التي وجهها إليه الأسكيا محمد الكبير. كما أن هناك رسالة من الإمام السيوطي تدل على عمق هذه الصلات، وتدل على مدى حرصه على إقامة العدل وإتباع القواعد الإسلامية الصحيحة عند حكام وأمراء وسلاطين السودان الغربي، سماها "رسالة إلى الملك التكرور"، فترددت أراء السيوطي الفقهية في العديد من مؤلفات وكتب علماء السودان الغربي.

كذلك كانت هناك رسالة أخرى من الفقيه التنبكي عام 1014هـ/1606م موجهة إلى علماء مصر وعنوانها "مسائل إلى علماء مصر"، يسألهم فيها عن أمور استوقفته بلغت واحدا وعشرين مسألة تدور حول مسائل فقهية وتصوف ونحو وأصول، طلب فيها رأيهم فيها ذلك بأدلة من الكتاب والسنة. كما التقى القاضي محمود كعت في رحلته حجه والتي كانت مصاحبة للأسكيا محمد الكبير بعلماء مصر، فجلس في حلقات الأزهر العلمية للتعلم على يد علمائها وخاصة على يد الإمام السيوطي.

ب- الصلات العلمية مع بلاد الحجاز:

كان لرحلات الحج التي قام بها الكثير من أهل السودان الغربي إلى بلاد الحجاز دور هام في دعم الاتصالات العلمية والثقافية بين البلدين، إذ لم يكتف هؤلاء الحجيج بتأدية الشعائر الدينية فقط، وزيارة بيت الله الحرام وزيارة قبر رسول الله ﷺ، بل حضروا حلقات العلم لأخذ العلم على يد فقهاء وعلماء الحجاز وغيرهم، كالفقيه محمد بن عبد الله التكروري الذي كان خطيبا في بلاده حج وجاور المدينة المنورة وظل بها حتى وفاته توفي ودفن هناك عام 742هـ/1341م. كما حرص العلماء السودانيون على أخذ الإجازات العلمية من علماء بلاد الحجاز، كالإجازة التي حصل عليها إبراهيم بن عبد الرحمن التكروري وكانت عام 988هـ/1580م منحت له من طرف الإمام النهروالي[3].

كما كانت للفقيه محمود بن عمر أقيت رحلة إلى الحج سنة 915هـ/1509م، وكذلك الفقيه العاقب الأنصمني الذي وصل إلى الأراضي المقدسة لغرض الحج، والذي تمكن من خلال هذه الرحلة من الاستفادة علميا وذلك من خلال مخالطته ومجالسته للعلماء والفقهاء، وكذلك أبو بكر بن عمر أقيت الذي سار في رحلة الحج ثم عاد إلى تنبكت ثم قرر نقل عائلته والرحيل نهائيا إلى الأراضي المقدسة، وأكمل بقية حياته في المدينة المنورة ودفن في بقيعها سنة 991هـ/1583م، كما حصل الفقيه أحمد بابا التنبكتي على الإجازة من إمام المالكية الإمام يحي بن محمد بن محمد الخطاب (902-995هـ/1496-1578م)، وكانت هذه الإجازة عن طريق المراسلة، مما يدل على عمق الصلات العلمية بين علماء السودان الغربي وعلماء الحجاز، مخالطة العلماء والاستفادة منهم ومنحهم الإجازات العلمية.

---

[1]- عبد القادر زبادية، **مملكة سنغاي في عهد الأسقيين 1493-1591**، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1971، ص 146.

[2]- سحر عنتر أحمد مرجان، المرجع السابق، ص ص 266-267.

[3]- المرجع نفسه، ص 273.

المحور الثامن

الأثر المغربي في بلاد السودان

المحاضرة العاشرة: التأثير المغربي على المجتمع السوداني

1- المجتمع السوداني:

تعتبر المقومات الروحية أي الدعائم الدينية سواء الوثنية أو الإسلامية القاعدة الإيديولوجية للامبراطوريات السودانية، فقد أثرت على الأنظمة السياسية، وحددت مدى التعايش بين الوثنية (الإحيائية) والإسلام في نطاق جغرافي واحد وداخل المجموعة البشرية الواحدة، المعروف أن الوثنية هي الديانة الأم لمعظم السودانيين، وظلت مؤثرة على جميع مناحي الحياة بالرغم من انتشار الإسلام، وطقوسها تختلف من شعب لآخر ومن مجموعة لأخرى، كعبادة الجن أو الأجداد عند شعوب اليوروبا والصنغاي، وصنعوا تماثيل صغيرة وفق طقوس خاصة تجسد آلهتهم، ولهذا يصبح للملك في هذه المجتمعات الوثنية دور يجمع بين وظيفتين دنيوية ودينية، فهو الوسيط بين الأحياء والأسلاف الأموات، واعتبره الشعب شخصية مقدسة حتى بعد انتشار الاسلام بالمنطقة، فقد ذكر ابن بطوطة أن رعية السلطان منسا موسى كانوا يؤدون القسم باسمه رغم إسلامهم، ولم يغير إسلام ملوك السودان شيئا من عادة تقديسهم، الذي تغير هو قطب الاهتمام فبدلا من أن يتوجه الأمراء إلى السحرة التقليديين الوسطاء في علاقة الملوك أو الناس مع القوى الطبيعية أصبحوا يتجهون إلى الفقهاء والسحرة المسلمين[1]، وعرف المجتمع السوداني بعض الظواهر والعادات المستهجنة قبل وبعد انتشار الإسلام، كظاهرة السحر والعري التي كانت أمرا عاديا قبل الإسلام، وارتبطت هذه العادات بالذهنية السودانية، ومن بين المظاهر والعادات المنتشرة بين السودانيين نذكر:

أ- حرية العلاقة بين الجنسين: أو ما أسماه البعض بالإباحية فقد ذكر العمري أن المنسا موسى على الرغم من تدينه ومحافظته على الصلاة إلا أنه لم يلزم نفسه حدود الشرع في الزواج، وكان يعتقد أن منصبه كملك يتيح له اتخاذ ما يشاء من الأزواج.

ب- الاختلاط بين الجنسين: ومن العادات السيئة كذلك لا توجد حرمة بحيث لا يوضع حاجب بين الذكور والإناث بل يختلط الجنسين ويكون هذا الاختلاط من مرحلة الطفولة حتى نهاية العمر[2].

جـ- التواضع والتذلل للملك (التتريب): ذكر ابن بطوطة أن معظم الناس تواضعوا لملكهم، يحلفون باسمه، وإن دعي بأحدهم عند الجلوس نزع ثيابه ولبس ثياب خلقة، ونزع عمامته ودخل رافعا ثيابه وسرواله إلى ساقيه، وتقد بأذلة ومسكن وضرب الأرض بمرفقه ضربا و وقف راكعا يسمع كلامه.

د- عدم دفن الموتى: ومن عادتهم أن لا يدفن عندهم ميت إلا إذا كان ذا قدر وحشمة وكل من كان سوى هؤلاء ممن لا قدر له، من فقراء وغرباء يرمى في فلاة.

هـ- أكل لحوم البشر: ذكر هذه العادة الشنيعة والقبيحة ابن بطوطة حينما زار مملكة مالي، فكتب بأن قوما منهم يأكلون لحم البشر ولا يأكلون لحم البشر البيض، اعتقادا منهم أنها مضرة بالصحة، ومن مواصفاتهم أنهم يضعون أقراط كبار في آذانهم، وقد قالوا بأن أطيب ما في اللحوم الآدميات الكتف والثدي[3].

و- عادة أكل الجيف: ذكرها أيضا الرحالة ابن بطوطة عند رحيله من قرية في الخليج مات له جمله الذي يركبه، وقد أخبره الرعاة بذلك، ولما دهب لرأيت جمله وجد أن السودانيين قد أكلوه، وهي من عاداتهم أكل الجيف.

---

[1]- زوليخة بنرمضان، المرجع السابق، ج 1، ص 37.

[2]- حسن علي إبراهيم الشيخلي، المرجع السابق، ص 186.

[3]- ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 268.

2- التأثيرات المغربية على الأسرة السودانية:

أ- الأسرة:

تمثل القرابة المتشكلة حول المرأة أساس بناء القبيلة والعشيرة، والأسرة السودانية كانت من الأسر المتوسعة فهي تتشكل من الأب والأم والجد والأبناء والأحفاد، إضافة للأصهار الموثوق بهم، وهذه الخلفية العرفية ذات البعد الاقتصادي، استمرت بعد أسلمت المنطقة[1]، وكانت هذه الأسر السودانية التقليدية قائمة على النظام الأموسي الذي يعتبر الأبناء أعضاء في جماعة الأم، وهذه القرابة هي أساس تكوين القبيلة أو العشيرة، فالخال له من من الحقوق والواجبات والالتزامات ما يفوق حقوق الأب وواجباته اتجاه أبناءه، ومثال ذلك ما ذكره البكري حول مسألة توريث الملك الغاني الوثني ابن أخته الحكم بدلا من أولاده، وقد علل البكري ذلك بأن الملك لا يشك في أنه ابن أخته في حين يشك في ابنه[2].

وتحتاج هذه الظاهرة إلى تحليل وتفسير انطلاقا من النصوص التاريخية والدراسات الأنثروبولوجية، لدراسة وتفكيك التقاليد الاجتماعية السودانية قبل انتشار الإسلام بين شعوبها، فالمصادر تشير إلى وجود حالة من المشاعية الجنسية، وغياب تنظيم اجتماعي صارم يحكم العلاقات بين الرجال والنساء، ذكر الإدريسي أن أهل ملل كانوا يتناكحون بغير صدقات ولا حق، واستمر الحال على ما هو عليه بين القبائل الوثنية خلال القرن 10هـ، فذكر الحسن الوزان بأن ليس للرجل امرأة خاصة به، إذ يجتمع الرجال والنساء ليلا ويضاجع كل واحد من تعجبه أو أكثر، وبعض القبائل الصحراوية عرفت هي الأخرى هذه الظاهرة، حسب ما ذكره صاحب الاستبصار أن أهل تادمكة لم يتحرجوا من العلاقات الجنسية المحرمة رغم أن الإسلام كان منتشرا بالمنطقة حينها، ربما يتعلق الأمر بقبائل سكنت البلدة حينها، أو هي شكل من أشكال الانحراف الذي عرفته بعض المجتمعات[3].

وغياب مؤسسة الزواج معناه تغييب دور الأب مقابل بروز دور الأم، لذلك تتشكل منظومة قرابة وعلاقات اجتماعية أساسها المرأة، وهذه المنظومة هي التي سمحت للأعراف التي تشكلت في السياق التاريخي بالانتشار والاستمرار، وإن تراجعت هذه الممارسات بعض الشيء، لكن بقيت آثار النظام الأموسي عند قبيلة مسوفة ولاته، إذ ظل الرجل منهم ينتسب إلى خاله دون أبيه، ولا يرث الواحد منهم إلا أولاد أخته دون أولاده، رغم أن الإسلام كان منتشرا بينهم، كما كان لهم دور في نشره بين السودانيين.

وكانت تأثيرات النظام الأموسي واضحة على المجتمع السوداني، فقد كان انتقال السلطة من الحاكم إلى ابن البنت أو ابن الأخت، كما أشار إليه البكري وابن خلدون، وكان هذا معروفا لدى قبائل المالنكي والوُلوف والسيرير، وبعض سكان الغابات الاستوائية. ثم تحول المجتمع السوداني عن هذا النظام إلى النظام الأبوي تدريجيا، خاصة مع تشكل مؤسسة القضاء التي كان لها دور كبير في القضاء على هذه العادات والسلوكيات المحرمة، حتى حضور الجاليات المغاربية بالسودان الغربي ساهم في الحد من هذه الظواهر والممارسات المنافية للشرع.

---

[1]- هواري رضوان، المرجع السابق، ص ص: 227- 231.

[2]- أسماء أحمد الأحمر، **الدين والدولة في مملكة سنغاي الإسلامية (869-1000هـ/1464-1591م)**، طرابلس، الجامعة المغاربية، ط1، 2008، ص 154.

[3]- حسين بوبيدي، **محاضرة التأثير المغربي على المجتمع السوداني**، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة عبد الحميد مهري، قسنطينة2، ص 2، منصة التعليم عن بعد، الرابط الالكتروني:
https://elearning.univ-constantine2.dz/elearning/course/view.php?id=727

ب- الزواج:

بالنسبة لمنظومة الزواج قبل انتشار الإسلام بالسودان كان غير منظم، ولا يستند لضوابط شرعية، بل لموروثات يسودها التفكك والانحلال كالزواج بأكثر من أربعة في وقت واحد[1]، وكان الزواج محصورا داخل العشيرة بهدف المحافظة على وحدة العشيرة وتماسكها، ولم يعرف المجتمع السوداني قبل الإسلام العقد والصداق وتحديد عدد الزوجات، إذ كان الملك أو زعيم القبيلة أو العشيرة يتزوج بأكثر من أربع نساء من مختلف القبائل، بهدف عقد التحالفات السياسية والاجتماعية، والإكثار من النسل، وتوفير اليد العاملة. ومن أنواع الزواج المعروفة الزواج عن طريق المبادلة (رأس برأس)، أي أن يعطي الرجل أخته أو ابنته لرجل آخر على أن يعطيه هذا الأخير أخته أو ابنته من أسرته أو من قبيلته، والرجال الأكبر سنا هم من يتولى هذا الأمر، أما الشاب عندما لا يتمكن من الحصول على زوجة عليه انتظار موت أحد الرجال كبيري السن ليرث زوجته أو زوجات، أو يجد له زوجة بين زعماء القبائل الأخرى، مقابل خدمات يقدمها لهم كتوفير بضائع معينة، أو تقديم بناته المستقبليات كزوجات لهم[2].

ومع انتشار الإسلام بينهم ودور الفقهاء والدعاة والتأثير الثقافي للجاليات المغاربية، بدأت هذه الظاهرة في الزوال، وتبنى السودانيون مفاهيم الشريعة الإسلامي في بناء أسرهم، ولم يتم ذلك بشكل سريع بل أخذ وقتا، فكلما اقتربنا من الحواضر كان التأثير سريع والعكس صحيح، كما أن هذا لا يعني اندثار هذه الظاهرة نهائيا، وأما بالنسبة للمصاهرة السياسية كانت معروفة في المجتمع السوداني من قبل، وكان الهدف منها هو المصالح السياسية والاقتصادية وحتى الاجتماعية للقبيلتين أو العشيرتين، كما كانت هناك علاقات مصاهرة بين التجار المغاربة والحرفيين مع بنات مملكة مالي، كما أن أغنياء الجالية المغربية تقربوا من أغنياء الأسر السودانية والأسر الحاكمة عن طريق الزواج. وبلغت قوة التأثير المغربي المريني على المجتمع المالي أن ساد الزواج على الطريقة الإسلامية، فمن قبل كانوا يتزوجون دون أن يكون للمرأة صداق أو مهر، اختفت هذه العادة وانحصرت في بعض القبائل فقط التي لم تتأثر بمبادئ الإسلام[3].

ج- المرأة:

كان للمرأة مكانة كبيرة في المجتمع السوداني، باعتبارها حجر الأساس فيه، خاصة مع غياب الرجل المتكرر في ميادين الحرب أو لمزاولة الصيد، لذا كان لزاما عليها تسيير شؤون بيتها، وتربية أبنائها والخروج في أحيان كثيرة لقضاء حوائج أسرتها، واختلفت مكانة وأهمية المرأة في المجتمع باختلاف الوسط الاجتماعي والجغرافي ومدى الالتزام العقائدي، فقد تميزت النساء الحرائر بشكل عام بحرية تدبير شؤونهن الخاصة منها اختيار زوجها، فأغلب القبائل الإفريقية تسمح بذلك، ولا تسمح لأبيها أو من يقوم مقامه بإجبارها على الزواج[4]، كما أن للمرأة تأثير في الحياة السياسية أحيانا، فقد كانت "قاسا" زوجة المنسا سليمان شريكته في الملك على عادة السودان، ويذكر اسمها مع اسمه على المنبر، لكونها بنت عمه مما أكسبها هذا الحق، فزوجته الثانية التي لم تكن من الأسرة الحاكمة، لم تحظ بهذه الامتيازات. كما نجد أم المنسى موسى الثاني ملك مالي (775-789هـ/1374-1387م)، ساهمت في تنصيب زوجها "صندكي" الوزير ملكا خلفا لابنها المتوفي، وفي بعض الحالات حدث وأن تملكت المرأة السودانية على بعض المناطق، وأدارتها، ودافعت عنها بجيش يتبع لها[5].

---

[1]- أسماء أحمد الأحمر، المرجع السابق، ص 165.

[2]- بوبيدي حسين، المرجع السابق، ص 5.

[3]- فريد المهندس، المرجع السابق، ص ص 333- 338.

[4]- أسماء أحمد الأحمر، المرجع السابق، ص 164.

[5]- حسين بوبيدي، المرجع السابق، ص 6.

فأصبحت المرأة السودانية تعمل مع زوجها أو أخيها، وتساهم في تلبية حاجات بيتها وأسرتها لكن بطريقة مختلفة عما كانت عليه في الوثنية، فعملت في طهي الطعام وطحن الدقيق، وحياكة الملابس القطنية والصوفية، واستخراج المياه من الآبار[1]، واعتبرت المرأة عند الفلان والتكرور سيدة البيت وصاحبة السلطة فيه، وأثناء غياب الزوج بحثا عن المرعى لقطيعه لمدة تتراوح ما بين ثمانية وتسعة أشهر، كانت الزوجة تتولى مهمة الإشراف على جميع المهام، كما كانت فاعلة في التجارة المحلية، ومساهمة في الأنشطة الحرفية والزراعية والرعوية.

د- الطفل:

عرف المجتمع السوداني ظاهرة وأد المواليد الجدد أو بيعهم ورهنهم وقت الفقر والعوز، كل هذا بسبب بعض المعتقدات الأرواحية، التي تربط بينه وبين حدوث بعض الكوارث والمصائب للأسرة أو القبيلة، أو لأنه ولد مشوها أو معاقا، أو ولد لامرأة لا تحل الأعراف المحلية الزواج بها، أو ولد قبل فطام أخيه، أو ولد توأما[2]، ومع انتشار الإسلام أكثر بين السودانيين قلت هذه الظاهرة الوحشية تدريجيا، والسنغاي رغم إسلامهم كانوا إلى غاية القرن 8هـ/14م إذا ولد لهم مولود ليلا طرحوه في تراب بيت مظلم، ثم اختفت هذه الأعراف، وأصبح السودانيون يحتفون بالمولود الجديد، ويقيمون له العقيقة، ويباركون لوالديه بالهدايا والمال، لكن لا تزال عادة الوأد مستمرة بين بعض القبائل الإفريقية البدائية، كقبيلتي هامر وبانا في وادي أومو بإثيوبيا[3].

وبفعل تأثير الحضارة الإسلامية وفعالية الجاليات المغاربية تغيرت وضعية الأطفال، فأصبحت العائلات النافذة تكلف العبيد المقربين بتربية الأطفال والعناية بهم، كما أن بعض الأسر السودانية أدخلوا أبنائهم الكتاتيب لتعلم وحفظ القرآن، وذلك للمكانة التي احتلها طلبة العلوم الشرعية بالبلاد، إذ وجد بمملكة صنغاي ما بين 150 إلى 180 كتابا، يضم الواحد منهم 230 صبيا، وعائلات الفقهاء هي التي كانت أكثر حرصا على التنشئة العلمية لأبناءهم، كعائلات أندغ محمد وآل آقيت والحاج.

أما بالنسبة للقبيلة فقد تم إضعاف العصبية القبلية، فخرجت القبيلة بذلك من وضعها الضيق إلى الانفتاح على باقي القبائل بعد ازدهار التجارة، حيث ساد روح التعاون والتكافل بين أفراد السودان، فقد اختفت أقبح العادات مثل أكل لحم البشر، وتقديم القرابين البشرية ووأد الأطفال، كما قلت ظاهرة العري، كما كان الناس لا يغتسلون فأصبحوا بعد الإسلام يتأنقون في ملابس من أجل الصلاة وشرعوا يغتسلون يوميا[4].

أما بخصوص تجهيز الموتى والجنائز فقد تخلى أهل السودان عن العادات الوثنية القديمة حيث أصبحت ذات طابع إسلامي، بداية من التغسيل والتكفين بالقماش، والذي لا يميز بين فقير وغني، ولم يكن يدفن الميت في يومه من أجل حضور ملوك المناطق المجاورة، وكانت تصاحب الجنازة بالقرآن وقصائد مدح الرسول صلى عليه وسلم[5]. ووصف ابن بطوطة حالة الأمن الأمن والاستقرار والعدالة السائدة في تلك المملكة المسلمة، وكيف كان الأهالي يعيشون في أمان تام دون الخوف على ممتلكاتهم، كما أكد على مدى حرص العائلات على إقامة الصلاة والنظافة حيث، قال: "فمن عاداتهم الحسنة قلة الظلم وشموخ الأمن في البلاد وعدم تعرضهم لمال من مات من البيض، وإن كان يوم جمعة ترى الازدحام أما المسجد ولكل منهم علامة بسجادته، أما

[1]- البكري، المصدر السابق، ص 64.

[2]- أسماء أحمد الأحمر، ص 158.

[3]- حسين بوبيدي، المرجع السابق، ص 6.

[4]- فريد المهندس، المرجع السابق، ص 335.

[5]- هواري رضوان، المرجع السابق، ص 231.

لباسهم الثياب البيض الحسان يوم الجمعة ولو لم يكن لأحدهم إلا ثوبا واحدا غسله ونظفه وشهد به يوم الجمعة كما اعتنوا بحفظ القرآن وجعلوا لأولادهم قيودا فلا تفك عنه حتى يتمم حفظه".

هـ- ظاهرة العري:

عند تصفح المصادر الجغرافية والتاريخية قبل القرن 5هـ/11م نجد بأنها تتحدث عن انتشار ظاهرة العري بين السودانيين، فوصفوهم بـ"السودان العراة"، واستمر العري منتشرا رغم احتكاك السودانيين بالتجار المسلمين، واستقرار الجاليات المغاربية بينهم، كسكان ملل وماسة مثلا يمشون عراة، وتكتفي النسوة بستر فروجهن. هنا اللباس يعبر عن مستوى من التحضر يتجاوز حالة العري، ويمثل منظومة قيمية تضبط العلاقات بين الأفراد، وتنظم المجتمع بحيث تتمايز فيه الأسر، وتحدد فيه المسؤوليات والواجبات، كما أن افتقارهم للصناعات النسيجية ساهم بانتشار ظاهرة العري، نظرا لصعوبة امتلاك الألبسة، والتي سيعرفونها بعد اتصالهم بالتجار المسلمين[1].

وكان للحضور المغربي بعدها في الحواضر السودانية، وانتشار الإسلام دور في التقليل من ظاهرة العري تدريجيا، فالقزويني ذكر هذه الظاهرة المشينة ولكن في نفس الوقت ذكر بأن التكروريين المسلمين كانوا يلبسون قمصانا طويلة، وبعض التكروريين كما ذكر ابن سعيد المغربي أن غالب أهل التكرور كانوا يلبسون الجلود المدبوغة، ومن خالط منهم المسلمين (البيض) كان لباسه من القطن والصوف، فأثروا في الوثنيين القريبين منهم بستر أنفسهم والإقلاع عن العري التام، اللهم إلا القبائل الوثنية التي كانت مساكنها بعيدة عنهم. ولبس أهل السودان (غانة مثلا القرن 5هـ/11م) المخيط من الملابس التي جلبت من بلاد المغرب، فعرفوا ملاحف القطن والحرير والديباج (كل حسب مركزه ومكانته الاجتماعية)، فقد اقتصر لبس الطراطير المذهبة والعمائم القطنية الرفيعة على ملوك غانة لوحدهم، وهذا دليل على تأثرهم بالزي المغربي. ما تأثر أهل تادمكة بلباس الملثمين (القرب الجغرافي)، فلبس الملك التادمكي العمامة الحمراء، والقميص الأصفر، والسراويل الزرقاء، وكان ملك غانة المسلم خلال القرن 6هـ/12م يرتدي إزار حرير يتوشح به، أو بردة يلتف بها، وسراويل في وسطه، ونعل شركي، وكان لباس الرعية من الأزر والفوط والأكسية، كل حسب مكانته وإمكانياته. ومع القرن 8هـ/14م بعد أن عاد السودانيون لاستخدام المسلك التجاري طريق مصر عبر الواحات الليبية، زاد التأثير المشرقي في الحضارة السودانية (القوافل القادمة من القاهرة ودمشق وبغداد)، ومثلت ألبسة المالنكي انعكاسا لهذا التغير، وتداخل التأثيرات المختلفة الداخلية والخارجية في تحسين الأوضاع الاجتماعية للسكان (ثياب قطنية بيضاء، جلابيب، دراريع، عمائم، شواشي، سراويل مصبوغة، البرنس، الثياب السوسية الخضراء والقفاطين) إضافة للكسوة الأنطاكية، والثياب المصرية، وأقبية الديباج والحرير اليمنية.

أما بالنسبة لحجاب المرأة بطء انتشاره يتعلق بطبيعة تصور السكان للستر، لأن كشف المرأة للجزء العلوي من جسدها، كان عادة منتشرة ومعروفة لدى السودانيين قبل انتشار الإسلام بهم، فنساء إفريقيا لم يعرفن الحجاب إلى أن اعتنقن الإسلام، وبدأت نساء الطبقات الموسرة بارتداءه، إضافة لتأثرهم بنساء القبائل العربية التي هاجرت إلى إفريقيا، وكذا تأثر الحجاج السودانيين بالنساء بمكة والمدينة فأزمن نساءهن بارتداءه[2]، كما أن ممارسة المرأة الفُلانيَة لبعض الأنشطة الاقتصادية كالزراعة والرعي،صعب التزامها بارتداء الحجاب، بعكس المرأة الهاوسوية التي لم تشارك في الأنشطة الزراعية انتشر الحجاب بينهن بشكل أسرع، وهذا ما يمثل تجاذبا بين الأعراف المحلية والأحكام الشرعية الإسلامية.

[1]- حسين بوبيدي، المرجع السابق، ص 6.

[2]- أسماء أحمد الأحمر، المرجع السابق، ص 159.

2- تأثير المطبخ المغربي على المطبخ السوداني:

أحدثت بلاد المغرب أثرا كبيرا في المطبخ المالي فيما يخص الأطباق وأوقات الوجبات، فالمجتمع السوداني كان فيه خليط من الأكلات التي أهلكت المجتمع في بعض الفترات، وهو الأمر الذي ذكره حسن الزناتي حين قال: "وقد نتج عنده بعض الأمراض بسبب الأغذية التي كانوا يستهلكونها" فقد أخلطوا بين مكونات لا تتناسب مع بعضها البعض مثل: السمك والحليب والزبدة واللحم والتي كانوا ينظرون إليها على أنها غذاء كامل[1].

كما أخذ المجتمع المالي بعض الأكلات المغربية مثل الأرز والعصيدة والكسكس اصنوع من القمح والشعير والذرة الذي أصبح أكلة معتمدة في بلاد السودان، كما خص الطبقة الرفيعة من أهل البلاد وهم الملوك فقد كان يقدم لهم مع فتات لحم الغنم مطبوخا أو مشويا أو ملفوفا[2]، وأدخل المغاربة أيضا تقليدا فيما يخص وجبات الطعام اليومية، والتي تتمثل في تناول الفطور والغداء والعشاء، وتناول الشاي الأخضر المعطر بالنعناع عدة مرات في اليوم، أما عن الأواني فقد كانت نفسها التي في بلاد المغرب، واختلفت حسب الحالة الاجتماعية لأفراد المجتمع فأواني عامة الناس كانت مصنوعة من قشور القرع أما الملوك فكانت أوانيهم من ذهب[3]، كما أدخل المغاربة استعمال الزبدة وزيت الزيتون على الطبخ السوداني، وكان التمر يجلب من سجلماسة وبلاد الزاب بفضل أهل وارجلان كما ذكره الإدريسي.

وقد عرفت بلاد السودان الغربي زراعات محلية، نمت تحت تأثير المؤثرات الخارجية كالاسهام العربي ابتداء من القرن 2هـ/8م، والاسهام الأوربي والأمريكي انطلاقا م سنة 844هـ/1492م، وعرفت أيضا نباتات أخرى من المحيط الندي كالموز، وعرفت منطقة حوض النيجر نوعين من الزراعة الشتوية والخريفية،ويعتبر الدخن والذرة البضاء من أهم المنتوجات الغدائية التي تتميز بها المنطقة لحد اليوم، ومن الفواكه والخضر التي زرعها أهل المدن البصل والقرع والبطيخ واللوبيا والفووالباذنجان والكرنب والثوم والملوخية والخيار والأرز بمدينة مداسة على نهر النيجر[4]، وعرف السودانيون الخمر المصنوع من العنب والتين والبلح، أما بالنسبة للأطعمة التي تتطبخ خصيصا في المناسبات والأعياد وتشبه تلك التي في بلاد المغرب أين يكثر استعمال السكر والعسل في الحلويات، واشتهرت السودانيات بطبخهن، يقول الإدريسي متحدثا عن أودغست "بها سودانيات طباخات محسنات تحسن عمل الأطعمةالطيبة من الجوزينقات والقطائف وأصناف الحلويات وغير ذلك"[5].

وتأثر المطبخ المغربي بالمطبخ السوداني ويظهر هذا في حفلات الأعراس وغيرها إذ تستدعى الطباخات السودانيات لتحضير مختلف المأكولات وامشاركة في الرقص، كما أن الفول السوداني والبصل والقرع والبطيخ، والذرة البيضاء الجيدة التي تعرف باسم "حب الأنلي"،والدخن (الذرة الصفراء أو الذرة الشامية) كانوا يصفون منه الدقيق والخبز،انتقلت زراعتهم للمغرب من السودان عن طريق التجار المغاربة.

3- التأثير المغربي على الألبسة السودانية:

أما فيما يخص اللباس السوداني فقد العري شائعا بينهم، لكن بمجرد اعتناقهم للإسلام أخذت هذه الظاهرة تختفي تدريجيا خاصة في المراكز الحضارية، فأصبح ارتداء الثياب مظهرا خارجيا يميز المسلمين عن الوثنيين، وكلما طالت الثياب وغطت

[1]- هواري رضوان، المرجع السابق، ص 232.

[2]- الهادي مبروك الدالي، المرجع السابق، ص 28.

[3]- هواري رضوان، المرجع السابق، ص 33.

[4]- زوليخة بنرمضان، المرجع السابق، ج 21، ص 119.

[5]- مامادو كان، المرجع السابق، ص ص 220-221.

الجسم أكثر دلت على بعده عن الوثنية، وقد بدى واضحا تأثير اللباس المغربي على السودانيين في مملكة مالي فلبس الماليون الجلابيب والدراعات، وكان لبس طبقة الفرسان يتجدد نوعه بحسب قوة وشجاعة الفارس، وكانوا يكافؤون بلبس الأساور والأطواق والخلالخل الذهبية حسب شجاعتهم[1].

وكان اللونين الأسود والأزرق المفضلين في المجتمع السوداني منذ عهد المرابطين، ثم اتخذ كانكان موسى بعد عودته من الحج اللون الأخضر شعار دولته، لكن بقي اللون الأبيض مع العمامة الزرقاء اللباس التقليدي للعلماء والأئمة وكبار الموظفين يتخذونه في المناسبات الرسمية حتى شاع استعماله بين مختلف الطبقات، وكان لباس المدن الأكثر تحضرا شبيها بلباس سكان الواحات وجنوب بلاد المغرب الأقصى، ولبس التجار والعلماء الدراريع والسراويل على اختلاف أطوالها واتساعها مع عمامة كبيرة يلبسها الرجل كما المرأة، وفي أيام البرد يلبسون البرنس الصوفي ذو الألوان البنة والزرقاء ، وكان البرنس السوداني يدعى ببرمسو[2].

ولبس سكان مالي في الأعياد والمناسبات ثياب بيض حسان، أما السلطان يضع على رأسه طيلسانا[3]، وهم لا يلبسونه إلا في العيد ما عدا القاضي والخطيب والفقهاء فإنهم يلبسونه في سائر الأيام، ويحملون علامات حمر من حرير، كما أدخل المغاربة حرفة الحلاقة إلى بلاد السودان الغربي وكذلك الآلات كانت كلها عربية، كما حدث في المغرب حيث كان يحلق الشعر للعلاج من الأمراض أو للزينة[4]، ولبس سلاطين سنغاي كرازين تشبه العمائم على رؤوسهم، كما بدا واضحا التأثير المغربي على الأقمشة والأصباغ التي كانت من أهم السلع المغربية التي نالت رواجا في أسواق السودان الغربي، فقد حرص أهل السودان على شراء الملابس الملونة من الأحمر والأزرق والأصفر، خاصة تلك الثياب المصنوعة في مصر إلى جانب المنتوجات القطنية المصنوعة في المغرب الأقصى[5]، وقلد السودانيون المغاربة في اتخاذ أواني البخور والمواقد وقوارير الزهور، أما النساء فكن يضعن الأصباغ على وجوههن، وتزين بالقلائد والأحجار الكريمة، والأساور والخلاخل والأقراط التي كانت تتدلى من الشعر والأنف[6].

4- التأثير المغربي على الاحتفالات الدينية:

وبالنسبة للاحتفالات بالأعياد الدينية فقد حظيت باهتمام الحكام والعلماء والعامة على حد سواء، فكان الناس يخرجون لرؤية هلال رمضان، ويقرؤون القرآن في ليالي رمضان ويختمونه في ليلة السابع والعشرين، وكانوا يأتون إلى أبواب المساجد قبل غروب الشمس بحبات من التمر، وقطع من الخبز والحساء ليوزعوها على الفقراء، ووزعوا الطبيخ على القراء وصبيان الكتاتيب ليلة القدر فرحا بهم، كما فرحوا أيضا بعيد الفطر.

واحتفلوا بعيد الأضحى في أجواء من الفرح والبهجة، وكانوا يضحون في الغالب بالإبل أو الجواميس أو البقر أو الأغنام أو الماعز كل حسب قدرته، ويقوم المداحون بإنشاد المدائح النبوية وإلقاء الشعر كما ذكره لنا ابن بطوطة "حضرت بمالي عيد الأضحى والفطر، فخرج الناس إلى المصلى وهو بمقربة من دار السلطان، وعليهم الثياب البيض الحسان، وركب السلطان وعلى رأسه الطيلسان، وكانوا يقومون بالتكبير والتهليل عند خروج السلطان، وكانت بين يدي السلطان العلامات الحمر من الحرير...ثم خرج إلى المصلى فقضيت الصلاة والخطبة"[7].

---

[1]- أسماء أحمدالأحمر، المرجع السابق، ص 162.

[2]- مامادو كان، المرجع السابق، ص 218.

[3]- **الطيلسان**: عبارة عن قطعة من ثوب الحرير الأسود تحمله بعض الشخصيات المهمة على الأكتاف وهو شعار القضاة والفقهاء والأئمة.

[4]- محمد الغربي، المرجع السابق، ص 611.

[5]- فريد المهندس، المرجع السابق، ص 287.

[6]- محمد الغربي، المرجع السابق، ص 61.

[7]- ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 244.

أما الاحتفال بالمولد النبوي الشريف فكان من أحب المناسبات الدينية لقلوب السودانيين، ينتظرونه بفارغ الصبر هم وأبناؤهم، فكان الناس في تنبكتو يخرجون إلى الشوارع ليلة المولد النبوي، يضربون الطبول، ويمدحون الأشعار، ويزينون المساجد، ويلقي العلماء والفقهاء الخطب الدينية والمواعظ على الناس وطلبة العلم، فيذكرونهم بسيرة الرسول الكريم، واحتفلوا أيضا بختم القرآن من قبل الأطفال، فكانت الأسرة تقيم وليمة كبيرة لطفلها، تستدعي فيها الضيوف من الأهل والأقارب والجيران، ويلبسون طفلهم أحسن الثياب، ويحملونه على دابة ليطاف به الحي، كما احتفلوا بالسنة الهجرية وعاشوراء[1].

[1]- محمد الغربي، المرجع السابق، ص 261.

المحاضرة الحادية عشر: التأثير المغربي على العمران السوداني

1- العمران السوداني:

يختلف العمران السوداني التقليدي عن العمران الذي نعرفه ببلاد الغرب الإسلامي، وهذا يرجع لخصوصية المنطقة وطابعها المناخي والجغرافي، وكان السودانيين يعرفون هندسة البناء والأشكال، وكانت لهم طرق ومواد وأدوات خاصة بالبناء، وعرف عنهم اتقان عملية ترميم المنشآت والمرافق الاجتماعية[1]، فهم يستعملون الطين واللبن في عمارتهم، وهو الغالب عليها، حسب ما أورده التجار المسلمون أثناء رحلاتهم للمنطقة، فكانت الحيطان مبنية بالطين، ومغطاة بطبقة ممزوجة بالتبن، فكانوا يشكلون الطين على شكل أسطوانات، تجفف في الشمس ثم تغمس مرة أخرى في الطين، لتلصق بعضها ببعض، وتكدس فوق بعضها البعض لبناء الجدران، وبعد الانتهاء من بناء الحيطان، تلطف الطبقة الأخيرة منها بتلطيف الطين، بمزجه بزيت الغرتي (شجرة الشيا)، وتسطح الحيطان. وبالنسبة للأسقف فهي على شكل قبة أو هرم، وتصنع عادة من الأخشاب والقصب، وقد تسببت كثرة الأخشاب في البناء في حرائق مهولة. أما بالنسبة للمناطق القريبة من الأنهار كان السكان يبنون الجدران بأغصان الأشجار المتراصة، واستعملوا الطين بعد خلطه ببعض النباتات لشدها ببعضها البعض، ويعد هذا البناء النباتي بديلا عن الأبنية الطولية، واعتبر الأثريون العمران الدائري بمثابة الشكل السوداني التقليدي، ودل تواجده في جاو مع العمارة المستطيلة على تزواوج النمطين في المدينة الواحدة ما بين القرنين 5-8هـ، ورغم التحولات العميقة التي شهدتها المنطقة منذ قرون عديدة، استمرت الممارسات العمرانية المحلية قائمة، ولا تزال مستعملة لغاية اليوم[2].

وبالنسبة للأشكال العمرانية السودانية نجد مسجد جني القديم، وضريح الأسكيا محمد بجاو، وواجهات المنازل في مدينتي موبتي (Mopti) وسيقو (Sigou) بمالي التي لا تشبه في شيء العمارة ولا الزخرفة المشرقية أو المغربية، يميزها الشكل الهرمي ذو الأصول الإفريقية الذي هو امتداد لمعمار المعابد التقليدية السودانية، إذ ينتهي البناء في الأعلى والواجهة في المدخل، وتكون الأعمدة مرصوفة بشكل أفقي على مستوى سطح المبنى وتحيط به كالقلادة. ومن المنطقي التفتيش عن المؤثرات الخارجية على العمارة السودانية، ولكن هذا لا يعني إنكار وجود عمارة سودانية كما حاول بعض الباحثين التأكيد عليه، فهو إما قراءة خاطئة لبعض النصوص المصدرية العربية، أو تبرير للمرحلة الاستعمارية التي تدعي فقد المجتمع السوداني لكل مقومات الحضارة، ونتيجة التواصل ما بين المرينيين والسودانيين نتيجة التجارة فقد تأثر سكان مالي بالعمارة المغربية، خاصة في مدينة تنبكتو التي أصبحت ذات طابع مغربي في العمران، حيث قال السعدي: "فكانت عمارة تنبكتو خراب بير، ولم تأتيه العمارة إلا من المغرب، ففي أول الحال كانت مساكن الناس زُرِيْبات 4الأشواك وبيوت الأخشاش، ثم تحولت الزربيات إلى الصناصن، ثم تحولوا عنها إلى بناء الحيوط أسوارا قصارا جدا، بحيث من وقف في خارجها يرى ما في داخلها"[3]، وهذا ما يؤكد هيمنة الحضارة المغربية على مملكة مالي، فقد تحلت البنايات إلى حوائط صغيرة الارتفاع حيث كان سكان بلاد السودان ينظرون لما يشع في بلاد المغرب والبلاد العربية ويقلدونها[4].

---

[1]- مامادو كان، المرجع السابق، ص ص 111-112.

[2]- حسين بوبيدي، **محاضرة التأثير المغربي على العمران السوداني**، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة عبد الحميد مهري، قسنطينة 2، ص ص 5-6، منصة التعليم عن بعد، الرابط الالكتروني:
https://elearning.univ-constantine2.dz/elearning/course/view.php?id=727

[3]- عبد الرحمن السعدي، **تاريخ السودان**، تحرير وتعليق وتقديم حماه الله ولد السالم، لبنان، دار الكتب العلمية، ط1، 1433هـ/2012م،ص 129.

[4]- حسي بوبيدي، المرجع السابق، ص 7.

وكانت بيوت الملك والنبلاء تبنى بالجبس والآجر ولا يسمح لغيرهم بالبناء به إلى ما أذن له الملك[1]، كما برز الفن المغربي في تصميم القصور والمنازل والجوامع والمساجد لا سيما ما يتعلق في بناء المؤذنة المدرجة والمحراب المثلث ومن بين هذه المساجد مسجد جيكري بيري (دجينغار بير) أي المسجد الكبير الذي بناه المهندس الأندلسي جمادى الساحلي[2] مع عبد الله الكومي الغدامسي على الطراز المغربي الأندلسي سنة 1327م، وبنيت على يمينه مقابر للسودانيين في عهد منسى موسى.

مسجد دجينغاربير (المسجد الكبير) بتنبكت

أ- المهندس الأندلسي أبو إسحاق إبراهيم الساحلي "الطويجين" وتطويره للعمارة السودانية:

عند أداء منسى موسى لفريضة الحج سنة 724هـ/1324م التقى بالشاعر الأندلسي أبو إسحاق المعروف بطويجين، وأقنعه بأن يصطحبه معه إلى بلده، فرافقه وبقي بمملكة مالي عشرين سنة إلى أن توفي سنة 747هـ/ 1346م، وحين ذهب معه بنى له قبعة مربعة الشكل تعتبر من التحف النادرة في فن البناء، وكذلك شيد أبو إسحاق قصرا ومسجدا من الطوب الملون له مؤذنة وسقف من الأخشاب، وقد نال هذا الطراز المعماري الاستحسان من سكان مالي الأثرياء واستخدموه في بناءه[3].

لكن بعض الباحثين يرون نتيجة الأبحاث الأثرية التي قاموا بها أن إبراهيم الساحلي لم يدخل نمطا عمرانيا جديدا إلى بلاد السودان الغربي، فهو غريب عن المنطقة ولا يعرف تقنيات البناء بها، ودوره انحصر فقط في مساهمته في ضخامة المعالم الإسلامية كالمساجد، تماشيا مع رغبة منسى موسى في إبراز إسلامية دولته2، فقد كشف التنقيب الأثري عن قدم استعمال الطين المشوي (المحروق) في غاو ما بين القرنين الثاني والرابع الهجريين. والاختلاف الواضح بين الطراز المعماري السوداني والطراز المعماري المغربي على مستوى الأشكال والتصاميم يبين بأن الساحلي لم يكن وراء ذاك[4].

أما بالنسبة لمسجد مدينة جني فهو من عمل المهندس إدريس المراكشي ويعتبر مثلا عظيما على تمايز الفن العربي الإفريقي، وهو يعود إلى الهندسة المعمارية في المغرب والتي حملها مهندسون عرب وأفارقة غلى بلاد السودان، درسوا فن العمارة

---

[1]- القلقشندي، المصدر السابق، ج 5، ص 91.

[2]- **جمادى الساحلي**: هو المهندس إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الأنصاري الساحلي المشهور بطويجين من غرناطة، كان والده أمير العطارين بغرناطة وقد كان مع شهادته من أهل العلم فيها، كما عرف الساحلي أنه موفور المادة العلمية كثير الحلاوة أنيق الدباجة، رحل من الأندلس إلى المشرق لأداء فريضة الحج ثم سار لبلاد السودان واستوطنها زمنا طويلا وتوفي بها.

[3]- عطية مخزوم الفيتوري، المرجع السابق، ص ص 277- 278.

[4]- حسين بوبيدي، المرجع السابق، ص 7.

في فاس ومراكش، والذي تميز بالبساطة والسهولة، أما أن بيوت العامة كانت على شكل قباب طينية مخروطة الشكل، وكان الطابع العام أكواخ مشيدة تستند هذه القباب على أعمدة من الخشب وهو الأمر الذي أعطاه خشونة وتصدي للظواهر الطبيعية، وبعض هذه الأكواخ مزينة من الداخل والخارج ومتلاصقة تفصل بينها ممرات ضيقة وساحات صغيرة للاستراحة والرقص، وعلى مسافة صغيرة ساحة عامة واسعة للعبادة. وبهذا انتقل المجتمع السوداني من البناء بأغصان الأشجار وجلود الحيوانات للبناء بالحجارة والطين، كما ظهرت الهندسة العر2بية الإسلامية في بناءهم فظهر نظام الأقواس والنقوش، والتأثر بالطراز المغربي[1].

صورة لمسجد جيني

وفي المقابل تكيفت العمارة المغربية مع البيئة السودانية، فقد استخدم الطين في الربط بين الحجارة في الجدران واستخدم الطلاء الطيني لحماية الجدران وتماسكها أيضا، واستعمل البلاط من قوالب من الطين المجفف لتبليط أرضيات الغرف أو أحجار مهذبة، أما المواد النباتية كالأخشاب مثلا استخدمت في صناعة الأسقف، والأبواب في عمارة مدينة كومبي صالح. وأكدت صوفي بريتيه (Sophie BERTHIER) عن وجود تأثير إباضي في العمارة السكنية بكومبي صالح، نظرا للعلاقات الاقتصادية والتجارية بين الجماعات الإباضية والحواضر الصحراوية والسودانية. وفي مدينة تكدة خلال القرن 8هـ/14م كانت المنازل مبنية بالحجارة الحمراء، ويبدو بأن هذه التقنية عمت المناطق الشمالية ذات الطابع الصحراوي والمدن القريبة منها خاصة، عكس المناطق الداخلية ببلاد السودان أين تطغى تقنية البناء الطوبي الأسطواني والطيني[2].

2- تأثير العمران المغربي على العمران السوداني:

تأثرت العمارة السودانية بالعمارة المغربية، وتكيفت مع بيئتها الجديدة، وما تتوفر عليه من مواد بناء مختلفة عن تلك المعروفة في بلاد المغرب الإسلامي، ومن مظاهر هذا التأثير المغربي استخدام الطوب المستطيل المشوي الذي عثر عليه إثر تنقيبات أثرية بمدينة جاو، وهذا النوع من الطوب يطلق عليه اسم "توبابو فيري" أي "طوب الرجال البيض". ويرى بعض الباحثين أمثال ريموند موني (Raymound MAUNY) وحسين بوبيدي بأن مسألة أصول تقنية الطوب المحروق بجاو وغيرها من مدن السودان الغربي لا تزال بحاجة إلى مزيد من الدراسات، واستخدامه لم يدم طويلا، ما بين القرنين السادس والسابع

[1]- الهادي مبروك الدالي، المرجع السابق، ص 26.

[2]- حسين بوبيدي، المرجع السابق، ص 7.

الهجريين (حسب رأي موني)، ولعله أحد أشكال التأثير المرابطي على مدينة جاو (غاو)، فقد تأثرت دور الملك والأغنياء من أهل التكرور بالطوب المكوي (الآجر) المرابطي، وإن كان بعض المستكشفين يرون بأن هذا التأثر كان قبل الفترة المرابطية (كشوفات الأستاذين -ثاكيزاوا -Takizawa-وسيس-Cisse-).

كما تأثر العمران السوداني بالنمط المستقيم بالعمارة بدلا من النمط الدائري المعروف عندهم، واكتشف هذا في التنقيبات الأثرية التي عرفتها مدينة جني، مع استمرار الاعتماد على الطوب الأسطواني، مما يعني تكيف النمط العمراني المغربي مع البيئة السودانية ما بين القرنين الخامس والسادس الهجريين (11-12م)، كما أدخل التجار المغاربة تقنية البناء بالحجارة، خاصة بمدينة أودغشت التي استقر بها الصنهاجيون قبل أن يستقر بها تجار الشمال من نولة، وهو ما ذكره البكري في كتابه بعد أن استقرت بها قبائل نفوسة ولواتة ونفزاوة وزناتة وغيرها، وانتقلت هذه التقنية إلى مدينة كومبي صالح بعد تخريب المرابطين لمدينة أودغشت بعد استعادتها من الغانيين سنة 446هـ/ 1054م، وأصبحت مباني المسلمين من الحجارة وخشب السنط، كما اعتمدوا على الألواح الحجرية المحلية المختلفة الأحجام، وتكيفت العمارة المغربية مع البيئة السودانية، فقد استخدم الطين في الربط بين الحجارة في الجدران واستخدم الطلاء الطيني لحماية الجدران وتماسكها أيضا، واستعمل البلاط من قوالب من الطين المجفف لتبليط أرضيات الغرف أو أحجار مهذبة، أما المواد النباتية كالأخشاب مثلا استخدمت في صناعة الأسقف، والأبواب في عمارة مدينة كومبي صالح. وأكدت صوفي بريتيه (BERTHIER2Sophie) عن وجود تأثير إباضي في العمارة السكنية بكومبي صالح، نظرا للعلاقات الاقتصادية والتجارية بين الجماعات الإباضية والحواضر الصحراوية والسودانية. وفي مدينة تكدة خلال القرن 8هـ/14م كانت المنازل مبنية بالحجارة الحمراء، ويبدو بأن هذه التقنية عمت المناطق الشمالية ذات الطابع الصحراوي والمدن القريبة منها خاصة، عكس المناطق الداخلية ببلاد السودان أين تطغى تقنية البناء الطوبي الأسطواني والطيني[1].

كما تأثر السودانيون بالعمارة المغربية في بناء وتزيين القبور والعناية بها، وهو ما تم اكتشافه في شواهد قبور يرجع تاريخ بناءها إلى سنة 494هـ، إذ تم اكتشاف دفن السودان لموتاهم في رحاب المساجد وجوانبها مثلما هو معمول به في المغرب الأقصى[2].

[1]- حسين بوبيدي، المرجع السابق، ص 7.

[2]- مامادو كان، المرجع السابق، ص ص 216-217.

المحاضرة الثانية عشر: المذهب المالكي بالسودان الغربي

عرف المذهب المالكي انتشارا واسعا في مختلف أمصار المشرق والمغرب والأندلس حتى وصل إلى جنوب الصحراء ومنها إلى السودان الغربي، فانتشر في ممالكه بفضل للمغاربة الذين كان له دور أساسي في نشر الإسلام والثافة العربية الإسلامية بالمنطقة.

أولا: عوامل انتشار المذهب المالكي ببلاد السودان الغربي:

1- تغلب المذهب المالكي على غيره من المذاهب والنحل الإسلامية:

كان لأصحاب المذاهب الإسلامية دور وإسهام كبير وواضح في نشر الإسلام في بلاد السودان الغربي خلال القرن 2هـ/8م، ففي هذه الفترة نشطت التجارة التي ساهمت في نشر الإسلام، وكذلك دور السلطة السياسية في الشمال الإفريقي وبلاد السودان الغربي وتوفير الأمن على طول الطرق التجارية[1]، واستمر نشاط تجار الاباضية والصفرية الذين ترددوا على المنطقة طيلة القرن 3-4هـ/9-10م، فكان للاباضية مساهمة جادة في نشر الدعوة الإسلامية بين السودانيين، وقد وردت إشارة عند ابن بطوطة في زيارته لمملكة مالي تتحدث عن الحضور الإباضي بالمملكة "وبعد مسيرة عشرة أيام من إيولاتن وصلنا إلى قرية زاغري وهي قرية يسكنها تجار السودان يسمون ونجراته، ويسكن معهم جماعة من البيضان يتمذهبون مذهب الإباضية من الخوارج ويسمون صغنغو، والسنيون المالكيون من البيض يسمون عندهم توري".

تجب الإشارة هنا إلى أن شهادات الخوارج والشيعة لا تقول بأن دعاتهم كانوا يدعون لمذاهبهم بل اقتصر دورهم على نشر التعاليم الإسلامية بالمنطقة لا غير، لأنه لو كان عكس ذلك لذكرت مصادرهم أن قبيلا سودانيا اعتنق مذهب الخوارج أو المذهب الشيعي، وحتى السودانيون خلال القرنين 3-4هـ كانوا يعيشون بداية احتكاكهم بالمسلمين، وبداية تعرفهم على الإسلام، والبوادر الأولى لاعتناقهم الإسلام كانت مع نهاية القرن الرابع الهجري وبداية القرن الخامس الهجري مع المرابطين أي الفترة الأخيرة لانتصار المذهب المالكي ببلاد المغرب الإسلامي، وذهاب ريح الخوارج والشيعة، فقد عمل المرابطون على توحيد المرجعية المذهبية ببلاد المغرب والصحراء[2]، أي أن المرابطين انتصروا للمذهب المالكي وبذلك أصبح المذهب الرسمي لهم، لذا من الطبيعي أن يتبعهم السودانيون في مذهبهم.

2- ذيوع حديث الإمام مالك:

يرجع تعلق أهل السودان الغربي بالمذهب المالكي لأن صاحبه مالك بن أنس سكن المدينة موطن دار الهجرة، ولم يبرحها إلا حاجا، لهذا جذبت المدينة المنورة عددا من أبناء السودانيين الذين أقاموا بها مجاورين للحرم الشريف، كما يرجع الفضل لصاحب المذهب بنفسه في توطين المذهب في البلاد، لأنه عرف عنه التمسك بالسنة ومحاربة البدع وتشبه التام بآثار الصحابة والتابعين، وحسن سيرته واستقامة سلوكه، فهذه الصفات هي التي حببته إلى قلوب السودانيين، كما أُول ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم: "يُوشِكُ أَنْ يَضْرِبَ النَّاسُ أَكْبَادَ الإِبِلِ يَطْلُبُونَ العِلْمَ فَلَا يَجِدُونَ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنْ عَالِمِ المَدِينَةِ" بأنه يقصد الإمام مالكا، وازداد هذا الأمر رسوخا عند أتباع المذهب، ولأن المجتمع السوداني خاصتهم وعامتهم يعتبرون أن كل ما جاء من المدينة من

[1]- سحر عنتر محمد أحمد مرجان، **فقهاء المالكية و آثارهم في مجتمع السودان الغربي**، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ط1، 1432هـ/2011م، ص 101

[2]- أحمد الشكري، المرجع السابق، ص ص 272-273.

أمور دينية وفقهية هو الحق المطلق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لذا تعلقوا بالمذهب المالكي وتشبثوا به ولم يبغوا عنه بديلا[1].

3- ملائمة المذهب المالكي لطبيعة أهل السودان الغربي:

من أسباب اعتناق أهل السودان الغربي للمذهب المالكي أن أقرب المذاهب الفقهية لمزاج وطبيعة أهل السودان الغربي، ولسهولته ووضوحه، فهو مذهب يعتمد على القرآن الكريم، ويأخذ بالنص الصريح الذي لا يقبل التأويل، ويوثق الحديث بالقرآن[2]، فتلاءم هذا المذهب مع أهل السودان الغربي، وترك أثر في نفوسهم، لأنه يتفق مع طبيعة الفطرة في بساطتها ووضوحها دون تكليف أو تعقيد، وكما قال عمر الجيدي "المذهب المالكي مذهب عملي يعتدُ بالواقع، ويأخذ بأعراف الناس وعاداتهم، ويتمشى مع طبيعة الفطرة في بساطتها ووضوحها دون تكلف أو تعقيد" وهذا ما ساهم في ترسيخه ببلاد السودان.

كما ارتبط العلماء الأفارقة بالمذهب المالكي وتحكيم فقهه في كل القضايا المستجدة في الحياة اليومية، ونبذ المذاهب الأخرى، جعل المجتمع السوداني لا يرتاح ولا يطمئن إلا لهذا المذهب، الأمر الذي أسهم في نشر المذهب المالكي في السودان الغربي.

3- دعم السلطة الحاكمة للمذهب المالكي:

دعم حكام السودن المذهب المالكي وجعلوه المذهب الرسمي لدولهم، والتزام السلطة التنفيذية والتشريعية والقضائية بالمذهب المالكي في كل الأحكام جعله مذهبا رسميا في السودان الغربي مما ساعد على نشره، ويعد هذا العامل من أهم العوامل التي أدت إلى ترسيخ المذهب في السودان الغربي[3]، فقد أقبل حكام السودان على جلب الفقهاء المالكيين والتفقه في المذهب المالكي، فتثبت المذهب في المنطقة بفضل جهود هؤلاء الحكام الذين عملوا على نشره وفرض الحماية له، مثل سلطان مملكة مالي المنسا موسى سلطان الذي كان حريصا على جلب العلماء من المشرق والمغرب، وقد أثر عنه قوله – لما كان يذهب إلى الحج وزار السلطان الناصر بن محمد قلاوون: "إننا مالكيو المذهب، ولا نسجد لغير الله؛ لأننا مسلمون"، كذلك السلطان منسا سليمان المتحمس للثقافة العربية الإسلامية والمتشبث بالمذهب المالكي وثقافته، فحين تولى السلطة "بنى المساجد والجوامع والمنارات وأقام بها الجمع والجماعات والأذان وجلب إلى بلاده الفقهاء من مذهب الإمام مالك، ﷺ، وتفقه في الدين"، كما أن الفقهاء المالكية تولوا جميع المناصب وخطط الدولة مثل خطة القضاء والفتوى والكتابة وغيرها من الخطط الدينية، فأصبحت جميع الأحكام القضائية على نهج ومبادئ المذهب المالكي[4].

5- التأثير المغربي:

يرجع الفضل لبلاد المغرب في انتشار الإسلام وثقافته العربية في السودان الغربي، فاعتبرت بلاد المغرب القلعة الأمامية للمذهب المالكي، فلا غرو أن يكون من أولوياتها تثبيت المذهب المالكي في السودان الغربي وغيره، فقد أسهمت هذه الاتصالات في استقرار أعداد كبيرة من المغاربة من أهل العلم والفقهاء وقراء القرآن الذين أصبحوا منتشرين في السودان الغربي، فكان لأهل المغرب دور أساسي في أخذ السودانيين بالمذهب المالكي[5]، كما كان لمدينة القيروان فضل كبير في نشر المذهب المالكي في البلاد،

---

[1]- عبد الرحمن محمد ميغا، "دور علماء السودان الغربي في خدمة المذهب المالكي ونشره"، مجلة العلماء الأفارقة، العدد 6، السنة الثالثة 2023م ، ص 252.

[2]- محمد المختار محمد الماحي، **المذهب المالكي (مدارسه ومؤلفاته خصائصه وسماته)**، الإمارات العربية المتحدة، مركز زايد للتراث والتاريخ، ط1، 1422هـ/2002م، ص 448.

[3]- عبد الرحمن محمد ميغا، المرجع السابق، ص 252.

[4]- سحر عنتر محمد أحمد مرجان، المرجع السابق، ص 105.

[5]- أحمد الشكري، المرجع السابق، ص 270..

حتى ولو أن حضور الفقهاء المالكيين القيروانيين لم يكن مباشرا في المنطقة إلا أنهم ساهموا في نشر المذهب بمؤلفات الفقه المالكي، بالإضافة إلى فقهاء آخرين أخذوا العلم عن بعض الشيوخ المثقفين منهم الإمام سحنون و بن أبي زيد القيرواني.

6- الحج والرحلات العلمية:

كان للفقهاء المالكية المغاربة والمشارقة دور كبير أيضا في نشر المذهب المالكي في البلاد، وهذا من خلال رحلات الحج والرحلات العلمية السودانية، فقد عمل مسلمو السودان الغربي على تنظيم رحلات جماعية من أجل الذهاب إلى الحجاز من أجل أداء فريضة الحج، التي كانت بالإشراف الفعلي لملوك والأمراء، وذلك من خلال رعاية شؤون الحجاج ماديا، وكان المغرب محور التقاء هذه الوفود من حجيج أهل السودان الغربي، حيث كانوا ينظمون إلى وفود الحجاج المغاربةثم يتجهون في ركب واحد صوب مصر ويخرجون معهم إلى أرض الحجاز، مما أتاح لهم الفرصة للاحتكاك والتفاعل مع العلماء وأهل العلم والمعرفة[1]، وكثيرا ما ارتبطت رحلة الحج برحلة طلب العلم، حيث أن الرحلتين كان لهما أهمية كبيرة، وكانت الرحلة العلمية من المسائل المحمودة في السودان الغربي، باعتبارها عاملا مهما في توثيق الصلات والروابط مع أهل المغرب خاصة والمشرق، فقد أوجدت دعما للروابط في مختلف العلوم سواء العقلية أو النقلية، مثلا كان الحج عاملا مهما في نشر اللغة العربية والثقافة الإسلامية بمملكة كانم برنو التي أصبحت تعد من بين أكبر مراكز العلم والثقافة العربية في السودان الأوسط، وأنجبت علماء أجلاء تفتخر بهم معظمهم تلقوا علومهم من الأزهر الشريف كالعلامة سليمان الباغرمي والشيخ محمد الطاهر بن إبراهيم والشيخ محمد الكانمي.

فرحلات الحج ساعدت فقهاء السودان الغربي والأوسط على الاتصال بعلماء المشرق والمغرب والالتقاء بهم، كما أتاحت لهم فرصة الاطلاع على الكتب والمصنفات في شتى ألوان المعارف الإسلامية، فكانت القاهرة معبرا مهما لفقهاء السودان الغربي أثناء رحلتهم لتأدية فريضة الحج، وكان لفقهاء المالكية في مصر دورا كبيرا في توطين المذهب في نفوس سكان هذه البلاد، ومن بين أهم المراكز العلمية المالكية بمصر مدرسة ابن رشيق بالفسطاط التي بناها القاضي والفقيه المالكي المصري علم الدين بن رشيق سنة 640هـ/1241م، ودرس فيها المذهب المالكي.

ثانيا: المذهب المالكي في ممالك السودان الغربي:

1- المذهب المالكي بمملكة غانة:

كان لقوافل التجار المسلمين من بلاد المغرب إلى السودان الغربي دور مهم في نشر المذهب المالكي في تلك البلاد، إذ كان ضمن هذه القوافل الدعاة والفقهاء والعلماء الذين نشروا الدعوة الإسلامية، وقد كان الحكم القائم في غانة يتحلى بالتسامح الشديد، مما ساعد على انتشار الإسلام بين الأهالي، حيث أن هناك جماعة من المسلمين تقلدوا مناصب عليا في القصر الملكي، حيث تؤكد الكشوفات الأثرية التي عثر عليها في غانة مثل المساجد التي تقع في طريق القوافل التجارية التي تربط بين سجلماسة وغانة، فكانت هناك عادات وتقاليد في المصلحة لا تتناسب مع المسلمين إلا أن ملكها كان يعفيهم منها، وفي هذا يقول البكري: "...فإذا دنا أهل دينه منه جثوا على ركبهم ونثروا التراب على رؤوسهم فتلك تحيتهم له، أما المسلمون فإنما سلامهم عليه تصفيق باليدين"[2]، كما ساعدت الظروف التي كانت متاحة في غانة على التوافد بكثرة إلى المصلحة، حيث قدم إليها عدد كبير من

[1]- شوقي عطا الله الجمل، "الحضارة الإسلامية العربية في غرب إفريقيا سماتها ودور المغرب فيها"، مجلة المناهل المغربية، المغرب، العدد 7، 1976، ص 134.

[2]- البكري، المصدر السابق، ص 346.

المسلمين، فاحتوت على اثني عشرة مسجدا يجتمعون فيها، وبها الأئمة والمؤذنون وطلبة العلم، فكان معظم المغاربة الذين تولوا مناصب في المصلحة كالوزراء والمترجمون والكتاب على المذهب المالكي[1].

كما ساهمت دولة المرابطين وبشكل كبير بفضل جهادها في المنطقة في نشر ودعم المذهب المالكي في غانة في أواخر القرن 5ه/11م، ومن أجل تأكيد الارتباط القائم لهذه المملكة بمذهب السنة المالكي، أعلن ملك غانة تبعيته للخلافة السنية، كما أنه ادعى النسب العلوي، ليدعم نفوذه وحكمه في بلاده. وصحيح أن بعض هذه المناطق كانت قد عرفت الإسلام من قبل الأمر الذي يسر على المرابطين مهمتهم هناك، إذ لم يتعرضوا لأي مقاومة تذكر، وتحولت تلك المنطقة إلى بلاد إسلامية، وفتح بذلك طريق الغرب الإفريقي واسعا أمام الإسلام ليُنشر في إفريقيا، بل إن الفتح الإسلامي لبلاد إفريقيا أتاح لأهل تلك البلاد فرصة الدخول في ميدان الحضارة الإسلامية، وحتى بعد تلاشي الامتداد المرابطي نجد أن نطاق الإسلام قد اتسع حتى أصبح الديانة الغالبة على أهلها حتى مداخل نطاق الغابات، فكان المسلمون هناك على مذهب مالك، وهو المذهب الغالب في المغرب والأندلس، ومن ذلك العصر فصاعدا ستصبح بلاد مالي بلادا إسلامية.

ولقد أثرت الدعوة السلمية للإسلام في السودان الغربي في غانة منذ بداية القرن 5ه/11م، وبشكل عميق حيث انتصر الإسلام نهائيا بمذهبه السني المالكي، وأصبح الدين الرسمي لجميع الممالك السودانية ومنها غانة فاعتنق الحكام والمحكومين المذهب المالكي،وهكذا حظي المسلمون بالإيثار في غانة في عهد ملكها، فكان الملك الغاني يقرب المغاربة إليه ويعتمد عليهم في تنظيم أجهزة الدولة وتنظيم العلاقات الخارجية مع الدول الأخرى، وكذلك كان الملك يستأنس بهم ويخصص لهم امتيازات كبيرة، وكان معظم وزرائه وتراجمته على المذهب المالكي[2].

2- المذهب المالكي بمملكة مالي الإسلامية:

وكما هو الحال مع إسلام ملوك غانة الذين تحدث عنهم البكري، أورد كذلك قصة إسلام أحد ملوك مالي كاملة بقوله: "وملكهم يعرف بالمسلماني وإنما سُمي بذلك لأن بلاده أجدبت عاما بعد عام فاستسقوا بقرابينهم من البقر حتى كادوا يفنونها...وكان عنده ضيف من المسلمين يقرأ القرآن ويعلم السنة، فشكا إليه الملك ما دهمهم من ذلك، فقال له: أيها الملك، لو آمنت بالله تعالى وأقررت بوحدانيته وبمحمد عليه الصلاة والسلام...، فلم يزل به حتى أسلم وأخلص نيته وأقرأه من كتاب الله ما تيسر عليه، وعلمه من الفرايض [كذا] والسنن ما لا يسع جهله...، فأمر الملك بكسر الدكاكير وإخراج السحرة من بلاده، وصح إسلامه وإسلام عقبه وخاصته وأهل مملكته مشركون، فوسموا ملوكهم منذ ذاك بالمسلماني"[3].

وربما يكون إسلام هذا الملك قد تم على يد علماء المالكية الذين انتشروا في إفريقيا الغربية بعد قيام الدولة المرابطية، حيث اعتبرت سنة 441ه/1050م منعطفا تاريخيا تمثل في ظهور المذهب السني المالكي ذي النزعة الصارمة في تطبيق الدين الإسلامي، الذي عم الغرب الإسلامي ككل مع مجيء الحركة المرابطية بالصحراء الصنهاجية، والذي وصلت تعاليمه إلى غرب إفريقيا، وكان يطلق على دعاته اسم "توري" في مقابل الخوارج الذين كانوا يسمون بـ"صغنغو"، والدليل على انتشار المذهب المالكي بالمنطقة إقرار منسا موسى إبان رحلته لمصر أنه مالكي المذهب، واقتناؤه منها عدة مصادر وبعض الكتب في الفقه المالكي[4].

---

[1]- سحر عنتر محمد، المرجع السابق، ص ص 55-56.

[2]- إبراهيم علي طرخان، المرجع السابق، ص ص 53-54.

[3]- البكري، المصدر السابق، ص 178.

[4]- الحسين حديدي، "الممالك الإسلامية بغرب إفريقيا وإشعاع الحياة الفكرية بها في العصر الوسيط وبداية الحديث"، مجلة قراءات إفريقية، السنة 14، العدد 35، جانفي 2018م، ص 25.

وبالإضافة إلى جهود حكام تلك الدول التي دعمت وساندت المذهب المالكي في الذيوع والانتشار، حيث اتسعت مساحة مالي في عهد الملك سُنديتا كيتا (627-652هـ/1230-1255م) فزاد شهرتها وكثرة ثرواتها، مما كان سبب في استقطاب الكثير من العلماء والطلبة في مقدمتهم الفقهاء المالكية، وكذلك في عهد منسى موسى (712-737هـ/1312-1337م)، اشتهرت مالي وتعددت ثرواتها ومواردها ومراكزها التجارية وكذلك المراكز الثقافية، حيث قام ملكها بجلب الفقهاء إلى بلاده، وساندهم مما أدى إلى انتشار المذهب المالكي، ومن بين هؤلاء الفقهاء نذكر عبد الرحمان التميمي وأندغر محمد الكبير[1] وعبد الله البلبالي[2].

وهكذا ساهم ملك هذه المملكة في انتشار المذهب المالكي بفضل ما نقله من مؤلفات وشروح الكبار ففقهاء المالكية، حيث عرفت مالي في عهده دخول كتب كبار الفقهاء المالكية.فبفضل المساجد والفقهاء والخطباء حيث ساهموا بشكل كبير في نشر المذهب المالكي بين السكان عن طريق الخطب على المتاجر، وكذلك الدروس بعد كل صلاة، فأدى إلى تفقه أبناء هذه المملكة في الكثير من أمور دينهم حيث شاهد هذه الأمور ابن بطوطة خلال زيارته لمالي[3].

كما نجد أن للغة العربية فضل كبير ومساهمة فعالة في نشر المذهب المالكي وذيوعه في مالي، فاللغة العربية هي لغة الدين الإسلامي، فأصبحت لغة رسمية ولغة التخاطب بين السكان وجعلوها لغة مستخدمة في مختلف مجالات حياتهم، وكذلك الاتصالات بين المغرب والسودان، حيث أن أبرز هذه الاتصالات كانت علمية وثقافية، فرحل عدد كبير من الفقهاء من السودان الغربي إلى المغرب في عهد منسى موسى لطلب العلم، وبسبب تأثير اللغة العربية لدى أهالي السودان الغربي ظهرت حركة ثقافية فكرية علمية إسلامية شملت جميع ميادين العلم وبخاصة علوم اللغة العربية، والآداب والتاريخ ومختلف العلوم الفقهية والإسلامية، وهذا ما نتج عنه ظهور مؤلفات كثيرة في جميع ميادين العلم، فاللغة العربية لغة القرآن الكريم[4].

3- المذهب المالكي بمملكة سنغاي على عهد الأساكي (777-1000هـ/1375-1591م):

انتشر الإسلام في مملكة سنغاي نتيجة العلاقات التجارية التي ربطت الشمال الإفريقي ببلاد السودان الغربي، حيث طرق القوافل التجارية حملت معها أيضا المسلمين الذين يحملون معهم المذهب المالكي، حيث تغير الدور الدعوي من التجار الإباضيين إلى التجار المالكية ومنذ القرن 3هـ/9م، فالتجار والفقهاء كانوا على المذهب المالكي، جاءوا واستقروا في ملكة سنغاي، وانتشر الإسلام فيها، مما أدى إلى إسلام العديد من الحكام والملوك، واستقر الفقهاء والدعاة المالكين بمدينة جاو عاصمة سنغاي، مما دفع وشجع الحاكم الخامس عشر من حكام سنغاي الذي أسلم سنة 400هـ/1009م، وأعطى لنفسه لقب مسلم دام ومعناه في لغتهم أسلم طواعية وبدون إكراه.

وهناك شواهد وأدلة أثرية تؤكد على اعتناق أحد ملوك سنغاي الدين الإسلامي، حيث وجد قبر أحد الملوك هذه الدولة، والذي كتب عليه «هنا يرقد الملك أبو عبد الله بن محمد الذي دافع عن دين الله وهو الآن في رعاية الله وحصنه وكان هذا في عام 494هـ/1100م، حيث تؤكد هذه الشواهد على العلاقة القوية التي ربطت بين المرابطين حكام المغرب والأندلس مع ملوك

---

[1]- **أندغ محمد الكبير**: هو أبو عبد الله أندغر بن محمد بن عثمان بن محمد بن نوح معدن العلم والإصلاح، عالم جليل قاضي المسلمين، أخذ عنه أبناء العلم وأصبحوا شيوخ العلم.

[2]- **عبد الله البلبالي**: هو جد السعدي وأول البيضان صل بالناس في المسجد، ثم توجه إلى تنبكت رفقة الفقيه الإمام القاضي كاتب منسى موسى ثم رجع إلى فاس وخلفه في الإمامة. ينظر البرتلي أبو عبد الله الولاتي، **فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور**. تحقيق محمد إبراهيم الكتاني ومحمد حجي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1981، ص 150.

[3]- ابن بطوطة ، المصدر السابق، ص 677.

[4]- أمل بنت صالح بن غصاب الشمراني، "مجاورة بيت الله الحرام وأثرها الحضاري في بلاد السودان الغربي"، قراءات افريقية، العدد 16، 2018، ص 4.

سنغاي، فمن خلال الدراسة التي أقيمت على هذه الشاهدة تبين أنها نحتت في مدينة ألمرية الأندلسية، وهذا يؤكد التأثير السني المالكي للمرابطين على مملكة سنغاي، وأن المذهب المالكي هو مذهب هذه المملكة[1].

كما يرجع الفضل إلى أسكيا محمد الكبيرفي ارتفاع شأن المذهب المالكي ببملكة صنغاي، إذ أصبحت مدينة تنبكتو وجاو وغيرها من المدن مركزا مهما للفقه المالكي قصدها الفقهاء وطلبة العلم، وازدهر تدريس الفقه المالكي بها على يد كبير من العلماء والفقهاء، وفي هذا الصدد برزت أسرتان كبيرتان كان لهما الفضل في نشر المذهب المالكي في سنغاي، هما أسرة أقيت وأسرة بغيغ، كما قام الكثير من فقهاء المالكية السودانيين بالشرح والتعليق على أمهات الكتب في الفقه المالكي، وحازت هذه المؤلفات الفقهية على إقبال كبير إذ سعى إلى طلبها العلماء وطلبة العلم، مما مكن للمذهب المالكي من السيادة، وظهور جيل من الفقهاء والعلماء الذين اهتموا بتدريس هذا والتأليف فيه.

4-المذهب المالكي بمملكة التكرور:

أقدم إشارة لإسلام تكرور هي ما أخبرنا به ابن حزم الأندلسي حيث يقول: "بلغت في عام إحدى وثلاثين وأربعمائة أنه أسلم أهل سلا وتكرور، وهما أمتان عظيمتان من بلاد السودان، أسلم ملوكهم وعامتهم، ولله تعالى الحمد كثيرا"[2]، ومع النصف الثاني من نفس القرن يؤكد لنا البكري وصول الإسلام إلى هذه الممالك قبل الحملة المرابطية، فكانت مملكة تكرور أول مملكة سودانية تتحول بكاملها إلى الإسلام، وذلك عندما حكمهم ملكها واردیابي بن رابيس (وارجابي)، فكتب يقول: "وأهلها سودان وكانوا على ما سار السودان عليه من المجوسية وعبادة الدكاكير، والدكور عندهم الصنم، حتى وليهم وارجابي بن رابيس فأسلم وأقام عندهم شرايع الإسلام، وحملهم عليها، وحقق بصايرهم فيها، وتوفي وارجابي سنة اثنين وثلاثين وأربع مائة فأهل التكرور اليوم مسلمون" (432هـ/1040-1041م)، وتبعه في ذلك شعبه، وساهمت المملكة في نشر الإسلام بالمنطقة حتى أنها أعانت المرابطين في بعض حروبهم في الصحراء، فقد تحالف رئيس التكرور مع يحي بن عمر اللمتوني ضد جدالة عند مخالفة هذه الأخيرة لعبد الله بن ياسين سنة 488هـ/1057م مما يدل على عمق العلاقة بينها وبين قبيلة لمتونة[3].

لم يحاول ملك التكرور الجمع بين التعاليم الإسلامية والطقوس والتقاليد الوثنية كماحصل في مناطق أخرى من بلاد السودان،ولعل ذلك راجع لتحمسه لتطبيق الشريعة كما نزلت والعمل بها ونشر الدين في المناطق الأخرى، وهو ما ذكره لنا البكري، أما عن جهوده في نشر الإسلام في مملكة سلا وما نتج عن ذلك، فيقول: "وتسير من مدينة التكرور إلى مدينة سلا وهما مدينتان على شاطئ النيل (نهر السنغال) أيضا وأهلها مسلمون أسلموا على يد وارجابي رحمه الله...وملك سلا يحارب كفارهم وليس بينه وبين أولهم مسيرة يوم واحد".

وكان الإسلام في إمارة تكرور منتشرا على المذهب المالكي، ويرجع ذلك إلى الحيز الجغرافي للإمارة التي يقع على الضفة اليسرى لنهر السنغال،وهو يقابل مجال صنهاجة اللثام والذي يقع على الضفة الأخرى لهذا النهر خاصة قبيلة جدالة المالكية[4]، ومما لا شك فيه أن الفقهاء والدعاة والتجار كان لهم دور أساسي في تهيئة الأهالي لقبول الإسلام، وكان دائما يوجد الفقهاء إلى جانب الملك في تسير مقاطعته، وهذا لا يمثل حالة خاصة، وإنما ظاهرة عامة وجدت في مختلف الممالك الأخرى[5].

---

[1]- سحر عنتر محمد أحمد مرجان، المرجع السابق، ص 50.

[2]- ابن حزم الأندلسي، **رسائل ابن حزم الأندلسي**، ج 2، تحقيق إحسان عباس، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1981م، ص 133.

[3]- البكري، المصدر السابق، ص 172.

[4]- سحر عنتر محمد أحمد مرجان، المرجع السابق، ص 52.

[5]- البكري، المصدر السابق، ص 362.

ثالثا: جهود الفقهاء السودانيين في خدمة المذهب المالكي:

يتجلى دور علماء السودان الغربي في خدمة المذهب المالكي ونشره في المنطقة من خلال عدة جوانب منها: التدريس والفتيا، والقضاء والإمامة، والخطابة والتأليف، والرحلات العلمية.

1- التدريس:

اجتهد علماء السودان في طلب العلم، وحرصوا على أن يتعمقوا في الفقه المالكي، فدَرسوا أصوله وفروعه واستظهروا متونه المطولة والمختصرة، وبعدما استوعبوه قاموا بتدريسه في كل المراحل الدراسية، وبذلك أسهموا في خدمة المذهب المالكي ونشره وترسيخه في المجتمع السوداني عن طريق التدريس، ومن بين الكتب الفقهية المعتمدة في مجالس التدريس نذكر الموطأ، مدونة سحنون التي تعتبر أقدم كتاب وصل إلينا في المذهب المالكي بعد الموطأ، وتعد ثمرة جهود ثلاثة من الأئمة: مالك بإجاباته، وابن القاسم بقياساته وزياداته، وسحنون بتهذيبه وتنقيحه وتبويبه وبعض إضافاته. وهي أصل المذهب المالكي وعمدة الفقهاء في القضاء والإفتاء بعد الموطأ في الفقه المالكي، وإليها كانوا يرجعون فيما أشكل عليهم من المذهب، كتاب التهذيب للبرادعي كان من الكتب المعتمدة في الفتوى عند المالكية، وظل مقررا في الدراسات الفقهية خلال أربعة قرون قبل أن يزحزحه مختصر ابن الحاجب، الرسالة لابن أبي زيد، ومختصر خليل، الجامع لابن يونس، ومختصر ابن الحاجب، وأحكام البرزلي، والمعيار المعرب للونشريسي، والمرشد المعين لابن عاشر، ولامية الزقاق، ونوازل عبد القادر الفاسي، وتبصرة الحكام لابن فرحون، هذه بعض الكتب الفقهية التي كانت لها الصدارة في الحلقات العلمية بالسودان الغربي على مر العصور.

2- الفتوى:

نظرا لأهمية الفتوى أحاطها العلماء بسياج من الرعاية؛ لأن عليها تتوقف مصالح الناس، وبها يهتدون في شؤون دينهم ودنياهم. ولذا قيل "الفتيا توقيع عن الله تبارك وتعالى"، وقد حرص علماء السودان الغربي أن يتقيدوا بالمذهب المالكي في القضايا التي كانت ترفع إليهم، وبذلك أسهموا في نشر المذهب المالكي في السودان الغربي وخدمته، حيث برهنوا عن طريق الفتوى على أنهم قادرون على مواجهة المستجدات والمشكلات الواقعة والمتوقعة، وأعطوا بذلك الحلول للنوازل والقضايا التي لم يرد فيها نص، وأثبتوا بذلك قدرتهم على مسايرة التطور البشري والزماني، وهكذا أسهموا في خدمة الفقه المالكي ونشره، وبينوا أنه فقه قابل للتطور؛ لمرونته واستيعابه لكل ما يجد في ساحة المعاملات.

3- القضاء

نظرا إلى أهمية خطة القضاء في الإسلام فإن علماء السودان الغربي اهتموا بها كثيرا لفض الخصومات والمنازعات التي تجري بين الناس، ولإقامة العدل، وحفظ الحقوق والأمن والمحافظة على الأنفس والأموال وإقامة الحدود والأحكام[1]، لذا تولى منصب القضاء أعدل الفقهاء ، وهذا أحمد بابا التنبكتي يحدث عن أحد أفراد أسرته الفقيه محمود بن عمر بن محمد أقيت الذي تولى القضاء في السودان فيقول عنه: أنه لما ولي القضاء بمدينة تنبكت عام 904 هجرية "شدد في الأمور وسدد وتوخى الحق في الأحكام، ولذوي الباطل هدد، فظهر عدله بحيث لا يعرف له نظير في وقته".

ارتبط القضاء في المجتمعات الوثنية السودانية بشخص الملك، لكونه يجسد العدالة فهو رمز القوى الحيوية التي تتحكم في العلاقات بين أفراد المجتمع، فيحدثنا البكري أن ملك غانة كان يجلس للنظر في مظالم الناس بحضور ولي عهده ووالي

[1]- محمد مولاي، **القضاء والقضاة ببلاد السودان الغربي من أواخر القرن التاسع هجري حتى الثاني عشر هجري (15-18م)**، أطروحة دكتوراه علوم غير منشورة، جامعة وهران 1، قسم الحضارة الإسلامية، 2019/2018، ص 75.

المدينة وكبار الموظفين، ومع تبني المجتمعات السودانية للإسلام أصبح القضاء وفقا لأحكام الشريعة الإسلامية، ففي مملكة مالي يؤكد ابن بطوطة على البعد الاجتماعي لمؤسسة القضاء التي يرأسها الملك إلى جانب الفقهاء والقضاة، ويعتمد في أحكامها على العرف، ومع حكم الأساكي لسنغاي عرف القضاء قفزة نوعية لأن الملك الأسكيا محمد قرر بناء دولة جديدة تستند على شرائع الاسلام، واعتمد على الفقه المالكي تحديدا، فاعتمد في تطبيق مشروعه على فقهاء المالكية الوافدين كالمغيلي والسيوطيوعلى الفقهاء المالكية السودانيين كالقاضي الفقيه الشيخ عثمان، مما ساهم في إرساء قواعد المذهب المالكي بالسودان[1].

4- الإمامة:

يعتبر منصب الإمامة من أهم المناصب التي تولاها علماء السودان الغربي. ومهمة الإمام هي إمامة المصلين في المسجد، ويعتبر هذا المنصب مفتاح باب الولوج إلى سلك القضاء، لأنه لا يسند القضاء إلى أي عالم إلا بعدما يتولى الإمامة ويقضي فيها عدة سنوات، كما لا يتم إسناد الإمامة إلى أي عالم إلا باتفاق أهل المدينة أو البلدة وبموافقة القاضي، ويكون مالكيا، وبذلك خدم علماء السودان الغربي المذهب المالكي من خلال هذه الخطة. وتعد الإمامة من الوظائف التي تكون شبه وراثية في بعض الأسر العلمية السودانية المشهورة بالعلم والصلاح كأسرة أقيت وأندغ وكعت[2].

5- الخطابة:

الخطابة هي من الوسائل التي استطاع بها العلماء الأفارقة خدمة المذهب المالكي، لما لها من أهمية كبيرة لأنها "تفض المشاكل وتقطع الخصومات، وتهدئ النفوس الثائرة وتثير حماسة ذوي النفوس الفاترة، وترفع الحق وتخفض الباطل، وتقيم العدل وترد المظالم، وهي صوت المظلومين ولسان الهداية"، ونظرا لمكانة الخطباء في الوعظ الديني خصص حكام السودان هذه الوظيفة للعلماء العاملين الناصحين ليؤدوا دورهم في المجتمع الذي هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من على المنابر في المناسبات الدينية الأسبوعية والسنوية، ولا يتولى هذا المنصب -إلى وقت قريب- إلا من كان مالكيا، وبذلك أسهموا في خدمة المذهب المالكي ونشره في المنطقة[3].

6- التأليف:

ألف العلماء السودانيون العديد من الكتب التي تخدم المذهب المالكي، إذ وضعوا على مختصراته خاصة مختصر خليل مختلف الشروح والحواشي والتعاليق، ولعل أعمال أحمد بابا التنبكتي في المذهب المالكي من أبرز ما يمثل مساهمة علماء السودان في خدمة المذهب المالكي وفقهه، حيث وضع شروحا وحواشي وتعاليق على مختصر خليل وألف كتابين مفيدين في التعريف بعلماء المذهب المالكي، وظل يدافع عن المذهب بلسانه وقلمه إلى أن فارق الحياة. ومن أهم كتبه التي نالت إعجاب المغاربة كتابه "منن الرب الجليل ببيان مبهمات خليل" الذي قال عنه: "... وقد يسر الله تعالى لي في وضع شرح عليه (أي مختصر خليل) جمعت فيه لباب كلام من وقفت عليه من شراحه وهم أزيد من عشرة مع الاختصار والاعتناء بتقرير ألفاظه، منطوقا ومفهوما وتنزيله على النقول، بحيث لو كمل لما احتيج غالبا إلى غيره"

7- الرحلات العلمية:

ومن الوسائل التي استطاع بها علماء السودان الغربي أن يساهموا في خدمة المذهب المالكي الرحلات العلمية بين السودان الغربي والدول المغاربية، حيث إن كثيرا من علماء المغرب العربي زاروا السودان الغربي ودرسوا الفقه المالكي فيها، الأمر

[1]- زوليخة بنرمضان، المرجع السابق، ج1، ص 253، 255-257.

[2]- عبد الرحمن ميغا، المرجع السابق، ص 263.

[3]- المرجع نفسه، ص 264.

الذي أسهم في نشر المذهب وخدمته وترسيخه في المنطقة، كما أن فقهاء السودان رحلوا إلى المغرب ودرسوا هناك ثم رجعوا إلى ديارهم، فجلسوا لتدريس الفقه المالكي في المساجد والقصور والمجالس، مما ساهم في خدمة المذهب المالكي ونشره في المنطقة.

ومن الرحلات العلمية التي تركت بصمات واضحة في خدمة المذهب المالكي ونشره بالسودان الغربي زيارة الإمام المغيلي للسودان، ورحلة أحمد بابا التنبكتي إلى مراكش حيث كتب يقول: "...لما خرجنا من المحنة طلبوا مني الإقراء فجلست بعد الإباية بجامع الشرفاء بمراكش من أنوه جوامعها، أقرئ مختصر خليل قراءة بحث وتدقيق ونقل وتوجيه، وكذا تسهيل ابن مالك وألفية العراقي، فختمت علي نحو عشر مرات، وتحفة الحكام لابن عاصم، وجمع الجوامع للسبكي، وحكم ابن عطاء الله، والجامع الصغير للجلال السيوطي قراءة تفهم مرارا، والصحيحين سماعا علي وإسماعا مرارا ومختصرهما، وكذا الشفا والموطأ والمعجزات الكبرى للسيوطي، وشمائل الترمذي والاكتفاء لأبي الربيع الكلاعي وغيرها. وازدحم عليّ الخلق وأعيان طلبتها ولازموني، بل قرأ عليّ قضاتها كقاضي الجماعة بفاس العلامة أبي القاسم بن أبي النعيم الغساني وهو كبير ينيف على الستين وكذا قاضي مكناسة... ومفتي مراكش الرجراجي وغيرهم، وأفتيت فيها لفظا وكتبا بحيث لا توجه فيها الفتوى غالبا إلا إلي، وعينت لها مرارا فابتهلت إلى الله تعالى أن يصرفها عني، واشتهر اسمي في البلاد من سوس الأقصى إلى بجاية والجزائر وغيرها، وقد قال لي بعض طلبة الجزائر وقد قدم علينا مراكش: لا نسمع في بلادنا إلا باسمك فقط"[1].

[1]- أحمد بابا التنبكتي، **كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج**، دراسة وتحقيق محمد مطيع، المغرب، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1421هـ/2000م، ص ص 34-35.

المحاضرة الثالثة عشر: التصوف والعقيدة الأشعرية في السودان الغربي

تمهيد

تعتبر منطقة السودان الغربي من أهم المناطق التي تأثرت بالمغرب الأقصى منذ قرون طويلة؛ ولهذا تبنت مجموعة من المبادئ الإسلامية التي جاءتها عن طريق المغرب، ومن هذه المبادئ الإسلامية التي كان للمغرب فضل السبق في إدخالها لمنطقة السودان الغربي، كالتصوف والعقيدة الأشعرية التي تسربت إلى المنطقة منذ أن تبناها المغاربة مذهبا رسميا للدولة المغربية في عهد الموحدين حتى أصبحت العقيدة المفضلة لدى المجتمع السوداني بفضل هجرة المغاربة إلى المنطقة– وخاصة حملة العلم منهم- الأمر الذي أدى إلى تلاقح فكري وتواصل اجتماعي بين المنطقتين.

أولا: التصوف:

من أبرز التأثيرات الثقافية المغربية في بلاد السودان هي إقبال السودانيين على علم التصوف، فقد تأثروا بنظريات المتصوفين الأندلسيين والمغاربة، وبرزت ظاهرة التصوف أكثر حين بدأت حركة التفاف المريدين والزوار حول شيخ الطريقة أو الزاوية، وإن كان من الصعب تحديد بداية تأثير الطرق الصوفية في السودان والتزامهم الاعتكاف في الزوايا والجوامع،وكان للمتصوفة دور مهم في التعاون والتضامن الديني والاجتماعي[1].

لا شك أن من استطاع إدخال الإسلام في ذهنيات السودان الغربي هم المتصوفة أكثر من غيرهم، فقد اختلطوا بطبقات الشعب المختلفة وتعايشوا مع الفقراء والعامة إضافة لتقديمهم خدمات اجتماعية مما مهد انتشار الطرق الصوفية تماشيا مع البيئة الإفريقية وعاداتهم وتقاليدهم[2]، حيث كان أسلوب المتصوفة مميزا بعيدا عن أسلوب التجار الذين نزلوا بالمدن، فرجال الصوفية كانوا يميلون إلى القرى والأرياف، كما أنهم لم يكترثوا للمال فقد عملوا على تصحيح العقيدة الإسلامية في ذهنيات السودانيين بعدما اختلطت بالمعتقدات الوثنية[3].

ومن هذه الطرق الصوفية الطريقة القادرية التي دخلت بلاد السودان الغربي خلال القرن التاسع للهجرة بواسطة مهاجرين من توات وولاته[4] الذين اتخذوا من ولاته مركزا لدعوتهم، ويرجع الفضل في ازدهار هذه الطريقة إلى قبيلة كنته، فقد كانت هذه الطريقة من أوسع الطرق انتشارا وأعمقها في بلاد السودان الغربي، ومن أهم شخصياتها مختار الكنتي، وقد كان أتباع هذه الطريق يرسلون أولادهم للدراسة في القيروان، حيث ارتبط الإسلام بالصوفية كثيرا بحيث أصبح الفرد مسلما قادريا، ومن غير العادة أن يكون مسلما غير منتسبا للطريقة الصوفية، حيث كانوا يؤمنون بخوارق العادات لدى هؤلاء المتصوفة، كما انتسبت لهم صفة الأولياء الصالحين، كما كان يتبرك بهم الناس[5].

وانتشار الطرق الصوفية تزامن مع استقرار المذهب المالكي منتصف القرن الخامس الهجري بفضل الفقيه عبد الله بن ياسين، فازدهرت الطرق الصوفية بمختلف فروعها عقب رحلة حج السلطان منسا موسى، ومن الطرق التي انتقلت لبلاد السودان القادرية والتيجانية والسنوسية، وكان عبد الكريم المغيلي أول من أدخل الادرية إلى بلاد السودان عبر توات أما محمد الحافظ العلوي الشنقيطي أول من أدخل تعاليم التيجانية إلى الصحراء وبلاد شنقيط، واتسع نفوذ السنوسية على يد دعاة

[1]- مامادو كان، المرجع السابق، ص ص 245-246.

[2]- إبراهيم الشيخلي، المرجع السابق، ص 258.

[3]- محمد فاضل علي باري، المرجع السابق، ص 42.

[4]- الهادي مبروك الدالي، المرجع السابق، ص ص 102-103.

[5]- عبد القادر زبادية، المرجع السابق، ص 255.

وفدوا من طرابلس وتوات، وقد حظيت الطريقة القادرية الكنتية بنفوذ روحي وثقافي وسياسي واقتصادي واسع في المنطقة، فكانت في خدمة التعليم والفتوى وضبط ونشر الأمن وسط قبائل الصحراء لا سيما صحراء أزواد، وفي نفس الوقت عرفت تنافسا حادا مع الطريقة التيجانية[1]، إضافة للدور الذي لعبه المتصوفة في نشر الإسلام، فقد أسسوا المدارس الصوفية والزوايا، وقد كانوا يدعون القبائل الوثنية المحلية لاعتناق الإسلام وعملوا على نشر الإسلام، وقد درسوا في مدارس وجامعات بالمغرب وطرابلس، كما كانت دعوتهم سلمية[2].

ثانيا - العقيدة الأشعرية:

إن كتب تاريخ السودان الغربي والتراجم لا تنص على تاريخ وصول هذه العقيدة إلى المنطقة، لكن الشيء المؤكد، والذي لا مراء فيه أن المجتمع السوداني منذ القرن الثامن الهجري لم يعرف عقيدة ولا مذهبا إلا المذهب المالكي والعقيدة الأشعرية والتصوف السني المعتدل أسوة بشيوخهم المغاربة، ومما يؤكد هذا الكلام ما يلي:

- أن بعض الفقهاء يؤكدون أن أغلب أتباع المذاهب الفقهية كانوا يتمذهبون بهذه العقيدة التي تعتبر عقيدة أهل السنة والجماعة، فإذا كان جميع المالكيين يتمذهبون بهذه العقيدة، فإن السودانيين الذين يعتبرون تلامذة لشيوخ المغاربة أحرى أن يتمذهبوا بعقيدة شيوخهم.

- ما جاء في مقدمة كتاب فتح الشكور أن من الطابع المغربي للثقافة العربية في السودان الغربي العقيدة الأشعرية، والمذهب المالكي والانتماء إلى طريقة الجنيد في التصوف، وإذا كان المجتمع السوداني تأثر بالمجتمع المغربي في المذهب وفي باقي مناحي الحياة الاجتماعية، فإن تأثرهم بالمجتمع المغربي في الجانب العقدي أحرى أن يكون.

- عدم تنصيص كتب التاريخ على أشعرية المجتمع السوداني يرجع إلى بداهته؛ إذ لم يعرف المجتمع السوداني خلال القرن الثامن الهجري إلى وقت قريب أي عقيدة غيرها؛ ولهذا إذا نظرت إلى كتب التراجم وكتب التاريخ التي كتبت في القرن التاسع إلى القرن الحادي عشر في السودان الغربي فلا تجد كتابا ينص على هذا الجانب، مثل نيل الابتهاج وكفاية المحتاج لأحمد بابا وتاريخ السودان للسعدي وتاريخ الفتاش لكعت، بل حتى كتب التراجم التي كتبت بعد القرن الحادي عشر لا تنص على هذا الجانب إلا نادرا، فمثلا فتح الشكور الذي ترجم لكثير من علماء التكرور لم ينص على أشعرية المترجمين إلا في أربعة مواضع فقط، عندما ترجم صاحب الكتاب لنفسه حيث جاء في مقدمته: "... قال الشيخ الفقيه الولي... المالكي الأشعري اعتقادا"، ذكر أيضا في ترجمة الفقيه الأمين بن محمد بن عيسى أنه مالكي المذهب أشعري الاعتقاد، وفي ترجمة الطالب محمد بن الطالب عمر يقول: ".. المالكي مذهبا، الأشعري اعتقادا، الشاذلي طريقة"، وفي ترجمة عمر بن الخطاط يقول: "... المالكي مذهبا، الأشعري اعتقادا"[3].

1- العوامل التي أسهمت في ترسيخ العقيدة الأشعرية في السودان الغربي

إن منطقة السودان الغربي منذ أن دخل أهلها في الإسلام واستقرت عقائده في نفوسهم ما عرفوا إلا الفقه المالكي والعقيدة الأشعرية، والتصوف السني المعتدل، وقد ساعد في ترسيخ العقيدة الأشعرية وتجذرها في مجتمع السودان الغربي عدة عوامل، منها:

أ- خلو منطقة السودان الغربي من تيارات فكرية غير العقيدة الأشعرية

ب- جهود العلماء المغاربة

---

[1]- مامادو كان، المرجع السابق، ص 246.

[2]- إبراهيم الشيخلي، المرجع السابق، ص 262.

[3]- عبد الرحمن ميكا، "العقيدة الأشعرية في السودان الغربي وأعلامها"، مجلة العلماء الأفارقة، العدد 2، السنة الأولى 2020م، ص ص 132-133.

ج- هجرة كثير من علماء المغاربة إلى السودان الغربي

د- دور العلماء السودانيين الذين كان لهم اليد الطولى والفضل الكبير في انتشار العقيدة الأشعرية، حيث أخذوا لواء نشرها بين المجتمع وطلبة العلم، واعتنوا بكتبها شرحا وتأليفا وتدريسا وتعليق.، فمن بين هؤلاء القاضي محمود الذي قضى حياته في تدريس العقيدة السلالجية، والفقيه أحمد بن أحمد بن عمر أقيت الذي كان يدرس "أم البراهين"، والفقيه محمد بن محمود بغيغ الذي قضى عمره في ترسيخ هذه العقيدة من خلال تدريسه عقائد السنوسي وشرح الجزائرية عليها، والشيخ أحمد بابا التنبكتي الذي له شرح على "أم البراهين"، والفقيه محمد بن أحمد بن القاضي محمد بن بكر بغيغ الذي نظم "أم البراهين" نظما حسنا فوجدت قبولا كبيرا في أوساط العامة والخاصة[1].

هـ- تبني مجتمع السودان الغربي للمذهب المالكي مذهبا رسميا.

و- اتباع المقررات الدراسية المغربية التي أسهمت كثيرا في ترسيخ العقيدة الأشعرية في المجتمع، ويعزز هذا الكلام أيضا ما ذكره المؤرخ النيجيري عبد الله الألوري حين ذكر التأثير المغربي على السودان الغربي فقال: "وأهم المواد المقررة من العلوم والفنون هي: التوحيد الأشعري والفقه المالكي والقصائد الوعظية"

ز- سيادة الكتب التي لها صبغة أشعرية على الكتب الدراسية فأغلبها أو كلها ذات توجه أشعري مثل الرسالة لابن أبي زيد القيرواني والبرهانية للسلالجي والعقيدة الكبرى والصغرى للسنوسي وابن عاشر وغيرها من الكتب التي تركت بصمات واضحة في ترسيخ العقيدة الأشعرية في الغرب الإسلامي، فقد أثرت هذه الكتب الثلاثة على مجالس الدرس في المغرب والسودان الغربي أن رسالة ابن ابي زيد القيرواني- التي تعد مقدمتها خلاصة عقيدة المغاربة والمجتمع السوداني- قد حافظت للغرب الإسلامي عامة والسودان الغربي خاصة على مذهب الإمام مالك الفقهي ومذهبه العقدي طيلة قرون؛ فذاعت شهرتها في الآفاق وتولاها كثير من العلماء بالشرح والتعليق، وظلت تدرس في الحلقات العلمية إلى يومنا هذا، أما "العقيدة البرهانية" للسلالجي فقد وجدت انتشارا واسعا في المغرب والسودان الغربي وأقبل عليها العلماء بالشرح والتدريس والتعليق، وبقيت مهيمنة على مجالس العلم في المغرب والسودان إلى أن ألف العلامة السنوسي عقيدته الصغرى أو "أم البراهين"، فكتبت لها الشهرة والانتشار في الحلقات العلمية لصغر حجمها وبُعدها عن التعقيد، فأقبل عليها أهل العلم بالدرس والشرح والتعليق والتنظيم، وأضحت الكتاب المفضل في العقيدة، الذي نال الاهتمام والعناية في معظم الحلقات العلمية في السودان الغربي.

ح- ترسيخ المؤسسات العلمية للعقيدة الأشعرية كان للمؤسسات الدينية والعلمية مثل جامع سَنْكري وجِنْغَريْ بير وجامع سيدي يحيى التادلي وغيرها فضلٌ كبير في نشر العقيدة الأشعرية، واستمرار وجودها بالسودان الغربي، حيث كانت محل عناية علمائها الذين يقومون بشرحها وتحليلها وتدريسها في الحلقات العلمية التي تعقد في هذه المؤسسات. وهكذا أسهمت المؤسسات الدينية والعلمية في الحفاظ وترسيخ هذا الفكر السني المعتدل في المجتمع منذ قرون، وبقيت تقوم بدورها في هذا الجانب إلى وقت قريب.

2- العلماء الذين رسخوا العقيدة الأشعرية:

أ- الفقيه مودب محمد الكابري،**الفقيه الإمام الولي السالك سيدى يحيى التادلي أو التادلسي بن عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن يحيى البكاء** بلغ الغاية القصوى في العلم والولاية. ويعتبر رحمه الله، من الرعيل الأول من العلماء الذين أسهموا في

[1]- عبد الرحمن ميكا، المرجع السابق، ص 137

ترسيخ العقيدة الأشعرية في السودان الغربي، ونظرا إلى مكانته العلمية أثنى عليه عدة علماء من المنطقة، منهم: القاضي محمود أقيت الذي قال عنه: «ما وطئت قدم تنبكت قط إلا وسيدي يحيى أفضل من صاحبها"

ب- **العلامة الفقيه أحمد بن عمر بن محمد أقيت بن عمر بن علي بن يحيى التكروري التنبكتي:** كان فقيها نحويا حافظا مشاركا، ويعتبر من العلماء الذين لهم دور كبير في ترسيخ الفقه المالكي والمذهب الأشعري في السودان الغربي من خلال حلقاته العلمية.

ج- **العلامة الفقيه قاضي الجماعة في السودان الغربي، أبو الثناء محمود بن عمر بن محمد أقيت بن عمر بن يحيى الصنهاجي التنبكتي:** قاضي السودان وعالم التكرور وإمامها وفقيهها بلا منازع، لازم التدريس نحو خمسين سنة، وأكثر ما يدرس المدونة والرسالة ومختصر خليل والألفية والسلالجية، وعنه انتشرت قراءة خليل في السودان الغربي. وأسهم رحمه الله بتدريسه الكتب الأشعرية في مجالس الدرس في تكريس الفقه المالكي والعقيدة الأشعرية في المنطقة.

د- **الفقيه القاضي العاقب بن محمود بن عمر بن محمد أقيت بن عمر بن علي بن يحيى قاضي تنبكت:** كان عالما فقيها، عالي الكعب في العلوم الإسلامية، مسددا في أحكامه، صلبا في الحق لا يخاف في الله لومة لائم، قوي العارضة، كرس جهوده في ترسيخ الفقه المالكي والمذهب الأشعري، وإرساء قواعد العدل والحق في المنطقة.

هـ- **الفقيه العالم العلامة البحر الفهامة مجدد القرن العاشر في السودان الغربي الشيخ محمد بن محمود بن أبي بكر الونكري التنبكتي المعروف ببغيغ:** كان عالما علامة متفننا، محققا دراكا، ذكيا فطنا، غواصا على اللطائف... وله رحمه الله عدة مؤلفات، منها: تعاليقه على مختصر خليل، نبه فيه على ما وقع فيه شراح خليل من الهفوات، منظومة على "أم البراهين"... وبقي رحمه الله طول حياته في التدريس والفتوى والقضاء بين الناس، وترسيخ المذهب المالكي والعقيدة الأشعرية في المنطقة.

المحور التاسع

الأثر السوداني في بلاد المغرب

المحاضرة الرابعة عشر: الأعلام السودانيون

أولا: الفقهاء والعلماء السودانيون:

بدخول المذهب المالكي لبلاد السودان الغربي، برزت فئة من الفقهاء والعلماء الذين أسهموا في ازدهار الحركة العلمية في البلاد، إضافة إلى دورهم المهم في شتى المجالات كالاجتماعية والسياسية، فبرز رواد في شتى صنوف المعرفة خصوصا علوم الشريعة، ضف إلى ذلك جهودهم في إنتاج تلاقح فكري بينهم وبين الأمصار الإسلامية الأخرى كبلاد المغرب ومصر وبلاد الحجاز.

1- الفقهاء السودانيون:

الفقيه محمد بن أحمد التازختي (ت: 936هـ/1529م): فقيه عالم محدث درس على يد الفقيه أحمد بن عمر أقيت، ثم ارتحل إلى مدينة تكدة وجالس الإمام المغيلي، وأخذ عنه العلم، وكانت له رحلة إلى مصر وبلاد المشرق بصحبة الفقيه محمود بن عمر أقيت[1]، التقيا من خلالها بالقلقشندي وشيخ الإسلام زكرياء وعبد الحق السنباطي، حيث أخذ عنهم مجموعة من العلوم، فأصبح من المتضلعين في علم الحديث، وأجازه الشيخ ابن بركات النويري في مكة المكرمة، وبعد عودته اشتغل بالتدريس والإفتاء إلى جانب القضاء[2].

الفقيه أحمد بن عمر بن محمد أقيت التنبكتي (ت:942هـ/1536م): المعروف بالحاج أحمد وهو الفقيه أحمد بن عمر بن علي بن أقيت جد أحمد بابا التنبكتي، وهو أكبر الإخوة الثلاث المشهورين من عائلة أقيت عرف بالحاج أحمد، كان من أهل الخير والفضل والدين حافظ على السنة، وتضلع في الفقه والعلم، قال فيه أحمد بابا التنبكتي: "كان فقيها نحويا لغويا عروضيا محصلا بارعا حافظا...جمع كثير من الفوائد والتأليف"، كانت له رحلة حج سنة 890هـ/1485م لقي فيها جلال الدين السيوطي[3]، درس بكانو سنة 893هـ/1487م ثم رجع للسودان الغربي أين جلس للتدريس بجامع سنكري وبقي في التدريس والتأليف لغاية وفاته[4].

الشيخ الفقيه أبو المحاسن محمود بن عمر بن محمد أقيت (ت:955هـ/1448م): نجل الفقيه عمر بن محمد أقيت ولد سنة 868هـ/1462م، فقيه عالم اشتغل بالقضاء، وصفه التنبكتي بقوله: "أبو الثناء وأبو المحاسن عالم التكرور وصالحها ومدرسها وفقيهها وإمامها وقاضيها وكان من خيار عباد الله الصالحين، من أجل أعلام العلماء في بلاد السودان الغربي، سافر لأداء فريضة الحج عام 915هـ/1509م أين التقى بمجموعة من الشيوخ كالشيخ زكرياء بن محمد الأنصاري (ت:926هـ) وشمس الدين اللقاني (ت:958هـ) وغيرهما، ثم رجع إلى بلده فجلس لتدريس والإفتاء مدة خمسين سنة أين ركز على تدريس كتب الفقه المالكي، وتولى القضاء في تُنبكتُ من عام 904هـ لغاية وفاته سنة 955هـ.

الفقيه أحمد بن أحمد بن عمر أقيت (ت:991هـ/1584م): هو كما وصفه البرتلي فقيه عالم ذو رأي ومحدث أصولي بياني رقيق القلب، عظيم الجاه، وافر الحرمة عند الملوك وكافة الناس، حيث كان محبا في أهل الخير متواضعا لهم، وجماعا

---

[1]- أحمد بابا التنبكتي، **نيل الابتهاج بتطريز الديباج**. مج 2، تحقيق علي عمر، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ط1، 2004، ص 587.

[2]- أحمد السيد باز، **الحياة العلمية والثقافية في بلاد السودان الغربي في عهد دولتي مالي وصنغاي (638-999هـ/1240-1591م)**، رسالة ماجستير غير منشورة، معهد الدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة، 1994/1993م، ص 117.

[3]- أحمد بابا التنبكتي، المصدر السابق، ج1، ص 142.

[4]- علي يعقوب، "العائلات العلمية في السودان الغربي دراسة وصفية: عائلة أقيت نموذجا". مجلة قراءات إفريقية، عدد 44، السنة 16، أفريل 2020، ص 13.

للكتب[1]، درس بجامع سنكُري صحيحي البخاري ومسلم، وله إنتاج علمي غزير مكتوب بخط يده، كتعليقاته على صغرى السنوسية في العقيدة، وشرح على منظومة القرطبي في الفقه، وشرح تخميسات الفازازي، وقصائد شعرية في مدح الرسول، وشرح على منظومة المغيلي في المنطق سماه "مناخ الأحباب من منح الوهاب" وغيرها من الكتب[2].

الفقيه محمد بن محمود بغيغ الونكري (ت: 1002هـ/1593م): عالم متفنن ورع صالح من خيار عباد الله الصالحين، قال عنه التنبكتي: "كان طويل الروح في التعليم لا يأنف من مبتدأ ولا من بليد أفنى عمره مع تثبته بحوائج العامة وأمور القضاء، وقد أدركته أنا يقرأ من صلاة الفجر إلى الضحى ثم يقوم إلى بيته، حيث يقرأ وقت الزوال ثم يصلي الظهر بالناس ويدرس إلى العصر ثم يصليها ويذهب إلى موضع آخر يدرس فيه إلى الاصفرار وإذا صلى المغرب درس في الجامع إلى العشاء ثم رجع إلى بيته وكان مع ذلك محققا داركا ذكيا فطنا غواصا على اللطائف".

القاضي محمود كعت (ت: 1002هـ/1593م): هو محمود بن الحاج المتوكل بن محمود كعت، ولد سنة 876هـ، من العلماء المخضرمين الذين عاصروا فترة حكم سني علي وحكم الأسكيا محمد، درس علوم الفقه والحديث، واشتغل بالتدريس إلى جانب القضاء، تتلمذ على يديه خلق كثير منهم أحمد بابا التنبكتي الذي قال عنه: "كان شيخ زمانه في العلوم والفنون لا نظير له".

الفقيه مورمغ كنكني: عالم فقيه زاهد جليل القدر امتهن التدريس، فكان يلقى الدروس في الجامع، وكان يخرج من بيته في منتصف الليل حتى صلاة الصبح ثم يستمر في إلقاء الدروس حتى الزوال، ثم يعود إلى بيته لأخذ قسط من الراحة، ثم يعود إلى حلقة التدريس بعد صلاة الظهر إلى صلاة العصر[3].

الفقيه محمد الكابري (توفي خلال القرن 10هـ/16م): هو الفقيه العالم أبو عبد الله القاضي محمد الكابري، من فقهاء تنبكت سكنها في القرن 9هـ/15م، وعاصر مجموعة من العلماء، أخذ العلم عنه الكثير من الطلاب، تولى التدريس بجانب الإفتاء[4].

ثانيا: أدوارهم في الحياة العلمية والثقافية والسياسية:

1- أدوارهم العلمية والثقافية:

لاشك بأن التعليم هو أساس كل نهضة ثقافية وعلمية، فهو الأداة الرئيسية للتوجيه الفكري، والإعداد التربوي، إذ به يتم ترسيخ المبادئ والأفكار في نفوس الناشئة وصقل سلوكات الأفراد، لهذا عمل الفقهاء على ازدهار الحركة العلمية في بلاد السودان الغربي، ونلمس هذا الدور البارز بشكل واضح من خلال ما يأتي:

أ-**الجلوس للتعليم:**

اشتغل فقهاء المالكية بالتعليم من أجل إعداد العلماء والمعلمين والأئمة والخطباء، الذين يبثون في المسائل والقضايا الفقهية، ويقومون بالتوعية الدينية بين أفراد المجتمع، وكانت طرق ووسائل التعليم عندهم تعتمد على الأساليب الآتية:

السماع أو الإلقاء: وذلك بأن يتخذ العالم موضعا ما، وغالبا ما يكون في المسجد، وأمامه الطلبة فيلقى عليهم الدروس، فيسمعون منه ويقومون بتقييد ما يرونه مناسبا للكتابة، ومن العلماء الذين برزوا في هذا المجال الفقيه الحاج أحمد أقيت الذي

---

[1]- البرتلي، المصدر السابق، ص 29.

[2]- علي يعقوب، المرجع السابق، ص 10.

[3]- مهدي رزق الله أحمد، **حركة التجارة والإسلام والتعليم في غرب إفريقيا**. مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، ط1، 1998، ص 373.

[4]- أحمد بابا التنبكتي، **نيل الابتهاج**، ص 603.

اشتهر بالمداومة على تدريس مدونة الإمام سحنون، ويبدو أن هذه الطريقة كانت هي الطريقة الأساسية الرائجة في ذلك العصر، وبواسطتها تم انتقال العلوم بين طبقات فقهاء المالكية.

قراءة الكتب: حرص فقهاء المالكية السودانيون على نسخ الكتب، وجلبها أثناء رحلاتهم إلى مختلف الأقطار الإسلامية، تم عرضها واستظهارها بعد عودتهم، ومن الكتب التي كانت متداولة "موطأ الإمام مالك" ومدونة الإمام سحنون". كما اشتهر بعضهم بالتأليف وجمع الكتب و قراءتها على الطلبة، ومن أبرزهم أحمد بابا التنبكتي الذي ساهم في إثراء المكتبة العربية بمجموعة من الكتب والرسائل العلمية، وهي تدل على سعة مداركه وتحصيله العلمي ومعرفته بكتب التراجم والتاريخ والفقه، ونذكر منها على سبيل المثال: كتاب نيل الابتهاج بتطريز الديباج الذي ترجم فيه لعدد هائل من أعلام المالكية[1].

الحفظ: اهتم الفقهاء والعلماء بالحفظ كوسيلة تعليمية خاصة في المراحل الابتدائية أو الإعدادية وهذا أمر طبيعي، لأنه أداة أساسية لتثبيت الأسس التي عليها مدار التعليم، ومما يؤكد ذلك هو اشتهار العديد منهم بقوة الحفظ، ومن أشهرهم في هذا المجال الإمام محمد المنقوري الذي كان يحفظ كثيرا من الكتب التي عليها مدار الإفتاء في المذهب المالكي.

المناظرة: تعد المناظرة من أشهر الأساليب التعليمية في العصر الوسيط، والتي عرفت أيضا باسم المذاكرة والجدال والنقاش، وهي أهم أساليب التدريس والتلقين، لما لها من دور في ترسيخ المعلومات وتمحيص الآراء المؤيدة والمعارضة للوصول إلى أصوب الآراء وأرجحها، وكان الفقهاء يناظرون حسب تخصصهم ومستوياتهم لذا فلا عجب أن فقهاء المالكية الذين آخذوا على عاتقهم مقاومة كل الفرق المخالفة للمذهب السني، كانوا من ذوي القدرة على المناظرة، ومن بين المؤلفات التي ذكرت في هذا المجال تلك المناظرة التي حدثت بين الإمام المغيلي والقاضي محمود بن عمر أقيت، والتي سميت بـ"الجواب المحمود عن أسئلة القاضي محمود وأجوبة الفقير عن أسئلة الأمير"، حيث أجاب فيها المغيلي عن أسئلة السلطان الأسكيا محمد الكبير[2].

كما حرص فقهاء المالكية بالسودان الغربي على أن يكون المعلمون القائمون على تدريس الأطفال سواء في المراحل الأولى من التعليم أو بعده على المذهب السني، لذا منعوا أصحاب الفرق الأخرى من مزاولة التعليم والتدريس حفاظا منهم على المذهب المالكي، ولعل هذا ما مكنهم من غرس مبادئ مذهبهم في قلوب النشء، ومكنهم بشكل تدريجي من تكوين قاعدة اجتماعية صلبة لمذهبهم، نظرا لكون مبادئ العلوم الأولية التي يتلقاها الصبي وطريقة فهمه للدين التي ينشأ عليها من الصعوبة بمكان أن يتخلص منها في الكبر، بل وتظل مصاحبة له وتوجهه وهو يخوض معترك الحياة، لذا قيل: بأن "التعلم في الصغر كالنقش على الحجر"، هذا علاوة على أن ذلك يسهم في تمتين الوحدة الفكرية للمجتمع[3].

2- أدوارهم السياسية:

كان لفقهاء المالكية في السودان الغربي تأثير كبير في الحياة السياسية، وذلك عن طريق إدخال نظم جديدة عليها وفق التعاليم الإسلامية، إضافة إلى تقلدهم مناصب الحكم والتي استطاعوا من خلالها القيام بالإصلاحات وتغيير موقف الحكام، والدليل على ذلك نظام الحكم الذي كان استبدادي لكن مع الإصلاحات التي قام بها الفقهاء تغير موقف الحكام[4].

---

[1]- سحر عنتر محمد أحمد مرجان، المرجع السابق، ص 259.

[2]- السعدي، المصدر السابق، ص 41.

[3]- الشنقيطي أحمد الأمين، **آداب البحث والمناظرة**، تحقيق سعود بن عبد العزيز بن محمد العريفي، السعودية، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، السعودية، 2018، ص 159.

[4]- إبراهيم علي طرخان، **إمبراطورية غانة الإسلامية**، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للنشر والتأليف، 1970، ص 57.

وبرزت عائلات علمية كان لها اهتمام بالحياة السياسية نذكر منها عائلة أقيت في مملكة سنغاي، التي أصبح لها نفوذ كبير، فكانت لها مواقف تبرهن على تأثيرها في السلطة، ونجد أن الحكام خضعوا لعلمائها واستجابوا من أجل دعم مشروعهم السياسي والديني، وقلدوهم مناصب رفيعة، وخاصة في عهد أسكيا الحاج محمد الذي كان يقدر العلماء ويحسن إليهم، ويأخذ برأيهم، ومن أمثلة ذلك عندما طلب الإمام لمغيلي من الأسكيا محمد القبض على أفراد الجالية اليهودية في دولة سنغاي، لتورط اليهود في مقتل ابنه في توات أثناء غيابه في رحلته إلى السودان الغربي، وكاد الأسكيا أن يلبي طلبه لولا استشارته للقاضي محمود بن عمر أقيت، الذي تدخل واحتج على ذلك، وأمر الأسكيا محمد بإطلاق سراح الجالية اليهودية، مما كان سببا غضب المغيلي ومغادرته غاو إلى توات[1].

فكان الأسكيا يستشيرهم في مسائل السلم والحرب، كما كانوا رسله في معظم الأحوال، وبخاصة العلماء وصارت هذه السياسة قاعدة لمن أتى بعده من الأساكي في تقدير العلماء واحترامهم والنزول عند آراءهم، كما كان لعلماء أقيت دور في الحفاظ على الدولة من الاضطرابات والفتن الداخلية، خاصة في الفترة التي أعقبت عزل أسكيا محمد واستيلاء ابنه موسى على الحكم في عام 935هـ/1528م، فقد منعوا الأسكيا الجديد من التنكيل بإخوانه ومعارضيه درء للمشاكل، وسعى الفقيه محمود بن عمر أقيت للصلح بينه وبين إخوته، فطلب منه القاضي محمود العفو عن إخوته، وأن يتجنب الفتنة بينه وبينهم لما فيه من قطع الرحم والفساد في الأرض[2].

وإضافة لاهتمام العلماء وعنايتهم بالنظام الإداري والقضائي، فقد كانت الإدارة مع مجيء الإسلام والمذهب المالكي لبلاد السودان منظمة تنظيما محكما، وكانت تسير شؤونها على أحسن الأحوال، وهذا دليل على الأثر الواضح للمذهب المالكي في الإدارة، أما بالنسبة للقضاء فقد كان دقيقا، لذلك عمل الحكام على توليه القضاء للفقهاء المشهود لهم بالقدم الراسخ في العلم والتمرس في الأحكام مع التقوى والتزكية، وذلك لإصلاح حال الرعية، وقد كان يتم تعيين القضاة وفق مراسيم خاصة في المسجد بعد صلاة من صلوات الخمس، وذلك بحضور السلطان في يوم مشهود، حيث يأتي الفقيه الذي يريد أن ينصب قاضي فيحلف إمام الحاكم بالله أو باسم من أسمائه الحسنى أنه سيلزم في أحكامه بما جاء في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ[(3)]، ومن أشهر الفقهاء الذين عينوا في مجال القضاء نذكر القاضي محمد الكابري كان عالما فقيها ووليا صالحا[(4)].

ووجدت عائلات توارثت منصب القضاء نظرا لعلو كعب أبناءها في العلم والفتوى، ومن بين هذه البيوت العلمية عائلة أقيت التنبكتية التي توارث علماءها هذا منصب القضاء مدة طويلة ولم يتحول عنهم لغاية سنة 1002هـ/1593م وهو عام نكبتهم على يد القائد محمود بن زرقون إثر الغزو السعدي لتنبكت. ولقد اهتم الأساكي بهذا المنصب لذا نجد الأسكيا محمد هو أول من قام بذلك فقد قام بإصلاحات فيه بعد عودته من الحج سنة 902هـ/1496م، إذ نصب في كل من مدينتي جني وتنبكت وفي كل مدينة تستحق القضاء قاضيا، ويتمتع قاضي قضاة تنبكت بمكانة عالية نظرا لمكانة المدينة الثقافية والتجارية فكانت له مهمة تولية القضاة في بقية أقاليم المملكة، وكان للقضاة في السودان الغربي صلاحيات واسعة، استمدوها من مكانتهم الدينية، ومن المكانة التي حظوا بها عند الحكام، خاصة في عهد الأساكي في دولة سنغاي، والتي عرف عنها احترام شخصية القاضي واعتبار

[1]- علي يعقوب، المرجع السابق، ص 14.

[2]- السعدي، المصدر السابق، ص 82.

[3]- ميغا أبو بكر إسماعيل، "الحركة العلمية والثقافية والإصلاحية في بلاد السودان الغربي"، مجلة الإمام محمد ابن مسعود، السعودية، دار المنظومة الإسلامية، ع: 11، د.ت.ن، ص 278

[4]- إيهاب شعبان عبد الشافي، **القضاء في دولتي مملكة مالي وصنعاي و أثره الحضاري في المجتمع (636-1000هـ/1238-1591م)**، القاهرة، الإفريقية الدولية للنشر والطبع والتوزيع، ط1، 2014، ص 47

أحكامه نافذة على الجميع الحاكم قبل المحكوم، وهو ما دفع بعض المؤرخين إلى عقد مقارنة بين مركز الحاكم والقاضي الديني والدنيوي، بل قرروا أن سلطة القاضي تفوق في بعض الأحيان سلطة الحاكم نفسه، فكان الحكام لا يبرمون أمرا إلا بمشورة القاضي والأخذ برأيه، مما انعكس ايجابا على الوضع الأمني فقد استتب الأمن والاستقرار في البلاد طيلة حكم الأساكي؛ بسبب اختيارهم قضاة من العلماء وخاصة من أسرة أقيت العلمية، لهذا كان للفقهاء دور سياسي بارا في ظهور نظم جديدة في الحكم، إضافة إلى النظام الإداري إذ تقلد العلماء مختلف المناصب الإدارية كما تلقوا احترام وتقدير الحكام.

3- أدوارهم في الحياة الاجتماعية:

إن المكانة التي حظي بها فقهاء المالكية في المجتمع السوداني، وما تبوءوه من خطط ومناصب، والوضع المادي الذي كانوا عليه، واضطلاعهم بالعديد من الوظائف والمهن، مكنتهم من القيام بأدوار اجتماعية هامة ومتميزة في مجالات عدة، ومن أبز الميادين التي كان لفقهاء المالكية دور بارز فيها ما يأتي:

* مساعدة الفقراء والمحتاجين، والإسهام في تحرير في تحرير الأرقاء حيث عمل الفقهاء على مساعدة المعوزين من خلال التصدق ومنح القروض إذ عرف الفقهاء بالجود والكرم والتصدق بالأموال الوفيرة على الفقراء، كما أسهموا في تحرير العبيد تماشيا مع تعاليم الدين الداعية إلى تحرير الأرقاء، فنجد مثلا علماء أسرة أقيت كانوا ملجأ العامة من بطش الحكام، فكانوا يفرون إلى دار القاضي أو الإمام إذا تعرضوا لخطر، وكانوا يحثون الحكام على الاهتمام بالفقراء والمساكين وتقديم المساعدات لهم، وخير دليل على ذلك أن القاضي العاقب بن محمود كان يأخذ من أسكيا داود كل عام أربعة آلاف صينية ليقسمها على فقراء المدينة والمساكين[1].

* الحفاظ على الأسرة وتنظيمها: يعد الزواج أساس الحياة الأسرية والعائلية، لذلك كان فقهاء المالكية يشجعون عليه، علاوة على أنهم عظموا المرأة وجعلوا لها مكانة خاصة لأنها أساس تكوين وبناء الأسرة، فحرصوا على أن يتم الزواج وفق الشروط الشرعية دون الإخلال بأي ركن من أركانه الأساسية[2].

* محاربة الآفات الاجتماعية ورد المظالم: من طبيعة المجتمع الإنساني ديمومة التغبير، فهو لا يثبت على حال وأهم ما يتغير فيه أحوال الناس الذين يتأثرون مما يطرأ عليهم من ظروف سواء كانت مادية أو معنوية، لذا فإن التشريع الإسلامي وضع جملة من القواعد التي تضمن التقدم المستمر للمجتمع الإنساني في مختلف البيئات والظروف ومن هذه القواعد قاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[3]، فأخذ فقهاء المالكية بهذه القاعدة وانطلقوا في محاربة مختلف مظاهر الفساد، وشتى أشكال الانحلال الأخلاقي سواء أكانت مبادرة عن الحكام أو المحكومين، ويبدو أن ذلك يعود لأهمية دور الأمراء والحكام في الحد من الفساد أو نشره وعظم مسؤوليتهم في ذلك، فقد بذل علماء أسرة أقيت جهودا كبيرة من أجل الإصلاح الاجتماعي، والمحافظة على قيم المجتمع المسلم ومبادئه، ومحاربة الفساد والمفسدين، كما ساهموا في المحافظة على الآداب العامة في الطرقات والمناسبات، وهكذا كان لهم دور كبير في الحياة الثقافية والسياسية والاجتماعية في السودان الغربي[4].

مما تقدم ذكره يمكن القول أن الفقهاء المالكية اجتمعت لديهم مؤهلات وعوامل موضوعية، وفي مقدمتها تلك المناصب التي تولوها وما حازوه من أموال مكنتهم من تبوأ مكانة متميزة في المجتمع السوداني، الأمر الذي ألقى بظلاله بشكل مباشر على

[1]- علي يعقوب، المرجع السابق، ص 15.

[2]- إبراهيم علي طرخان، المرجع السابق، ص 59.

[3]- أسماء أحمد الأحمر، المرجع السابق، ص 112.

[4]- علي يعقوب، المرجع السابق، ص 15.

قوة تأثيرهم الاجتماعي، حيث تمكنوا بفضل ذلك من القيام بأدوار هامة تركت أثارا إيجابية في المجتمع السوداني، فقد أسهموا في تمتين العلاقات الأسرية والعائلية وضبطها وأيضا تقنين الحياة العامة بما يتماشى مع تعاليم الإسلام، وجعلها أكثر استقرارا وذلك من خلال محاربة شتى الآفات الاجتماعية، والإسهام في انتعاش الحياة الاقتصادية بمعالجة الأحكام المتعلقة بها ومحاربة كل ما يؤثر عنها سلبا كالعاملات التجارية التي تضر بمصالح الناس كالربا والغش، وهذا مما يعود بالرخاء على أفراد المجتمع، ويسهم في تحقيق الاستقرار[1].

ثالثا: الإنتاج العلمي والفكري لفقهاء المالكية السودانيون:

1- مجالات التأليف للعلماء السودانيين

أ- الفقه وعلم الحديث:

عرفت الحركة الفقهية تطورا كبيرا في مختلف البلاد الإسلامية، وخاصة بلاد السودان الغربي التي تأثرت بهذه المذاهب وبخاصة المذهب المالكي، حيث أصبح المذهب المتعارف عليه والمأخوذ به في مختلف العادات والعبادات، ويرجع ازدهار الحركة الفقهية في بلاد السودان الغربي إلى رحلة حج منسا موسى عام 724هـ/1321م، والتي زار من خلالها عددا كبيرا من الفقهاء المالكية في مصر، وجلب معه العديد من الكتب التي تهتم بالفقه المالكي، إضافة للبعثات العلمية التي كان يرسلها لتلقي العلم في كل من فاس ومصر مثل رحلة عبد الرحمن التميمي إلى فاس، ورحلة كاتب موسى كذلك، ويعتبر هذان الفقهاء من أبرز الفقهاء المالكية في زمن دولة مالي رغم أن المصادر لم تدون شيء عن إنتاجهم الفقهي إلا أنها ذكرت حضورهم القوي في مجالس التدريس والإمامة والإفتاء على الفقه المالكي.

وذكرت بعض المصادر أسماء لأهم العلماء الذين ساهموا في إثراء الحركة الفقهية سواء بتدريس أمهات المصادر الفقهية المالكية أو بإنتاجهم الفقهي سواء كشروح لهذه المصادر أو الحواشي أو المؤلفات خاصة دولة سنغاي[2]، ومن أمثلة ذلك نجد ما تركه الفقيه العالم محمد بن عبد الكريم المغيلي من مؤلفات فقهية أثناء زيارته لبلاد السودان الغربي كمصباح الأرواح في أصول الفلاح وهو في كراسين وحاشية على مختصر خليل سماها إكليل مغنى اللبيب، وفي البيوع ألف كتابين سماهما مفتاح الكنوز، وتلخيص المفتاح لمختصر سعيد وشرحه[3]. ومن العلماء الذين أخذوا عن الإمام المغيلي الفقيه العاقب بن عبد الله الأنصمي الذي كان فقيها عالما له تعاليق، أهمها تعليقه على قول خليل، والجواب المحمود عن أسئلة القاضي محمود الذي أجاب فيها عن أسئلة فقيه وجهها له قاضي تنبكت محمود بن عمر أقيت، وأجوبة الفقير عن أسئلة الأمير أجاب فيها عن أسئلة السلطان الأسكيا محمد الكبير[4].

أما الفقيه محمد بن أحمد التاذختي ألف شرحا لمختصر خليل، الذي كان فقيه الحاج أحمد أقيت، وكان من الفقهاء المتضلعين اشتهر بمداومته على قراءة الشفاء للقاضي عياض وتدريس مدونة الإمام سحنون وله تعاليق وحواشي على هذه المدونة، وللفقيه محمود بن عمر أقيت (ت:955هـ/1548م) له تأليف في مختصر خليل من جزئين جادل به علماء مصر أثناء سفره إلى الحج من بينهم العالم إبراهيم المقدسي والقلقشندي، كما كان للعلامة الفقيه أحمد بن أحمد أقيت (ت:991هـ/1583م)

---

[1]- أحمد جعفري، "المذهب المالكي في بلاد السودان الغربي وتأثره بفقهاء بلاد المغرب: قراءة في المصادر العربية والإفريقية ما بين القرنيين 14 و17 الميلاديين"، مجلة آفاق علمية، مجلد 12، عدد 1، 30 أفريل 2020، ص 222.

[2]- سحر عنتر محمد أحمد مرجان، المرجع السابق، ص 256.

[3]- التنبكتي أحمد بابا، المصدر السابق، ج 1، ص 577.

[4]- السعدي، المصدر السابق، ص 41.

إنتاج علمي مخطوط بيده حيث تحرك في مجال الفقه حاشية على شرح الثنائي على مختصر خليل بين فيها موضع السهو منه، وجمع الكثير من الشروح والقواعد وكتب بخط يده عدة دواوين.

أما الإمام الفقيه محمد المنقوري يعتبر أول من نقل مختصر خليل إلى السودان الغربي، كما أنه تصدر للتدريس والإفتاء، ومن أهم تلامذته القاضيين محمد شب وإبراهيم البرناوي، ومن أبرز العلماء الذين ساهموا في الحركة الفقهية بنصيب وافر في هذه الفترة الفقيه أحمد بابا التنبكني الذي كان علما من أعلام الفقه المالكي، حيث تؤكد ذلك آثاره العلمية التي تركها في هذا الميدان، فألف مجموعة من الكتب والرسائل والفتاوى والآراء على ضوء الفقه المالكي.

واهتم العلماء السودانيون بعلم الحديث كالفقيه والمحدث محمد بن أحمد التازختي الذي كانت له رحلات إلى بلاد المشرق الإسلامي أخذ من خلالها علم الحديث حيث سمع وروى وأجيز وأجاز وصار من المحدثين، حيث يقول عنه السعدي "روى وحصل واجتهد حتى تميز في الفنون وصار من المحدثين"[1]، ومن العلماء أيضا الشيخ عبد الرحمن بن علي بن أحمد القصري (ت:956هـ/1549م) الذي قام برحلة علمية للمشرق تحصل من خلالها على علم الحديث الذي أجيز فيه وصار من المتضلعين فيه ، ثم جلس للتدريس في السودان الغربي ، فدرس موطأ الأمام مالك والكتب السنة المعتمدة في علم الحديث وله عدة تأليف في ذلك، ومن الذين برعوا كذلك في علم الحديث القاضي محمد بن محمود بن أبي بكر المشهور بغيغ الذي اشتهر بنبوغه في عدة علوم منها علم الحديث الذي تلقاه أثناء رحلته إلى المشرق الإسلامي ثم عاد إلى تنبكتو ودرس هذا العلم، أما أحمد بابا التنبكتي فقد هو الآخر تضلع في هذا العلم واشتهر بإجازاته التي كان يمنحها لطلابه، منهم أحمد بن محمد المقري.

ب- علوم القرآن:

يعتبر القرآن الكريم المصدر الأول للتشريع وهو أرفع منزلة لكونه يتعلق بكلام الخالق عز وجل، فأعطيت له أهمية كبيرة على غرار العلوم الأخرى، فألفت فيه الكتب سواء في علوم القراءات أو في التفسير، وقد ساهم علماء بلاد السودان الغربي في علوم القرآن كغيرهم من علماء البلاد الإسلامية، يعتبر العالم عبد المولى الحلالي من مشاهير القراء الذين ساهموا في هذا العلم، اشتهر بتدريس روايتي ورش في مدارس السودان الغربي[2]، والإمام إبراهيم الزلفى من أشهر المدرسين في مدرسة أبي قاسم التواتي قبالة مسجد الجامع في تنبكتو، والقارئ محمد بابا ستر ابن الفقيه أندغ محمد (ت:1002هـ/1592م) الذي سكن مدينة جني، كذلك الفقيه أحمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن القاصي الحاج روى عنه السعدي[3]، إضافة للفقيه أبي عبد الله محمد بابا بن محمد الأمين بن حبيب ابن الفقيه المختار (ت:1044هـ/1606م) الذي كان بارعا في علم القراءات، فقد تتلمذ على يده الشيخ بن عبد المولى الحلالي وأخذ عنه الروايتين منها ورش.

ج- علم التفسير:

دُرس ببلاد السودان الغربي كتاب تفسير الجلالين لجلال الدين السيوطي وجلال الدين المحلي، واشتهر هذان التفسيران في هذه البلاد، نظرا بساطة أسلوبه ودقه معانيه، مما يسهل على طلاب العلم قراءتهما، وفهم معانيهما، مما أدى إلى اشتهار الإمام السيوطي بهذه البلاد، وقد قابله الأسكيا محمد الكبير في مصر أثناء زيارته لها في رحلة الحج التي قام بها، وسأله عن مسائل في الشريعة. كما ظهرت مؤلفات أخرى في هذا المجال من تأليف علماء المنطقة كالإمام المغيلي بكتابيه تفسير سورة

[1]- السعدي، المصدر السابق، ص 39.

[2]- البرتلي، المصدر السابق، ص 111.

[3]- السعدي، المصدر السابق، ص 57.

الفاتحة، والبدر المنير في علم التفسير، واشتهر الفقيه أحمد بن محمد بن عثمان بن عبد الله الشبكتي بالتفسير، ودرس هذا العلم بمسجد سنكري[1].

كما يعتبر أحمد بابا التنبكتي من المفسرين، وقد برع فيه رغم أنه لم يترك مصنفا مستقلا إلا أنه كان مجازا في علم التفسير، وكان يدرسه في تنبكتو ومراكش، وهذا ما أورده تلميذه الفقيه أحمد بن الحاج محمد التواتي، نقلا عن البرتلي صاحب فتح الشكور: "لما فتح الله تعالى علي بملاقاة عالم الدنيا ومعلمها فقرأت عليه رحمه الله تعالى القرآن العظيم بتفسير الجلالين المحلي والسيوطي في عامين مرتين قراءة تحقيق وتفهم وتدقيق"[2].

رابعا: العلماء السودانيون ببلاد المغرب الإسلامي أحمد بابا التنبكتي (ت:1036هـ/1626م)أنموذجا:

يعتبر العالم والفقيه أحمد بابا التنبكتي من أكثر علماء السودان تأليفا في مختلف المجالات، وبخاصة في مجال الفقه والتاريخ، إذ بلغت مؤلفاته الفقهية عشرين مؤلفا ما بين كتاب وحاشية ورسالة وتعليق، وفي مجال التراجم له مؤلفان مشهوران هما كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، ونيل الابتهاج في تطريز الديباج، فأثبت مكانته العلمية على الساحة المغربية عندما أخذ قسرا إلى المغرب الأقصى واستقر بها ما بين 1594-1606م، بعد حملة السلطان السعدي أحمد منصور الذهبي على بلاد السودان الغربي، فبقى في مراكش يزاول مهنة التدريس والفتيا إلى أن أذن له السلطان السعدي بالعودة لبلده عام 1016هـ/1607م، فقضي فيها بقية حياته إلى أن توفي، وخلف وراءه نتاجا علميا كبيرا كان فيه رافعا لراية المذهب المالكي بالسودان الغربي وناصرا له، فكان له دور مهم في تنشيط الحركة العلمية بالمغرب الأقصى بعدما تم نقله إلى مراكش، وجلس للتدريس بجامعها فأقبل الطلبة والعلماء على حلقاته لنيل من علمه، كما أنه ألف العديد من الكتب، فعمت شهرته المغرب والسودان الغربي.

1- مولده ونسبه:

هو أبو العباس أحمد بن الفقيه أحمد بن الحاج أحمد بن محمد آل أقيت الصنهاجي، ويعرف بأحمد بابا التنبكتي أو التكروري أو السوداني، ولد المؤلف ليلة الأحد الحادي عشر من ذي الحجة الحرام عام ثلاث وستين وتسعمائة للهجرة في مدينة تنبكتو، نشأ في أسرة علمية وذات ثروة، من بني أقيت المنحدرة من قبيلة مسوفة ثم من قبيلة كدالة، حظي أفراد عائلته بتقلد مناصب دينية عليا في بلده، وذلك أيام إمبراطورية سنغاي الإسلامية مثل خطة القضاء والإفتاء[3].

2- شيوخه:

تلقى تعليمه على يد ثلة من العلماء من فقهاء بلدته، خصوصا أسرته وأعمامه وبني أعمامه، باستثناء من أجازه من أهل مكة، فكان أول شيوخه والده الفقيه أحمد بن أحمد، وعمه أبو بكر بن أحمد، والعاقب ومحمد ابنا القاضي محمود بن عمر، بجانب كل من محمد بن محمود بغيغ، وهو أكثر الناس تأثيرا في التكوين العلمي للتنبكتي، فقد لازمه أكثر من عشر سنوات في محنته وختم عليه مجموعة كبيرة من مختلف أصناف العلوم كالتفسير والحديث والفقه والبيان، كما أدرك هذا العلامة الشيخ أحمد

[1]- **مسجد سنكري**: من أشهر المساجد في تنبكتو وبلاد السودان الغربي، يقع في الشمال من مدينة تنبكتو بنته سيدة ثرية فاضلة من قبيلة الأغلال، أيام دولة مالي سنة 726هـ/1325م.

[2]- البرتلي، المصدر السابق، ص 33.

[3]- المصدر نفسه، ص 65.

بن سعيد التنبكتي وحضر درسه وهو صغير، كما أجازه كل من محمد النهراولي، ومحمد بن محمد المعروف بحمد فادي الفلاني ويحيى محمد الخطاب[1].

3- تلامذته:

من بين تلامذته الذين أخذوا عنه الذين ذكرهم قائلا: "وازدحم علي الخلق وأعيان طلبتها –مراكش- ولازموني، بل قرأ علي قضاتها كقاضي الجماعة بفاس العلامة أبي القاسم بن أبي النعيم الغساني، وهو كبير ينيف عن ستين، وكذا قاضي مكناسة الرحالة المؤلف صاحبنا أبو العباس ابن القاضي، له رحلة للمشرق ولقي فيها الناس وهو أسن مني، ومفتي مراكش الرجراجي وغيرهم، وأفتيت فيها لفظا وكتابة بحيث لا توجد فيها الفتوى غالبا إلا إلي، وعينت لها مرارا فابتهلت إلي الله أن يصرفها عني، واشتهر اسمي في البلاد من سوس الأقصى إلى بجاية والجزائر وغيرها، وقد قال لي بعض طلبة الجزائر ممن قدم علينا إلى مراكش: لا نسمع في بلادنا إلا باسمك فقط"[2].

4- محنته وظروف انتقاله إلى مراكش:

تعرض أحمد بابا لمحنة على يد أحد قائد حملة السلطان السعدي أحمد المنصور الذهبي وهو القائد محمد بن زرقون، الذي طلب منه أن يتولى توقيف أسرة آل أقيت ويرحلهم إلى مراكش وهم أسرة علم ورياسة كان لها نفوذ واسع وسط عامة مدينة تنبكتو وسائر بلاد السودان، كما أنها عارضة وبوضوح الحملة السعدية على تنبكتو باعتبارها حملة على إقليم مسلم، وما أعقب ذلك من تصرفات غير مقبولة من القائد، فتخوف السلطان السعدي من تأثير آل أقيت على السودانيين[3]، فتم نقل العلامة أحمد بابا التنبكتي في 25 جمادى الثاني 1002هـ/ 18 مارس 1594م، هو جمع من أهل بيته بلغوا السبعين فردا، منهم سيف السنة القاضي العاقب المتوفى بمراكش في ذي الحجة الحرام عام 1005هـ، والشيخ الفقيه أبو عبد الرحمن بن الفقيه القاضي محمود بن عمر أقيت، الذي توفي بمراكش ودفن مع ابن القطان بإزاء جامع علي بن يوسف، وذلك بعد أن أبدوا معارضة لحكم السلطان أحمد المنصور وأيدوا حكم الإسكيين في مدينة تنبكت[4].

استقراره بمراكش واشتغاله بتدريس العلوم:

كانت إقامته بمراكش بعد إطلاق سراحه قسرية بعد قضائه سنتين سجنا (1022-1004هـ/1594-1596م) فسرح رفقة أهله بشرط الإقامة الجبرية ب8مراكش، ذلك بعد مواجهة علمية جمعته مع المنصور الذهبي أبان فيها عن علو كعبه في الفقه والحديث وقوة حجته الشرعية في دحض كل ما قام به السلطان السعدي ضد عائلته ومتاعه وكتبه، وانتقاده لبعض سياساته تجاه السودان الغربي خاصة، فسكن مراكش،وجلس للتدريس والإقراء بجامع الشرفاء، فدَرَّس مختصر خليل، وتسهيل ابن مالك وألفية الحديث للعراقي، وتحفة المحاكم لأبي عاصم، وجمع الجوامع للسبكي وحكم ابن عطاء الله، والجامع الصغير لجلال الدين السيوطي قراءة تفهم مرارا والصحيحين سماعا وإسماعا مرارا ومختصرهما، وكذلك الشفاء والموطأ والمعجزات الكبرى

---

[1]- زكرياء الشعرة، "إسهامات علماء من السودان الغربي في الحركة العلمية بالمغرب وتراثهم المخطوط بالمكتبات المغربية فيما بين القرنين 16 و19م"، مجلة ذخائر، المغرب، العدد الثامن، ديسمبر 2020م، ص 14.

[2]- أحمد بابا التنبكتي، **كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج**، ص 34.

[3]- زين العابدين زريوح، "إشعاع علماء السودان الغربي في المغرب أحمد بابا اتنبكتي أنموذجا"، مجلة الرصد العلمي، جامعة وهران 1، المجلد 8، ديسمبر 2021، ص 8.

[4]- أحمد بابا التنبكتي، المصدر السابق، ص 35.

للسيوطي وسنن الترمذي، والاكتفاء لأبي الربيع الكلاعي وغيرها، وألف نحو أربعين كتابا في منفاه في غنون مختلفة من العلم كالتاريخ والتراجم والفقه والحديث والنحو والتصوف[1].

فدرس التنبكتي بذلك المتون المشهورة في المغرب الإسلامي عامة إبان القرن 10ه خاصة منها الفقه المالكي باعتباره هو المذهب السائد، وتجدر الإشارة إلى تشابه المواد المدرسة بين تنبكت وفاس ومراكش وتوات والقيروان كما يظهر من خلال الاستشهاد أن نمط التدريس، كان هو الإلقاء على شكل محاضرات والجواب على الاستفسارات والحوار وغيره، هو نفسه في هذه المناطق وهو ذاته المنهج المعروف في بلاد السودان ومازال معمولا به حتى الآن في بلاد شنقيط[2].

5- وفاته:

ولما عاد أحمد بابا التنبكتي إلى موطنه تنبكت قضى عشرين سنة في التدريس والإفتاء، ثم انتقل إلى الرفيق الأعلى يومه الخميس فاتح شعبان سنة 1036ه الموافق 1627م، حسبما ذكرت جميع المصادر إلا رواية شاذة لصاحب الاستقصا في أخبار المغرب الأقصى، من أن وفاته كانت سنة 1032ه لا يمكن أن يعتد بها.

6- مؤلفاته:

خلف أحمد بابا رصيدا فكريا ضخما تنوعت بين مؤلفات علمية وفتاويه التي عالج بها القضايا التي كانت تروج في عصره، ليحل مشاكل مجتمعه، ويصحح بعض المفاهيم الفاسدة الرائجة في زمنه، حيث تركزت جهوده في مصنفاته، على تتميم ما رآه ناقصا من أعمال سابقيه، وشرح ما رآه غامضا من مؤلفاتهم، واختصار ما ظهر له طويلا، وجمع ما يبدو له متفرقا ليسهل استيعابه للدارسين، كما حل بعض القضايا الرائجة في عصره، فالنهج الذي سلكه في مؤلفاته هو الذي اشترطه العلماء في التأليف، واعتبروا الخروج عنه ضربا من العبث وعملا بلا فائدة، وقد أكد ابن خلدون هذا الأمر، حيث تحدث عن أقسام التأليف بقوله: «إن الناس حصروا مقاصد التأليف التي ينبغي اعتمادها وإلغاء ما سواها، فعدوها سبعة.

وترك لنا التنبكتي عدة مصنفات في شتى العلوم، ومن هذه المؤلفات ما هو موجود، ومنها ما هو مفقود، في الفقه المالكي وقواعد اللغة العربية، وفي موضوعات عقلية ونقلية، فقد ألف في مجال التوحيد كتابه تنوير القلوب بتكفير الأعمال الصالحة للذنوب، وفي مجال الوعظ له "تقييد فيما جاء في التحذير من قرب الظلمة ومصاحبتهم طلبا لحطام الدنيا"، أما في الفقه فقد كتب "معراج الصعود إلى نيل مجلب السود أو الكشف والبيان لأصناف مجلوب السودان" والذي ألفه جوابا عن سؤال ورد عليه من منطقة توات، وهو عبارة عن رسالتي إجازة استرقاق بعض الأصناف من السود وتحديدا المجلوبين من السودان، وكتابه "جلب النعمة ودفع النقمة بمجانبة الولاة الظلمة"

نيل الابتهاج بتطريز الديباج:

يعد هذا الكتاب من أهم كتب التراجم التي احتوت علي تراجم أهم العلماء والأعلام من داخل وخارج بلاد السودان الغربي، والكتاب عبارة عن تكملة لما ألفه العالم ابن فرحون، وذكر التنبكتي في مقدمة كتابه أنه ألفه بمراكش[3]، اعتمد أحمد بابا التنبكتي في كتابه للتراجم علي أعلام القرن العاشر والحادي عشر الهجري حسب الترتيب التسلسلي للحروف الأبجدية، واحتوى

[1]- زين العابدين زريوح، "إشعاع علماء السودان الغربي في المغرب أحمد بابا اتنبكتي أنموذجا"، مجلة الرصد العلمي، جامعة وهران 1، المجلد 8، ديسمبر 2021، ص 8.

[2]- زكرياء الشعرة، المرجع السابق، ص 16.

[3]- أحمد بابا التنبكتي، المصدر السابق، ص ص 19-20.

الكتاب على 800 ترجمة[1]، ومن ين المصادر التي اعتمد عليها في تأليفه للكتاب التشوف الي رجال التصوف لابن الزيات التادلي، والذيل لابن الأبار القضاعي، والصلة لابن شكوال، ورحلة العبدري، وكتاب الإحاطة في اخبار غرناطة لابن الخطيب، وتاريخ ابن خلدون، ورحلة ابن قنفد القسنطيني، وفوائد الونشريسي، والروض الهتون في أخبار مكناسة بالإضافة الي بعض المعاجم والرواية الشفوية التي أخذها من أفواه العلماء والرجال مثل والده أحمد بن أحمد أقيت .

طبع الكتاب عدة مرات دون تحقيق أولها سنة 1898م على يد عباس بن عبد السلام، والثانية بالقاهرة عام 1911م، وترجم الكتاب إلى اللغة الاسبانية 1865م، كما أشرف بعض الطلبة من كلية الدعوة الاسلامية بطرابلس مع الدكتور الليبي عبد الله الهرامة ووضعوا هوامشه في طبعة أولى سنة 1998م [2].

د- كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج:

يعتبر الكتاب كتكملة لما جاء في ذيل الابتهاج حيث يذكر الائمة والعلماء المشاهير , كما يتضمن فقهاء الماكية ويتضمن ترجمة نحو سبعة مائة عالم من علماء بلاد السودان الغربي و الأندلس و المغرب، ورتبه حسب للحروا الأبجدية وألفه في مراكش[3].

[1]- الشيخلي حسين علي إبراهيم، المرجع السابق، ص 348.

[2]- زيدان جرجي، تاريخ ادب اللغة العربية , مكتبة دار الحياة، بيروت، ج 2 ص 337

[3]- أحمد بابا التنبكتي , كفاية المحتاج، ص 67

المحاضرة الخامسة عشر: التأثير السوادني على المجتمع المغربي

بحكم القرب الجغرافي بين بلاد السودان والمغرب الإسلامي، وبحكم العلاقات السياسية والتجارية التي ربطت بين بلاد المنطقتين خلال العصر الوسيط، أدى ذلك إلى انتقال بعض المؤثرات السودانية إلى المجتمع المغربي –وإن كان حجم هذا التأثر قليلا مقارنة بالتأثير المغربي على بلاد السودان- في الجانب الاجتماعي (المأكل والملبس والطب والسحر) والجانب الثقافي (اللغة والتعليم، الموسيقى) وفي المجال الاقتصادي (الفلاحة، الصناعة، التجارة).

1- التأثيرات في المجال الاجتماعي:

أ- الأزياء والأعراس:

من بين أنواع الألبسة المعروفة في بلاد السودان الأتراس التي كانت تصنع من جلود الدرق اللمطية، والتي كان يتخذ منها خفاق الملوك، كما عرفوا الملابس الصوفية والأكسية ولبس الثياب القطنية المصبغة، والجلود المدبوغة المصنوعة من جلود الماعز والنمور، والتي صدروها لبلادالمغرب، فقد كتب ابن سعيد المغربي "والغالب على لباس السودان التكرور وغيرهم الجلود، وإذا احتشى الواحد منهم كان الجلد مدبوغا أو من خالط البيض، ويخصص اتخذ لباسه من الصوف والقطن وذلك مجلوب لهم". ونظرا لكثرة الإماء السود في قصور فاس نقلن معهن ألبستهن التي عرفت بالأردية الإفريقية، وهي ملابس قطنية زرقاء كانت تصنع في جيني وتنبكتو وكوبر وكانم، كما عمل التجار المغاربة والأندلسيون على استيرادها من السودان، إضافة لاستيراد البطانيات والملف الصبوغ بالصمغ السوداني. إضافة لاستيرادهم البخور والعطور السودانية والمجوهرات السودانية الفضية والذهبية المرصعة بالحجارة الكريمة، والأساور والخلاخل، وبهذا أثروا في الاحتفالات والأعراس المغربية بطقوسهم المختلفة[1].

ب- الطبخ:

لقد انتقلت بفضل التجارة مجموعة من الخضر والفواكه السودانية للأسواق المغربية، وبذلك دخلت للمطبخ المغربي كالبصل والقرع والبطيخ والفول السوداني وفواكه غورو (Goro)[2]، والذرة البيضاء المعروفة باسم "حب الأنلي" تشبه الذرة الصغيرة يصنع منها الدقيق والخبز كما ذكره ابن بطوطة، ويشيد البكري بمهاراة الطباخات السودانيات بأودغست، بقوله: "وبها سودانيات طباخات محسنات تحسن عمل الأطعمة الطيبة من الجوزينقات والقطائف وأصناف الحلويات وغير ذلك"[3]، وقد نقلت الطباخات السودانيات هذه المهارة في الطبخ لفاس في الحفلات والأعراس[4].

ج- السحر:

كان للسحرة مكانة مهمة في بلاط ملوك السودان، ولم يقتصر حضورهم على المناسبات الدينية بل شاركوا في الحياة السياسية والاجتماعية، كحراس للتقاليد مثلا، ونجد هذا في مملكتي غانة ومالي ، فقد شكل السحرة السوننكي والماندينغ مردعية أساسية في مجتمعاتهم، فكان منهم مستشاري الملك ومربي ومعلمي أبناءه، وحتى مع انتشار الإسلام بالسودان حافظ السحرة على مكانتهم الاجتماعية، وهذا يعني محاولة التوفيق بين التقاليد الإفريقية القديمة والتعاليم الإسلامية[5].

---

[1]- مامودو كان، المرجع السابق، ص ص 267-271.

[2]- ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 849.

[3]- البكري، المصدر السابق، ج 2، ص 271.

[4]- مامودو كان، المرجع السابق، ص 274-275.

[5]- زوليخة بنرمضان، المرجع السابق، ج 1، ص 227-229.

إن عادة ممارسة السحر كانت واسعة الانتشار في المجتمع السوداني، واشتهرت نساء مدنة كوغة بذلك، يقول الإدريسي: "ونساء هذه المدينة ينسب إليهن السحر، ويقال إنهن به عارفاتوبه مشهورات وعليه قادرات"، ولقد نقل السودان معهم طقوسهم السحرية لبلاد المغرب، وقد تحدث الإدريسي عن براعتهم في ذلك "وأهل أزقار فيما يذكره أهل المغرب الأقصى أعلم الناس بعلم الخط، وليس يدري بجميع بلاد البربر على كثرة قبائلها قبيلة أعلم بهذا الخط من أهل أزقار، وذلك أن الرجل منهم صغيرا أو كبيرا إذا تلفت له ضالة أو عدم شيئا من أموره خط لها في الرمل خطا، فيعلم بذلك موضع ضالته فيسير حتى يجد متاعه..."[1]، وقد ميز السودان بين نوعين من السحر، السحر الأبيض والسحر الأسود، ومن آثار الطقوس السودانية في بلاد المغرب الأقصى "طقوس بوري"، وتعني "طقوس تحرير الشخص المصاب بمس من الجن عن طريق استعمال الموسيقى، وربط الاتصال بالأرواح المسؤولة عن الإصابة"، ويرافق ها الطقس أصوات الآلات الموسقية كالكنبري والطبل والصناجات[2].

د- أدوار العبيد:

أصبحت بلاد المغرب الإسلامي منطقة أساسية لاستقطاب قوافل التجارة السودانية، التي كانت تحمل معها مختلف السلع السودانية على رأسها الذهب والعبيد، وهؤلاء العبيد أصبحوا جزءا من المجتمع المغربي بمرور الوقت، ومصادر جلب هؤلاء العبيد متنوعة عن طريق البيع والشراء والسرقة والقنص والخطف والغزو، وتقديمم كهدايا أيضا[3]، وتخبرنا المصادر عن الحضور الهام للعبيد السودانيين في بلاد المغرب، فنجد البكري الذي يحدثنا عن أهل أودغشت أن الواحد منهم كان يملك ألف خادم أو أكثر، وهذا يعني عملية تجميع للعبيد من أجل تصديرهم للشمال، ويذكر ابن بطوطة أن القافلة التي التي قدم فيها من تكدة متجها إل فاس عبر توات ثم سجلماسة كانت تضم 600 عبد.

ونجد كثرة استخدام العبيد السود في الجيشين المرابطي والموحدي، إذ اشترى يوسف بت تاشفين سنة 464هـ/1071م ألفي عبد، واشترك معه في معركة الزلاقة 479هـ/1086م أربعة آلاف عبد، وكان عددهم في جيش الناصر محمد بن يعقوب الموحدي ثلاثين ألفا في معركة العقاب سنة 609هـ/1212م[4].

وظلت بلاد السودان الغربي تصدر أعدادا كبيرة من العبيد الذكور والإناث بمختلف الأعمار الذين بيعوا بمختلف الأثمان، وكان يتم عرضهم في العديد من الأسواق حسب العرض والطلب، كأسواق نول ولمطة وسجلماسة خاصة سوق أودغست التي كانت سوقا رائجة لبيع الإماء كما ذكره البكري[5].

2- التأثيرات في المجال الثقافي:

الأثر الغنائي للسودانيين ببلاد المغرب:

عرفت الشعوب السودانية بفنونها الشعبية منذ القديم، خاصة الموسيقى المعتمدة على الطبل والأبواق، والرقص من الفنون الأكثر شيوعا، وعند انتقالها إلى بلاد المغرب ظلت محافظة على خصوصيتها حتى وإن أدخلت عليها بعد التغييرات على الأوزان مثلا لكنها ظلت سودانية صرفة[6]، ويبدو أن بروز الفنون السودانية في بلاد المغرب حسب مامودو كانت بدايته مع

[1]- الإدريسي، المصدر السابق، ص 113.
[2]- ماكودو كان، المرجع السابق، ص 281.
[3]- المرجع نفسه، ص 194.
[4]- حسين بوبيدي، المرجع السابق، ص 117-118.
[5]- ماكودو كان، المرجع السابق، ص ص 166-169.
[6]- حسين بوبيدي، المرجع السابق، ص 118.

المرابطين الذين جندوا السودان لأول مرة في صفوفهم[1]، ويعتبر غناء الكناوة المنتشر لغاية اليوم في بعض الحواضر المغربية موروثا سودانيا ذو جذور إفريقية ومغربية مشتركة، له خصائصه ومميزاته سواء على مستوى الأداء والإيقاع والعرض والرقص وحتى أدوات العزف[2] كالأبواق والأنفار وآلة الكنبري والطبول المسماة "دبا" أو "دى" و"دندف" وهو نوع من الطبول الطويلة الشكل. ويعتبر فن كناوة من أكثر السودانية تأثيرا على ثقافة ومجتمع المغرب الأقصى، وقد اختلف في معنى كلمة كناوة لكن اتفق على أن التسمية لها علاقة بالعناصر السودانية، فقيل بأن لها علاقة بآلة الهجهوج الكناوية الموجودة بمالي، أو قبيلة الكانكا بتنيكت، أو أنها مشتقة من لفظ غينيا أو من اسم مدينة كانة بنيجيريا، وكانت فرق كناوة الغنائية المتجولة قد أثرت كثيرا في الأعراس والحفلات بالمغرب الأقصى، وهو ما قاله بين عبد العزيز عبد الجليل "قسم غير قليل من الفنون الموسيقية التي تتداولها فرق شعبية معينة ببلاد المغرب الأقصى هو الأكثر تعبيرا عن العقلية الزنجية وأكثر انطباعا بخصائص موسيقى شعوب بلاد السودان الغربي"[3]. وحتى الرقصات المنتشرة بجنوب المغرب الأقصى الكثير منها ذات أصل زنجي، كما انتقلت أيضا ظاهرة الرقص التنكري أين يرتدي الرجال جلود الحيوانات أو ريش الطيور، ويخرجون للساحات العامة في المناسبات حاملين العيدان والحراب، يغنون ويرقصون على إيقاع الطبل، واحتفظت فرق كناوة في قاموسها الغنائي على الكثير من الألفاظ الغفريقية من لغة البامبارة مثلا[4].

الأثر اللغوي:

كان التأثير اللغوي السوداني ملحوظا في فترة زمنية معينةفي بلاد المغرب الأقصى خصوصا في الواحات الجنوبية أين تمركز رقيق السودان بأعداد كبيرة، كما أن اللهجات السودانية دخلت إلى المنطقة مع التجار السودانيين، ومع تصاهر الأسر البربرية والعربية التي دخلت بلاد السودان الغربي مع الأسر السودانية، لكن هذه اللهجات اختفت مع الوقت.

[1]- مامودو كان، المرجع السابق، ص 313-315.

[2]- حسين بوبيدي، المرجع السابق، ص 118.

[3]- ماكودو كان، المرجع السابق، ص 316، 290.

[4]- حسين بوبيدي، المرجع السابق، ص 119.

قائمة

المصادروالمراجع

أولا: المصادر:

1- ابن الفقيه الهمذاني أبو عبد الله أحمد بن محمد بن إسحاق، **كتاب البلدان**، تحقيق يوسف الهادي، عالم الكتب للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1996م.

2- ابن حوقل النصيبي أبو القاسم محمد، **صورة الأرض**، دار مكتبة الحياة، لبنان، 1992م.

3- الاصطخري أبو القاسم إبراهيم بن محمد الفاسي، **المسالك والممالك**، تحقيق محمد جابر عبد العالي، دار القلم، مصر، 1961م

4- الحسن الوزان بن محمد الزياتي الفاسي، **وصف أفريقيا**، ج 1، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1983.

5- الإدريسي أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله الشريف، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، مج 1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.

6- ابن بطوطة محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي، **رحلة ابن بطوطة (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)**، تحقيق عبد الهادي تازي، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 1997م، المجلدات 1-4.

7- الونشريسي أبو العباس يحي، **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل افريقية والأندلس والمغرب**، تقديم محمد حجي، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربية، 1984م، الجزء 2.

8- ابن الصغير المالكي، **أخبار الائمة الرستميين**، تحقيق محمد ناصر وإبراهيم حارة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986م.

9- المسعودي أبو الحسن علي، **أخبار الزمان ومن أباده الحدثان وعجائب البلدان والغامر بالماء والعمران**، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط 4، 1980م.

10- المراكشي عبد الواحد، **وثائق المرابطين والموحدين**، تحقيق حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية للنشر، مصر، 1997م.

11- السعدي عبد الرحمن، **تاريخ السودان**، تحرير وتعليق وتقديم حماه الله ولد السالم، لبنان، دار الكتب العلمية، ط1، 1433هـ/2012م.

12- البرتلي أبو عبد الله الولاتي، **فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور**. تحقيق محمد إبراهيم الكتاني ومحمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1981.

13- ابن حزم الأندلسي، **رسائل ابن حزم الأندلسي**، تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1981م، الجزء 2.

14- التنبكتي أحمد بابا، **كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج**، دراسة وتحقيق محمد مطيع، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، 1421هـ/2000م.

15- التنبكتي أحمد بابا، **نيل الابتهاج بتطريز الديباج**،تحقيق علي عمر، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ط1، 2004، المجلد 2.

16- الشنقيطي أحمد الأمين، **آداب البحث والمناظرة**، تحقيق سعود بن عبد العزيز بن محمد العريفي، السعودية، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، السعودية، 2018.

17- الزياني أبو القاسم، **الترجمانة الكبرى في أخبار المعمورة**، تحقيق عبد الكريم الفيلالي، دار المعرفة، الرباط، 1412هـ/1991م.

18- البكري أبو عبيدعبد الله بن عبد العزيز، **المساللك والممالك (المغرب في ذكر إفريقية والمغرب)**، تحقيق أدريان فال ليوفت وأندري فيري، الدار العربية للكتاب، تونس، د.ت.ن، الجزئين الأول والثاني.

19- اليعقوبي أبو العباس أحمد بن إسحاق بن جعفر، **البلدان**، المطبعة الحيدرية، 1957م.

20- مجهول، **الاستبصار في عجائب الأمصار في وصف مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب**، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية، بغداد، د.ت.ن.

ثانيا: المراجع:

21- الهلال أحمد مولود ولد أيّده، **مدن موريتانيا العتيقة قصور ولاته وودان وتيشيت وشنقيط**، تقديم عبد الودود ولد الشيخ، مركز الدراسات الصحراوية، درا أبي الرقراق للطباعة والنشر، الرباط، 2014.

22- الناني ولد الحسين، **صحراء الملثمين دراسة لتاريخ موريتانياوتفاعلها مع محيطها الإقليمي خلال العصر الوسيط من منتصف القرن 2هـ/8م إلى نهاية القرن 5هـ/11م**، تقديم محمد حجي، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط1، 2007م.

23- فيج.جي.دي، **تاريخ غرب أفريقيا**، ترجمة يوسف نصر، دار المعارف، لبنان، ط1، 1982م.

24- الأحيدب إبراهيم بن سليمان، **إقليم الصحراء الكبرى**، الموسوعة الجغرافية للعالم الإسلامي، الرياض، ط1، 1999م، الجزء 11.

25- العربي إسماعيل، **الصحراء الكبرى وشواطئها**، المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982م.

26- بحاز إبراهيم، **الدولة الرستمية (160-296هـ/777-909م) دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية**، جامعة التراث القرارة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1993م.

27- فريد المهندس، **العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان الغربي في عصر دولتي بني مرين ومالي، في القرن 7-9هـ/13-15م**، نور حوران للدراسات والنشر والتراث، دمشق، ط1، 2021م.

28- الطاهر أحمد، **إفريقيا فصول من الماضي والحاضر**، دار المعارف، القاهرة.

29- عبد الكريم جودت يوسف، **العلاقات الخارجية للدولة الرستمية**، ج1، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، 1984، ص 249.

30- كان مامادو، **التراث الحضاري المشترك بين بلاد المغرب الأقصى والسودان الغربي من القرن (5-10هـ/11-16م)**، دار الإسراء، نواكشوط، ط1، 1445هـ/2024م.

31- عمرو منصور، **ذهب غرب إفريقيا وعروش الدول الإسلامية من سحر القيام إلى ألام السقوط (140-628هـ/757-1230م)**، نور حوران للدراسات والنشر والتراث، دمشق، ط1، 2021م.

32- صالح معيوف مفتاح، **جبل نفوسة وعلاقته بالدولة الرستمية من منتصف القرن 2هـ إلى أواخر القرن 3هـ**، مؤسسة توالت الثقافية، د.م.ن، د.ت.ن، ص 66.

33- عماري الحسين، **المغرب والتجارة العابرة للصحراء من القرن 15إلى القرن 18م**، مطبعة وورك بيرو، مراكش، ط3، 2019م.

34- الدالي الهادي مبروك، **التاريخ السياسي والاقتصادي لأفريقيا في ما وراء الصحراء من نهاية القرن الخامس عشر إلى بداية القرن الثامن عشر**، الدار المصرية اللبنانية القاهرة، ط1، 1999م.

35- الغربي محمد، **بداية الحكم المغربي في السودان الغربي**، مؤسسة الخليج، الكويت، الجزء 1.

36- علوي حسن حافظي، **سجلماسة و إقليمها في القرن الثامن من الهجري إلى الرابع عشر ميلادي**، المملكة المغربية، 1997م.

37- عوض الله أمين ، **تجارة القوافل بين المغرب والسودان الغربي وآثاره الحضارية حتى القرن التاسع عشر للميلاد**، معهد البحوث والدراسات العربية، بغداد، 1984م.

38- علي جمعة محمد، **المكاييل والموازين الشرعية**، القدس للنشر، القاهرة، 2001م.

39- الشكري أحمد، **الإسلام والمجتمع السوداني إمبراطورية مالي 1230-1430م**، دار أبير الرقراق، الرباط، 2015م.

40- الفيتوري عطية مخزوم، **دراسات في تاريخ شرق إفريقيا وجنوب الصحراء**، جامعة قار يونس، بنغازي، ط1، 1988م.

41- الحريري عيسى، **تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني (610-869هـ/1213-1465م)**، الكويت، دار القلم، ط1، 1985م.

42- الشاهدي حسن، **أدب الرحلة في العصر الماريني**، ج 1، الرباط، دار عكاظ، 1990م.

43- بن شقرون محمد بن أحمد، **مظاهر الثقافة المغربية**، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، 1406هـ/1985م.

44- كراتشكوفسكي إغناطيوس يوليانو فيس، **تاريخ الأدب الجغرافي العربي**، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، جامعة الدولة العربية، القاهرة، مصر، 1963م، الجزء 1.

45- ناصر محمد، **دور الاباضية في نشر الإسلام بغرب إفريقيا**، سلطنة عمان، مكتبة الضامري، د.ت.ن.

46- حر عنتر محمد أحمد مرجان، **فقهاء المالكية و آثارهم في مجتمع السودان الغربي**، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ط1، 1432هـ/2011م.

47- مهدي رزق الله أحمد، **حركة التجارة والإسلام والتعليم في غرب إفريقيا**. مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، ط1، 1998م.

48- طرخان إبراهيم علي، **إمبراطورية غانة الإسلامية**، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للنشر والتأليف، 1970م.

49- إيهاب شعبان عبد الشافي، **القضاء في دولتي مملكة مالي وصنغاي و أثره الحضاري في المجتمع (636-1000هـ/1238-1591م)**، القاهرة، الإفريقية الدولية للنشر والطبع والتوزيع، ط1، 2014م.

50- الماحي محمد المختار محمد، **المذهب المالكي (مدارسه ومؤلفاته خصائصه وسماته)**، الإمارات العربية المتحدة، مركز زايد للتراث والتاريخ، ط1، 1422هـ/2002م.

51- حسن علي حسن، **الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين**، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 1980م.

52- زبادية عبد القادر، **مملكة سنغاي في عهد الأسقيين 1493-1591**، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1971م.

53- الأحمر أسماء أحمد، **الدين والدولة في مملكة سنغاي الإسلامية (869-1000هـ/1464-1591م)**، طرابلس، الجامعة المغاربية، ط1، 2008م.

54- بعيزيق صالح، **بجاية في العهد الحفصي: دراسة اقتصادية واجتماعية**، تونس، منشورات كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، 2006م.

55- شاكر محمود، **السودان ومواطن الشعوب الإسلامية في إفريقيا**، المكتب الإسلامي، بيروت، ط2، 1401هـ/1981م.

56- باري محمد علي فاضل وكريدية إبراهيم، **المسلمون في غرب إفريقيا تاريخ وحضارة**، دار الكتب العلمية، لبنان، 2007م.

ثالثا: المقالات:

57- قطب أماني محمد محمد، "عقبات طرق القوافل الصحراوية بين مصر وبلاد السودان الغربي منذ القرن (2-8)هـ/ (8-14)م"، المجلة العلمية لكلية الآداب، جامعة أسيوط، مصر، المجلد 23، العدد 75، جويلية 2020م.

58- بوبيدي حسين، "التجارة والتجار في إفريقيا الغربية من خلال المصادر الأوربية ق 14-16م"، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة قسنطينة 2، مج 6، ع 1، جوان 2020م.

59- المتوكل هشام، "اللصوص في المغرب الإسلامي خلال العصر الموحدي أثر الأزمات على الانحراف السلوكي"، دورية كان التاريخية، السنة 13، العدد 49، سبتمبر 2022م.

60- حياوي فراس سليم وحميد محمد عبيس، "الدولة الرستمية وعلاقاتها الخارجية (160- 296هـ/ 776– 908م)"، مجلة كلية التربية الأساسية، جامعة بابل، العراق، العدد 10، كانون الثاني 2013م.

61- بن محجوبة عبد القادر وبن موسى حمادي، "الطرق التجارية والعلاقات الاقتصادية بين تونس والسودان الغربي خلال عهد الدولة الحفصية 1228-1574م"، المجلة التاريخية الجزائرية، جامعة المسيلة، المجلد 5، العدد 1، 2021م.

62- قربان عبد الجليل، "الواقع والآثار في العلاقات التجارية بين تلمسان والسودان الغربي خلال العهد الزياني (633-969هـ/1235-1554م)"، مجلة العلوم الاجتماعية والانسانية، جامعة المسيلة، العدد 13، ديسمبر 2017م.

63- مخلوفي أبو بكر، "العلاقات التجارية لممالك شمال إفريقيا خلال القرن 15م"، الموقع الالكتروني:
https://almojaded.com/2020/03/23/13/

64- يماني رشيد، "صور من التواصل الحضاري بين الأندلس وممالك السودان الغربي"، مجلة القرطاس، تلمسان، العدد 3، جانفي 2017م.

65- عبد الباسط المستعين، "التلاقح الحضاري بين حواضر المغرب الأوسط والسودان الغربي والأوسط خلال العصر الإسلامي"، مجلة قراءات تاريخية، العدد 30، شوال-ذي الحجة 1437هـ/أكتوبر-ديسمبر 2016م.

66- ميغا عبد الرحمن محمد، "دور علماء السودان الغربي في خدمة المذهب المالكي ونشره"، مجلة العلماء الأفارقة، العدد 6، السنة الثالثة 2023م.

67- الجمل شوقي عطا الله، "الحضارة الإسلامية العربية في غرب إفريقيا سماتها ودور المغرب فيها"، مجلة المناهل المغربية، المغرب، العدد 7، 1976م.

68- الشاهري مزاحم علاوي محمد، "حضارة الصحراء الكبرى من خلال مصادر العصر الوسيط"، مجلة عصور الجديدة، جامعة وهران 1، العدد 5، 2012م.

69- الحديدي الحسين، "الممالك الإسلامية بغرب إفريقيا وإشعاع الحياة الفكرية بها في العصر الوسيط وبداية الحديث"، مجلة قراءات إفريقية، السنة 14، العدد 35، جانفي 2018م، ص 25.

70- الشمراني أمل بنت صالح بن غصاب، "مجاورة بيت الله الحرام وأثرها الحضاري في بلاد السودان الغربي"، قراءات افريقية، العدد 16، 2018م.

71- ميغا عبد الرحمن محمد، "العقيدة الأشعرية في السودان الغربي وأعلامها"، مجلة العلماء الأفارقة، العدد 2، السنة الأولى 2020م.

72- يعقوب علي، "العائلات العلمية في السودان الغربي دراسة وصفية: عائلة أقيت نموذجا". مجلة قراءات إفريقية، عدد 44، السنة 16، أفريل 2020م.

73- جعفري أحمد، "المذهب المالكي في بلاد السودان الغربي وتأثره بفقهاء بلاد المغرب: قراءة في المصادر العربية والافريقية ما بين القرنين 14 و17 الميلاديين"، مجلة آفاق علمية، مجلد 12، عدد 1، 30 أفريل 2020م.

74- الشعرة زكرياء، "إسهامات علماء من السودان الغربي في الحركة العلمية بالمغرب وتراثهم المخطوط بالمكتبات المغربية فيما بين القرنين 16 و19م"، مجلة ذخائر، المغرب، العدد الثامن، ديسمبر 2020م.

75- زريوح زين العابدين، "إشعاع علماء السودان الغربي في المغرب أحمد بابا اتنبكتي أنموذجا"، مجلة الرصد العلمي، جامعة وهران 1، المجلد 8، ديسمبر 2021م.

76- ميغا أبو بكر إسماعيل، "الحركة العلمية والثقافية والإصلاحية في بلاد السودان الغربي"، مجلة الإمام محمد ابن مسعود، السعودية، دار المنظومة الإسلامية، عدد 11، د.ت.ن.

77- خالدي مسعود، "العلاقات التجارية بين دول المغرب الأوسط وممالك السودان الغربي في العصر الوسيط"، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، مجلد 6، عدد 3، ديسمبر 2020م.

78- علاوي عبد السلام ويمينة بن صغير حضري، "دور العلاقات السياسية للدولة الرستمية مع مملكة كوكو في تنشيط الحركة التجارية: سفارة محمد بن عرفة أنموذجا"، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، المجلد 14، العدد 3، 2021م.

79- سيد عبد الله مراد، "الصلات بين بلاد المغرب والسودان الغربي خلال القرن 2-6هـ/8-12م"، الموقع الاكتروني:
https://subject1962.blogspot.com/2016/08/2-6-8-12.html

80- حسانين ريحاب محمود إبراهيم محمد، "العلاقات الخارجية للسلطان المستنصر الحفصي (647-675هـ/1249-1277م)"، مجلة الآداب جامعة بور سعيد، مصر، العدد 11، يناير 217م.

المداخلات في الملتقيات:

81- بوبيدي حسين، التجارة الصامتة ي السودان الغربي: قراءة في نقاش تاريخي، مداخلة بالملتقى الوطني الأول العلاقات الاقتصادية بين بلاد المغرب الإسلامي وبلاد السودان الغربي خلال العصر الوسيط وانعكاساتها الحضارية على النواحي الاجتماعية والثقافية، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتاعية، جامعة ابن خلدون تيارت، 20 ديسمبر 2023.

رابعا: الاطاريح والرسائل الجامعية:

82- مولاي محمد، **القضاء والقضاة ببلاد السودان الغربي من أواخر القرن التاسع هجري حتى الثاني عشر هجري (15-18م)**، أطروحة دكتوراه علوم غير منشورة، جامعة وهران 1، قسم الحضارة الإسلامية، 2019/2018م.

83- باز أحمد السيد، **الحياة العلمية والثقافية في بلاد السودان الغربي في عهد دولتي مالي وصنغاي (638-999هـ/1240-1591م)**، رسالة ماجستير غير منشورة، معهد الدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة، 1994/1993م.

84- رضوان هواري، **التحولات الاقتصادية والاجتماعية في السودان الغربي من القرن 7هـ/ 13م إلى القرن 10هـ/ 16م**، أطروحة دكتوراه، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 2020/2019م.

85-حاج أحمد نور الدين، **المنهج الدعوي للمغيلي**، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية، قسم أصول الدين، جامعة الحاج لخضر باتنة، 2011/2010م.

86- الشيخلي حسن علي إبراهيم، **تأثير الإسلام وثقافاته في السودان الغربي منذ القرن الحادي عشر الميلادي حتى نهاية القرن السادس عشر**، أطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية الدراسات العليا والآداب قسم التاريخ والحضارة الإسلامية، جامعة أم درمان الإسلامية، 2009/2008م.

خامسا: المحاضرات:

87- بوبيدي حسين، **محاضرة التبادل التجاري بين المغرب الإسلامي وبلاد السودان: شبكة الطرق التجارية**، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة عبد الحميد مهري، قسنطينة 2، 2021/2020، منصة التعليم عن بعد، الرابط الالكتروني:
https://elearning.univ-constantine2.dz/elearning/course/view.php?id=727

88- بوبيدي حسين، **محاضرة الحواضر الصحراوية الفاعلة في العلاقات (1)**،كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة عبد الحميد مهري، قسنطينة 2، 2021/2020، منصة التعليم عن بعد، الرابط الالكتروني:
https://elearning.univ-constantine2.dz/elearning/course/view.php?id=727

89- بوبيدي حسين، **محاضرة الحواضر الصحراوية الفاعلة في العلاقات (2)**، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة عبد الحميد مهري، قسنطينة 2، 2021/2020، منصة التعليم عن بعد،الرابط الالكتروني:
https://elearning.univ-constantine2.dz/elearning/course/view.php?id=727

90- بوبيدي حسين، **محاضرة التأثير المغربي على المجتمع السوداني**، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة عبد الحميد مهري، قسنطينة2، منصة التعليم عن بعد، الرابط الالكتروني:
https://elearning.univ-constantine2.dz/elearning/course/view.php?id=727

91- بوبيدي حسين، **محاضرة التأثير المغربي على العمران السوداني**، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة عبد الحميد مهري، قسنطينة 2، منصة التعليم عن بعد، الرابط الالكتروني:
https://elearning.univ-constantine2.dz/elearning/course/view.php?id=727

فهرس الموضوعات

العنوان	الصفحة
تقديم المحاور والمحاضرات	أ
مفردات المقياس	د
المحور الأول: جذور العلاقات بين الشمال الإفريقي بإفريقيا جنوب الصحراء في الفترة القديمة	
المحاضرة الأولى: العلاقات بين الشمال الإفريقي والسودان في القديم	2
المحور الثاني: المسالك التجارية	
المحاضرة الثانية: المسالك التجارية	9
المحاضرة الثالثة: تجارة القوافل ونظم المبادلات التجارية	18
المحور الثالث: الحواضر والقبائل الصحراوية الفاعلة في العلاقات	
المحاضرة الرابعة: الحواضر الصحراوية والسودانية الفاعلة في العلاقات	36
المحاضرة الخامسة: القبائل الصحراوية الفاعلة في العلاقات	49
المحور الرابع: دولة المرابطين وامتداداتها في بلاد السودان	
المحاضرة السادسة: دولة المرابطين ببلاد السودان الغربي	59
المحور الخامس: العلاقات السياسية	
المحاضرة السابعة: العلاقات السياسية بين الغرب الإسلامي والسودان الغربي	65
المحور السادس: العلاقات الاقتصادية	
المحاضرة الثامنة: العلاقات الاقتصادية بين الغرب الإسلامي والسودان الغربي	72
المحور السابع: العلاقات الثقافية	
المحاضرة التاسعة: الصلات الثقافية بين الغرب الإسلامي والسودان الغربي	81
المحور الثامن: الأثر المغربي في بلاد السودان	
المحاضرة العاشرة: التأثير المغربي على المجتمع السوداني	87
المحاضرة الحادية عشر: التأثير المغربي على العمران السوداني	94
المحاضرة الثانية عشر: المذهب المالكي بالسودان الغربي	98
المحاضرة الثالثة عشر: التصوف والعقيدة الأشعرية في السودان الغربي	107
المحور التاسع: الأثر السوداني في بلاد المغرب	
المحاضرة الرابعة عشر: الأعلام السودانيون	112
المحاضرة الخامسة عشر: الأثر السوداني على المجتمع والثقافة المغاربية	123
قائمة المصادر والمراجع	126
فهرس الموضوعات	133